تاريخ اوربا والعالم الحديث

من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة

الجزء الثانى

من تسوية مؤتمر ڤيينا ١٨١٥
إلى تسوية مؤتمر ڤرساى ١٩١٩

د. عبد العظيم رمضان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الغلاف للفنان

جمال قطب

الإخراج الفنى

صبرى عبد الواحد

تقديم

يسرنى أن أقدم للقارئ هذا الكتاب عن تاريخ أوروبا والعالم الحديث، من ظهور الطبقة البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة، ويشتمل على تسعة قرون، تبدأ بالقرن الحادى عشر وتنتهى بالقرن العشرين. وهذه القرون التسعة تضم بين ضفتيها تاريخ العالم الحديث بكل سماته وخصائصه ومعالمه التى تميزه عن العالم الوسيط.

ومعنى ذلك أن هذا الكتاب يختلف عن كتب المدرسة التقليدية فى كتابة التاريخ، سواء فى أوروبا أو مصر، التى تنظر إلى التاريخ من منظور سياسى بحت، وتفسر كل ما يطرأ عليه من تغييرات وتطورات اقتصادية واجتماعية فى ضوء هذا المنظور، فتقلب التاريخ رأساً على عقب، وتقدم فيه النتائج على المقدمات، وتخلط الأحداث السياسية مع الأحداث الاقتصادية والاجتماعية دون تمييز.

وقد تمثل ذلك فيما جرى من خلاف بين فرق المدرسة التقليدية حول بداية التاريخ الحديث. فالبعض بدأ بعصر النهضة فى القرن الرابع عشر، على أساس أنه مرحلة انتقال بين العصر الوسيط والعصر الحديث. والبعض الآخر بدأ بالقرن الخامس عشر على أساس أن هذا القرن هو الذى وقعت فيه الأحداث التى أثرت فى مجرى التاريخ، ففيه سقطت القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣م، وسقطت غرناطة فى أيدى قوات فرديناند وإيزابيلا سنة ١٤٩٢م، وبذلك بدأ التاريخ الحديث.

على أن البعض بدأ التاريخ الحديث بالقرن السادس عشر، على أساس أنه القرن الذى ظهرت فيه الدولة الحديثة وحركة الإصلاح الدينى، وما نتج عن هذين الحدثين العظيمين من حروب.

والبعض الآخر بدأ بالقرن السابع عشر، على أساس أنه القرن الذى وقعت فيه حرب الثلاثين عاماً، والثورة العظمى فى إنجلترا، وتفوق فرنسا، وحروب الوراثة الأسبانية. بل إن بعض المدارس السوفيتية حددت بداية التاريخ الحديث بالثورة البورجوازية فى إنجلترا فى القرن السابع عشر.

وواضح أن هذه المدارس تقدم التاريخ مقلوباً على رأسه، إذ تقدم النتائج على المقدمات ـ كما ذكرنا ـ فعصر النهضة كان نتيجة وليس مقدمة للتاريخ الحديث، وظهور الدول القومية الحديثة وحركة الإصلاح الدينى وحرب الثلاثين عاماً، والثورة العظمى فى إنجلترا، وتفوق فرنسا، وحرب الوراثة الأسبانية ـ هذه كلها نتائج لتغيير علاقات الإنتاج التى بدأت بظهور الطبقة البورجوازية فى أوروبا فى رحم المجتمع الاقطاعى، وتغييرها علاقات الإنتاج من علاقات إنتاج إقطاعية إلى علاقات إنتاج بورجوازية، وبذلك تغير البناء الفوقى تغيراً كلياً، وهو ما يمثل التاريخ الحديث.

فالتاريخ الحديث هو تاريخ الطبقة البورجوازية بقدر ما يعتبر تاريخ العصور الوسطى هو تاريخ الطبقة الإقطاعية، والعصور التاريخية تبدأ بتغير علاقات الإنتاج، ولا تبدأ بأحداث سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، فهذه العلاقات تمثل البناء التحتى الذى ينبنى فوقه البناء السياسى والعسكرى والقانونى والدينى والفنى والأدبى والفكرى والعلمى والعلاقات الدولية وكل ما يكوِّن الحضارة البشرية.

ومن هنا كان علينا فى هذا الكتاب أن نقيم التاريخ على قدميه بعد أن كان مقلوباً على رأسه. فنبدأ بالطبقة البورجوازية الأوروبية التى غيّرت وجه الحياة فى أوروبا والعالم، وصبغتها بصبغتها، وننتقل إلى نتائج ظهور هذه الطبقة فى البناء الفوقى، المتمثلة فى النهضة الأوروبية التى نشأت على يد الطبقة البورجوازية فى المدن التجارية فى إيطاليا، وما أحدثته من تغيير فى الفكر والفلسفة والعلوم والفنون والاعتقاد.

ثم ننتقل إلى حركة الإصلاح الدينى باعتبارها إحدى نتائج ظهور الطبقة البورجوازية، وما قامت به من إعادة النظر فى الحياة الدينية التى كانت خاضعة للكنيسة فى العصور الوسطى، بحكم سيطرتها على الدين وقراءة الإنجيل، وامتلاكها وسائل الإنتاج.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى ظهور الدول القومية كنتيجة لتحطيم حواجز الإقطاع على يد الطبقة البورجوازية، واتجاه هذه الدول القومية إلى إثبات ذاتها عن طريق التوسع فى أوروبا، الأمر الذى يؤدى إلى «الحروب الإيطالية»، وكذلك التوسع خارج أوروبا، وهو ما يؤدى إلى حركة الكشوف الجغرافية والمرحلة الاستعمارية الأولى، وهى الحركة التى قامت على يد الطبقة البورجوازية ولم تقم على يد الطبقة الإقطاعية التى كانت بعيدة بتفكيرها عن التطلع إلى ما وراء البحار.

ثم يمضى تاريخ العالم الحديث على يد الطبقة البورجوازية، فتتغير النظام السياسى فى أوروبا الذى كان قائماً على أساس نظام الملكية المطلقة فى القرن السابع عشر، إلى نظام الملكية المستبدة المستنيرة فى القرن الثامن عشر، والذى كان سائداً فى دول أوروبا فيما عدا فرنسا، فتنشب الثورة

الفرنسية بفكر قومى واجتماعى جديد يستهدف القضاء على بقايا الإقطاع، وهدم الطبقة الإقطاعية وإسقاط الحق الإلهى للملوك فى الحكم الذى ساد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقيام الدولة القومية على أساس تشخيص الشعب للدولة وليس الملك كما كان الحال منذ بداية العصر الحديث.

ولكن يترتب على هدم الحق الإلهى للملوك فى الحكم أن تهب الدول والأسر الحاكمة فى أوروبا التى تستشعر الخطر، لمحاربة الثورة الفرنسية، وإخماد فكرها الثورى حتى لا ينتقل إلى الدول التى تحكمها، وبذلك تفسح المجال لظهور نابليون للدفاع عن مبادئ الثورة الفرنسية، وإعادة تقسيم أوروبا على أساس هذه المبادئ، فتنقسم أوروبا بين النظم الديموقراطية والنظم الاستبدادية. ولكن النظم الاستبدادية تنتصر على نابليون، وتعيد فى مؤتمر فيينا الذى عقد بعد هزيمة نابليون، الأسر الحاكمة الاستبدادية القديمة.

وهنا يتغير تاريخ أوروبا بالحركات القومية والدستورية التى تتصارع مع النظم الاستبدادية التى فرضت سيطرتها من جديد على أوروبا، وتتلقى هذه الحركات دعماً من علاقات الإنتاج البورجوازية الجديدة التى ظهرت بعد أن هدمت الثورة الفرنسية علاقات الإنتاج الإقطاعية القديمة، فيحدث التطابق بين علاقات الإنتاج ووسائل الانتاج، ويترتب على ذلك الثورة الصناعية التى انتقلت بالبورجوازية الأوروبية إلى مرحلة جديدة من حياتها، هى مرحلة توحيد السوق الداخلية فى البلاد التى نضجت لهذا التوحيد، وتحقيق وحدتها القومية بالتالى.

لذلك تتحقق الوحدة الإيطالية على يد كافور، وفى ألمانيا على يد بسمارك. وفى الولايات المتحدة يكون انتصار الشمال الرأسمالى فى الحرب الأهلية الأمريكية بداية تحقيق الوحدة القومية الأمريكية على أسس راسخة. وفى اليابان تتمكن البورجوازية اليابانية الصناعية من نقل اليابان من مرحلتها الإقطاعية إلى المرحلة الرأسمالية.

وكل ذلك يدفع البورجوازية فى العالم الصناعى، بعد توحيد سوقها الداخلية، إلى البحث عن أسواق جديدة، ولكنها تختلف عن الأسواق القديمة فى المرحلة التجارية فى أنها أسواق للحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة بأرخص الأسعار، وتسويق المنتجات الصناعية التى تضخها مصانع أوروبا وأمريكا واليابان بأغلى الأسعار.

ويتطلب الصراع على الأسواق فى أواخر القرن التاسع عشر عقد الاتفاقات الاستعمارية من جديد لتقسيم الأسواق، فيتم تقسيم أفريقيا فى مؤتمر برلين فى عام ١٨٨٤م و١٨٨٥م، وفى الوقت نفسه تقوم التحالفات الأوروبية وفقاً لمبدأ توازن القوى، ولكن كل ذلك يفشل فى منع الحرب، فتنشب الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤م وتستمر أربع سنوات.

وعندما تنتهى الحرب العالمية الأولى تكون قد اختفت الإمبراطوريات الأربع التى ظلت تملأ صفحات التاريخ الأوروبى بالحروب، وهى: إمبراطورية النمسا والمجر، والإمبراطورية العثمانية، والإمبراطورية الروسية، والإمبراطورية الألمانية، وتسقط بذلك أسرتا «الهابسبورج» وآل عثمان، وأسرة رومانوف، وأسرة هوهنزوليرن.

وتتعلم البورجوازية الغربية الدرس، فتعيد تقسيم العالم من جديد على أسس قومية، بعد أن أصبحت الدولة القومية لا محيص عنها لتوحيد السوق الداخلى، وتأتى بنظام دولى جديد هو نظام عصبة الأمم، وتحاول وضع العملاق الألمانى فى قمقم باقتطاع أطرافه وضمها إلى الدول القومية المجاورة. وفى الوقت نفسه ينهار النظام الإقطاعى والرأسمالى فى روسيا بانتصار الثورة الاشتراكية فى أثناء الحرب.

وهنا يظهر، كرد فعل مضاد له، النظام الفاشى فى ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية، ويكون هذا النظام الفاشى تعبيراً عن دكتاتورية الطبقة البورجوازية لحماية نفسها من النظام الشيوعى. ويؤدى الصراع الاستعمارى من جديد بين الدول الليبرالية والشيوعية من جهة، والدول الفاشية من جهة أخرى، إلى الحرب العالمية الثانية، بعد فشل نظام عصبة الأمم وعجزها عن منع الحرب.

وتنتهى الحرب بهزيمة الدول الفاشية والنازية، وانتصار الدول الليبرالية والشيوعية، وتحاول الدول المنتصرة تقسيم العالم من جديد على أسس القومية، وتقيم على أنقاض عصبة الأمم نظام هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن.

ولكن التناقض بين النظم الليبرالية والنظم الشيوعية يدفع إلى صراع دولى على أساس جديد، وهو الأساس الأيديولوجى، حيث تواجه البورجوازية الغربية أكبر تحد لها على مدى تاريخها من جانب نظام يقوم على طبقة البروليتاريا، وتكاد تتحقق نبوءة ماركس بأن البورجوازية فى نموها تنمو معها بذور فنائها، وهى الطبقة العاملة.

ويؤدى هذا الصراع إلى نوع جديد من الحروب لم تشهده البشرية، وهى الـ-ـب الباردة. وهى التى نختم بها هذا الكتاب.

وسوف يلاحظ القارئ أن هذا الكتاب، على الرغم من أنه يدور فى إطار أيديولوجى، فإنه يتبع المنهج التاريخى من ناحية تقسيماته التى تقوم على أساس زمنى، وهو أمر طبييعى استلزمه تتبع النشاط السياسى والاقتصادى والاجتماعى للبورجوازية الأوروبية، والذى كان يحدث بشكل تكاملى ومراحل تترتب على مراحل.

وبالنسبة لكتاب فى هذا الحجم كان من الضرورى إعطاء أولويات فى التناول، وتوسيع فى بعض الموضوعات وتضييق فى بعضها الآخر، وفقاً لرؤية المؤرخ. كما تطلب ذلك التركيز على بعض الموضوعات والاكتفاء بالإشارة إلى موضوعات أخرى فى شكل تحليلى. وهذا ما يميز الكتب عن الموسوعات التاريخية، فهدفنا هو أن يلم القارئ بما طرأ على العالم الحديث من تطور تاريخى فى إطار كتاب محدود بصفحاته وليس فى إطار موسوعة تتكون من مجلدات.

وقد حرصت حرصاً شديداً على أن أتبع كل اسم أجنبى بحروفه اللاتينية، لأنها الأساس فى النطق، ولأن تعريب الأسماء يخضع لاجتهادات المؤرخين وفقاً لاتساع معرفتهم باللغات المختلفة، وبالتالى فإن معرفة الأسماء وفقاً لحروفها العربية فيه تضليل كبير للقارئ الذى من الأفضل له أن يعرف الشكل الأجنبى الذى هو الأساس. وإن كان ذلك لم يمنعنا من كتابة الأسماء التى تعورف عليها بين المؤرخين وفقاً لاجتهاداتهم، اعتماداً على أن إثبات النص الأجنبى فيه الكفاية.

وهذا ما دعانى إلى تقديم الخرائط فى غالبيتها فى هذا الكتاب بلغتها الإنجليزية، اعتماداً على أننى قدمت للقارئ اسم البلد بالحروف اللاتينية إلى جانب الحروف العربية، وبالتالى فلا صعوبة أمامه فى العثور على بغيته فى الخرائط الأجنبية. هذا فضلاً عن أن الخرائط الأجنبية أكثر دقة ولا لبس فيها ولا غموض. ووجودها فى هذا الكتاب يغنى القارئ عن اللجوء إلى الكتب الإنجليزية التى قد يصعب حصوله عليها. وقد آثرت وضع الخرائط جميعها فى نهاية الكتاب لسهولة الرجوع إليها فى فهرس الكتاب.

وقد ذيلت الكتاب بعدد كبير من المراجع لمن يرغب فى الاستزادة، واعترافاً بفضلها فى تحضير مادة هذا الكتاب، وهى كتب إنجليزية، ومترجمة عن الإنجليزية أو الفرنسية أو عربية. وقد أودعت فى هذا الكتاب خلاصة خبرتى فى تدريس التاريخ الأوروبى وتاريخ العالم فى الجامعات المصرية إنطلاقاً من المادية التاريخية التى أرى أنها أقوى أداة لتفسير التاريخ.

والله الموفق ...

أ. د. عبدالعظيم رمضان

الهرم فى ١٥ يوليو ١٩٩٦م

الفصل التاسع

تسوية مؤتمر فيينا
سبتمبر ١٨١٤ - يونية ١٨١٥م

تســـوية مؤتمــر فيينـــــا
سبتمبر ١٨١٤ - يونية ١٨١٥م

كان على أثر انتهاء الحروب النابليونية أن عقد مؤتمر من الدول الأوروبية المتحالفة Congress فى فيينا لمعالجة المشكلات السياسية التى نجمت عن هذه الحروب، وإعادة بناء الخريطة الأوروبية.

ولما كان هذا المؤتمر قد ألقى بظله على أوروبا طوال القرن التاسع عشر تقريبا، فيهمنا فى البداية أن نقدم بعض الملاحظات المتعلقة به.

أولاً : أن هذا المؤتمر لم ينعقد لإبرام الصلح، لأن شروط الصلح كان قد تم وضعها فى معاهدة باريس الأولى فى ٣٠ مايو ١٨١٤م، وبذلك أصبحت الحرب منتهية فعلا وقانونا بين فرنسا والدول المتحالفة ضدها - وانما انعقد المؤتمر للبحث فى شئون أوروبا العامة وتسوية المشكلات التى تجمعت عن هذه الحروب الطويلة.

ثانياً : أنه على الرغم مما سوف نجده من تناقض فى تسوية فينا، فمن الممكن اعتبارها بداية قرن من التقدم والاستقرار والتوسع، لأنها استهلت أطول فترة لم تعكرها حرب شاملة - فترة لم تعرفها أوروبا منذ أيام السلم الرومانى فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد.

ثالثاً : أن الغرض من عقد المؤتمر لم يكن إعادة تنظيم شئون أوروبا على قواعد جديدة باعتبار أن النظام الأوروبى «قد انهار من أساسه نتيجة لحروب الثورة ونابليون»، وإنما اجتمع المؤتمر لإعادة النظام القديم بعد إجراء بعض التحسينات عليه، فقد كان هذا النظام فى نظر ساسة أوروبا فى ذلك الحين - وهو الذى يقوم على احترام السلطات الحكومية، وتمجيد التقاليد، والمحافظة على التوازن - خير نظام وجد ليضمن سيادة القانون.

رابعاً : أن إصرار ساسة فيينا على إعادة الحال فى أوروبا إلى ماكان عليه، مع تجاهل أثر الثورة، قد أدى إلى اعتبار فترة انعقاد المؤتمر، ثم الفترة التى شهدت رجوع الملكيات السابقة إلى الحكم، والعودة إلى الأنظمة القديمة عموما، عهد الرجعية فى أوروبا.

وكان الأصل فى نشأة هذا المؤتمر أنه نص فى معاهدة باريس الأولى ٣٠ مايو ١٨١٤م فى مادتها الـ ٣٢، على أن تتعهد الدول

المشتركة فى الحرب من كلا الطرفين، بإرسال مندوبيها فى خلال شهرين إلى فينا، للاجتماع فى مؤتمر عام لوضع التسوية التى تضمنتها نصوص هذه المعاهدة.

وعلى ذلك صار المؤتمر يتألف من الدول التى وقعت معاهدة باريس الأولى، وكانت سبعة، هى: بريطانيا، وروسيا، والنمسا، وبروسيا، والسويد، واسبانيا، والبرتغال.

على أن النشاط فى المؤتمر انحصر، بموجب اتفاق بين الدول الكبرى، بين أربع دول فقط، هى: بريطانيا، وروسيا، والنمسا، وبروسيا، التى تألف منها ماعرف باسم لجنة الأربعة. ثم نجح تاليران فى اجتماع المؤتمر أن يجعل الدول توافق على انضمام فرنسا إلى هذه اللجنة التى تحولت إلى «لجنة الخمسة».

وكانت لجنة الخمسة هذه هى المؤتمر فعلا التى استأثرت بإنجاز القرارات فى المسائل المهمة. وعندما انتهى المؤتمر من أعماله انضمت ثلاث دول أخرى هى: السويد، واسبانيا، والبرتغال إلى الدول الخمس فى التوقيع على قرار المؤتمر النهائى Final Act فى ٩ يونيه ١٨١٥م.

وقد شهد مؤتمر فيينا عدد عظيم من الشخصيات التاريخية، على رأسهم مترنيخ Metternich وزير النمسا، الذى تمكن من السيطرة على شئون القارة الأوروبية فترة طويلة من الزمن، حتى عرف نظام المراقبة والمقاومة للشعوب الذى فرضه باسم «نظام مترنيخ».

وقد تفرع عن المؤتمر عدد من اللجان الأخرى لدراسة الموضوعات التفصيلية وإعداد البيانات اللازمة.

ومن هذه اللجان لجنة الثمانية التى وقعت القرار النهائى فى ٩ يونية ١٨١٥م. وكانت مهمتها تلقى القرارات والبحوث الخاصة بالمسائل الأوروبية المهمة. وقد درست هذه اللجنة موضوع «تجارة الرقيق»، ومسألة «الاتحاد السويسرى».

ثم «اللجنة الألمانية»، ومهمتها بحث شئون ألمانيا ووضع دستور لها.

ثم لجنة الإحصاءات، ومهمتها تعداد السكان فى الأرض التى يراد استبدالها وإعطاؤها كتعويض كجزء من التسويات.

وقد اشتهر من سكرتارية المؤتمر اثنان «فردريك فون جينتز» Gentz الروح الشريرة المتسلطة على مترنيخ، وشيطانه الذى لايفارقه، والآخر «دى مارتنس» Martens وهو صاحب مجموعة معروفة للمعاهدات الدولية.

وقد تناول المؤتمر مسائل تسع :

١ ـ المسألة البولندية السكسونية.

٢ ـ حدود الراين.

٣ ـ بلجيكا وهولندا.

٤ ـ الدانمارك والسويد.

٥ - سويسرا.

٦ - إيطاليا.

٧ - الاتحاد الألمانى.

٨ - الأنهار الدولية.

٩ - تجارة الرقيق.

وقد قامت تسوية فينا على عدة أسس :

أولاً : مبدأ توازن القوى.

ثانياً : التعويضات الإقليمية.

ثالثاً : الحق الشرعى للملوك.

رابعاً : تأمين أوروبا من الخطر الفرنسى.

وبالنسبة لمبدأ توازن القوى – فقد أُرجعت فرنسا إلى حدودها السابقة، التى كانت عليها قبل حروبها الأخيرة (أى إلى حدود عام ١٧٩٢م)، لإعادة التوازن الدولى فى أوروبا. وحرصت التسوية على عدم إعطاء ميزات لأية دولة أخرى من الدول العظمى تجعلها قوية بالدرجة التى تمكنها من السيطرة بمفردها على شئون أوروبا، أو القدرة على المغامرة بالحرب وإحراز النصر على الدول الأخرى.

وكانت هناك مجموعتان من الدول العظمى:

المجموعة الأولى : فى غرب أوروبا، وهى بريطانيا وفرنسا.

والمجموعة الثانية : فى شرق أوروبا وهى روسيا وبروسيا والنمسا.

وقد اتخذ مبدأ التعويضات لخدمة مبدأ التوازن الدولى،وذلك بتعويض الدولة العظمى عما تفقده من أراض تستوجبها التسوية بأراض أخرى، بحيث تكون النتيجة النهائية حصول كل دولة عظمى على الأراضى التى كانت فى حوزتها عام ١٨٠٥م، أو ما يعادلها.

وقد نفذ ذلك بكل دقة، إلا فى حالة روسيا التى كانت تتفاوض من مركز قوة، بسبب وجود مائتى ألف من جنودها فى بولندا. فنالت أكثر مما نالته مثيلاتها من الدول الكبرى.

وبناء على ذلك حصلت روسيا على فنلندة من السويد، ثم على بسارابيا من تركيا، وبسطت سلطانها على دوقية وارسو، التى أنشأها نابليون فى الأراضى البولندية التى كانت أصلا فى حوزة روسيا والنمسا، وقد استولت روسيا عليها فى أثناء حرب التحرير من ١٨١٣ ـ ١٨١٥م، فاستطاعت بذلك أن تنفذ إلى وسط أوروبا.

أما النمسا التى أرادت توحيد قوتها فى وسط وجنوب أوروبا وبعيدة عن كل اتصال مباشر بفرنسا – فقد رفضت استرداد ممتلكاتها فى بلجيكا، لبعدها وصعوبة الدفاع عنها، ونالت تعويضا عنها فى شبه الجزيرة الإيطالية، التى كان مترنيخ يريد أن يجعل منها مجرد تعبير جغرافى ليس إلا، فاسترجعت إقليم الميلانيز (لامباردى) الذى خضع لها منذ معاهدة أوترخت ١٧١٣م، كما حصلت على البندقية ودلماشيا وكافة الجزر التى كانت لجمهورية البندقية ١٧٩٧م، ماعدا جزر أيونيان. وقد أصبحت النمسا بفضل

استيلائها على البندقية وشاطئ الأدرياتيك دولة بحرية. كما استولت على التيرول وسالزبورج.

أما بروسيا فقد أخذت من الدانمارك بوميرانيا السويدية Pomerania مقابل تنازلها للدانمارك عن دوقية لونبرج Lauenburg. كما حصلت على مقاطعة وستفاليا Westphalia (على الراين) بدلا من سكسونيا التى كانت تريدها بدلا من نصيبها من المقاطعات البولندية، وحصلت فى منطقة الراين على تعويض يتمثل فى الإمارات الكنسية القديمة التى كان نابليون قد استولى عليها فى «ماينز» وتريف وكلونيا، مع غيرها من المطرانيات. وهذا إلى جانب عدد كبير من الإمارات العلمانية، والمدن الإمبراطورية الحرة التى كان نابليون قد استولى عليها أيضا. فتألف من هذه جميعها مقاطعة الراين السفلى، وهى أراض ألمانية الدم واللسان. ومن الغريب أن بروسيا لم تتحمس لهذه النتيجة الأخيرة التى جعلت منها فى النهاية البطلة القومية لألمانيا فى مواجهة فرنسا!

أما بريطانيا فقد احتلت جزيرة هلجولاند Helgoland (فى بحر الشمال) من أملاك الدانمارك. ثم احتفظت بمالطة، وجزر الأيونيان، ومستعمرة الرأس الهولندية، وسيلان، وديمارارا (فى جوايانا Gui-ana البريطانية)، وسان لوشيا، وتوباجو، وترينيداد Trinidad.

وبالنسبة لفرنسا فقد أحاطها المؤتمرون بحلقة من الدول القوية لمنعها من استئناف اعتدائها، فضموا بلجيكا إلى هولندا تحت تاج

أورانج Orange (اتفق الحلفاء فى معاهدة باريس الأولى على إعادة هولندا إلى الوجود وتوسيع أراضيها، وأعطوا الأراضى الواقعة على ضفة الراين اليسرى إلى بروسيا ـ كما رأينا. ثم دعموا استقلال سويسرا بضمان حيادها. ثم أعطوا جنوا Genoa إلى بيدمونت لتقويتها على الحدود الشرقية الجنوبية بالنسبة لفرنسا. وكان ذلك تطبيقا لمبدأ تأمين أوروبا من الخطر الفرنسى.

أما مبدأ الحق الشرعى للملوك فقد طبق بالنسبة للممالك التى نحىّ نابليون أصحابها عن عروشهم وضمها إلى فرنسا، وذلك فيما عدا الأسر الحاكمة التى كان يسوء المؤتمر رجوعها، أو التى أراد توزيع أملاكها فى شكل تعويضات تعطى للدول التى تولى المؤتمر التصرف فى أملاكها. (وقد جرى ذلك كله دون أخذ رأى الشعوب، وفقا لما أخذ به العرف الدبلوماسى فى القرن الثامن عشر).

فأعيدت أسرة سافوى Savoy إلى مملكة بيدمونت – ساردينيا Sardinia - Piedmont وضمت إليها جمهورية جنوة كما ذكرنا. وأصبحت لامباردى والبندقية إقليمين تابعين لآل هابسبرج Habs-burg. وفى نابولى توج فرديناند الأول، أحد المطالبين بعرش البوربون، ملكا على الصقليتين The Two Sicilies. فى حين ظهرت فى وسط إيطاليا الولايات البابوية من جديد تحت الحكم الدنيوى للبابا بيوس السابع. كذلك انتصر مبدأ الحق الشرعى فى شبه جزيرة أيبريا باستعادة فرديناند السابع للعرش الأسبانى،

وخضوع البرتغال لأسرة براجانزا Braganza (جون السادس ١٨١٦ ـ ١٨٢٦م).

وقد كان مبدأ الحق الشرعى هو الورقة الرابحة التى اتخذها تاليران فى إعادة فرنسا غير مبتورة إلى أسرة البوربون.

* نتائج مؤتمر فينا :

١ ـ ترتب على عودة الملوك والأمراء السابقين إلى حكوماتهم القديمة، ورجوع النظام القديم، أن انتشرت الملكيات المطلقة فى أوروبا بعد المؤتمر، فلم يزد عدد الدول التى كان لها دساتير تقيد حكومتها على ستة فقط هى: إنجلترا، وفرنسا، والأراضى المنخفضة، والجمهوريات السويسرسة الأرستقراطية التى يضمها اتحاد سويسرة الكونفديرالى، والنرويج، ومملكة بولندا الجديدة. وحتى هذه الدساتير أبقت السلطة الفعلية فى يد الملك أو فى يد أرستقراطية صغيرة.

٢ ـ ترتب على مبدأ التوازن الدولى والتعويضات قيام دول غابت فيها روابط اللغة والجنس والشعور بالمصلحة المشتركة والهدف المشترك أو الاتفاق فى المذهب، مثل النمسا التى أصبحت تضم بين حدودها مجموعة من الأمم لايربط بينها رابط.

كما ترتب على هذين المبدأين أيضا تجزئة إيطاليا وألمانيا وبولندة ـ الأمر الذى أدى إلى قيام أحزاب وطنية فيها لتحقيق الأهداف القومية والديمقراطية. ولما كانت إمبراطورية النمسا تضم فى حدودها كما ذكرنا أكبر مجموعة من الأمم ذات الأهداف القومية والديمقراطية، التى يهدد تحقيقها كيان الإمبراطورية نفسه، فقد اهتمت النمسا قبل غيرها من الدول باتخاذ الإجراءات السريعة والحازمة من أجل القضاء على هذه الحركات الثورية.

وقد لخص مترنيخ الموقف فى قوله: «إن غرض الجماعات الثورية واحد لايتغير، وهو قلب كل نظام حكومى قانونى قائم. فالواجب على الملوك أن يقابلوا هذا بمبدأ واحد لايتغير أيضاً، هو المحافظة على كل نظام قانونى قائم».

«ولم يلبث أن نشب ذلك الصراع المستعر، الذى استمر طيلة القرن التاسع عشر، عندما صارت بلجيكا تطالب بالانفصال عن هولندا، والنرويج عن السويد، وصارت بولندا تنشد استقلالها، وتحاول كل من إيطاليا وألمانيا تحقيق وحدتها. ثم صارت الثورة فى الدويلات الأقل أهمية تسعى للتخلص من حكامها الرجعيين، وإنشاء الحكومات الوطنية والقومية الدستورية، والتحرر من السيطرة الأجنبية المفروضة عليها.

٣ ـ ترتب على زيادة نفوذ النمسا فى شبه الجزيرة الإيطالية، فى الوقت الذى كانت تتمتع بنفوذ كبير فى ألمانيا، نظرا لأن الإمبراطور النمساوى كان رئيس الاتحاد الكونفدرالى بها ـ أن تأخرت وحدة إيطاليا، وتعطل اتحاد ألمانيا لمدة خمسين عاما تقريباً، أى حتى ١٨٧٠ - ١٨٧١م.

٤ ـ ترتب على انسحاب النمسا من الحدود الفرنسية ـ بتخليها عن بلجيكا ـ ثم حصول بروسيا على بعض الأقاليم الواقعة على نهر الراين ـ أن أصبح منوطا ببروسيا حق الدفاع عن ألمانيا عموما، فارتفع شأن بروسيا، ثم انتقلت إليها تدريجيا الزُعامة فى ألمانيا حتى صارت قبلة أنظار الدويلات والإمارات الصغيرة التى تطلعت إليها فى الدفاع عنها، واضطرت بروسيا إلى إنشاء جيش قوى لتأدية هذه المهمة. يضاف إلى ذلك أن منح بروسيا أقاليم متفرقة فى أنحاء ألمانيا، قد جعلها مرغمة على العمل لربط هذه الأقاليم بعضها ببعض، فكان ذلك البداية السياسية التى أفضت إلى تشييد صرح الاتحاد الألمانى.

٥ ـ بالرغم من عيوب تسوية فينا، فقد نجحت فى تحقيق الغرض المباشر منها، الذى كانت الدول التى وقعتها تهدف إليه، وهو إقامة نظام دائم للتوازن الدولى، وهو نظام استطاع، على الرغم مما طرأ عليه من تبدل بسيط بانفصال بلجيكا عن هولندا سنة ١٨٣١م، وتمكن إيطاليا من الخطو خطوة كبيرة نحو وحدتها

فى سنتى ١٨٥٩، ١٨٦٠م ـ أن يخدم السلام لمدة طويلة، فلم يعكر صفو السلام فى هذه الفترة سوى قيام حرب القرم ١٨٥٣ ـ ١٨٧٦م، وفيما عدا هذه الحرب التى وقعت فى ميادين بعيدة، فلم تنشغل الشعوب والدول بحروب كبيرة.

وفى الحقيقة أن نظام التوازن الدولى، الذى أقامته تسوية فينا، لم يتصدع إلا بقيام الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا، والتى فقدت فيها فرنسا الألزاس واللورين بعد أن استولت عليها الإمبراطورية الألمانية الجديدة بقيادة المستشار بيسمارك ١٨٧١م.

٦ ـ كان بفضل السلام الدائم والطويل الذى أوجدته التسوية أن تهيأت الفرصة لقيام وانتشار الثورة الصناعية فى أوروبا، وتبعاً لذلك، نمو النظام الرأسمالى فى إنجلترا ثم فى سائر أوروبا.

الفصل العاشر

الحركات القومية والدستورية في القرن التاسع عشر

الحركات القومية والدستورية
فى القرن التاسع عشر

(١) الفكرة القومية :

تعرض مفهوم الدولة القومية التى ظهرت على انقاض النظام الاقطاعى، لتغيير كبير منذ القرن ١٧، كنتيجة لازدياد ثراء الطبقة البورجوازية ثراء فاحشا عن طريق تدفق كميات الذهب والفضة على أوروبا بعد حركة الكشوف الجغرافية والاستعمار.

فلم يعد الأساس فى قيام هذه الدولة هو ولاء الأفراد للملك الذى يمثل شخصية هذه الدولة، وإنما أصبحت تقوم على أساس الولاء للحكومة التى تمنح الحريات للشعب. وبمعنى آخر بعد أن كان الملك هو الذى يشخص ويمثل الدولة القومية، أصبحت الأمة هى التى تشخص الدولة القومية.

وتلك هى الفكرة القومية الحديثة التى تعنى أن الدولة تطابق الأمة، أو أن الأمة والدولة يجب ان تكونا متطابقتين، كما تعنى أن الأمة يجب أن تحكم نفسها بنفسها.

ومن ذلك يتضح فى جلاء أن الديموقراطية «الليبرالية» تعتبر الوجه الآخر «للقومية»، لأنه بينما تدعو القومية إلى ضرورة تحرير الأمة من السيطرة الأجنبية، وإقامة الحكومة الوطنية، فإن

الديموقراطية الليبرالية تدعو إلى أن تتمتع الأمة، بعد التحرر من السيطرة الأجنبية، بحق حكم نفسها بنفسها عن طريق دستور يجعلها مصدر السلطات.

وهنا يجدر بنا أن نوضح بعض الملاحظات :

أولاً :

أن هذه الفكرة القومية الحديثة لم تنشأ إلا بعد التطور الذى لحق معنى «الأمة»، والذى دار بها دورة كاملة، حيث كان مفهومها فى البداية هو مفهوم «الجماعة السياسية» التى تعيش تحت حكم ملك واحد يشخص الدولة، حتى ولو كانت تنتمى إلى أمم شتى بالمعنى الحديث، وبذلك كان مفهوم الأمة يقترب من مفهوم الدولة بمعنى معين.

ولكن هذا المفهوم تغير إلى مفهوم الجماعة القومية»، أى التى تربط بين أفرادها مجموعة من الخصائص والمقومات تتعدى مجرد تواجدها فى ظل دولة واحدة تحت حكم ملك واحد، والتى تسعى للاستقلال بنفسها فى إطار دولة ديموقراطية تكون لها فيها الكلمة العليا وليس للملك أو أى سلطة أخرى. وهو مفهوم يجعل الأمة والدولة شيئاً واحدا بمعنى مختلف عن المعنى الأول، سواء بالنسبة للأمة أو الدولة.

ثانياً :

أن الحركات القومية الحديثة بمعناها المكتمل لم تظهر تلقائيا، وإنما أفرزها فكر فلسفى نظرى تناول هذه الفكرة بالتفسير فى السنوات السابقة على الثورة الفرنسية. وقد نشأ هذا الفكر فى مدرستين:

المدرسة الأولى :

هى المدرسة الفرنسية، وهى مدرسة القومية الواعية، أو القومية الإرادية. وقد خرجت إلى الوجود بعد ١٧٦٠م. بعد أن نشر روسو فى ١٧٦٢ كتابه المشهور عن «العقد الاجتماعى»، ثم كتابه الآخر عن «الحكومة فى بولندة».

وتعتبر هذه المدرسة نتاجا للتطور التاريخى الخاص بفرنسا، وهو تاريخ بلاد تكونت من عوامل مختلفة، وامتزجت امتزاجا تاماً لتصبح كلا واحداً، تحت تأثير ترابط واندماج سياسى ترتب عليه أن «الدولة» و «الأمة» و «القومية» أصبحت كلها مدلولات لشئ واحد. وفى هذه المدرسة كانت القومية «عقدا» أبرمته إرادة المتعاقدين الحرة الطليقة.

المدرسة الثانية :

هى المدرسة الألمانية. وهى مدرسة القومية اللاإرادية، وأبرز مفكريها هردر Herder. وهى أيضا نتاج تطور تاريخى

خاص بألمانيا، فهى بلاد افتقرت إلى الاندماج والرباط السياسى، وكانت مكونة من شعب استقر فى رقعة ممتدة من نهر الراين غربا إلى نهر الأودر شرقا، وظل بمنأى عن كل غزو أجنبى أو سيطرة أجنبية عليه، ولم ينتم لبلد معين، وإنما لعدد من البلدان، واستمر خاضعا لتأثير فكرة الإمبراطورية فى العصر الوسيط، وهى فكرة تتخطى حدود الدولة بالضرورة.

فالإمبراطورية تتخذ مكانها فوق كل الدول، والإمبراطور يتخذ مكانه فوق كل الملوك، والإمبراطور هو الذى يمثل الفكرة المسيحية فى عالم السياسة كما يمثل البابا هذه الفكرة فى عالم الدين.

ومن ثم فإن القومية ـ حسب هذه المدرسة ـ استندت إلى شئ آخر هو «اللغة»، التى تمثلت فيها وحدة الأصل عند هذا الشعب، والتى تعتبر العنصر البدائى المشترك.

والأمة ـ من ثم ـ عبارة عن «كائن حى ينمو تحت تأثير قوة عليا»، وتتأكد فيه بعض الصفات الوراثية، وهى رابطة اللغة والعادات والتقاليد. فالأفراد ينتمون لنفس القومية حين تكون لهم نفس الصفات المشتركة،حتى ولو لم يعوا هذا الترابط، ولم يظهروا رغبة فى المعيشة المشتركة.

وعلى هذا النحو، بينما كانت القومية فى المدرسة الفرنسية نتاج إرادة وعقد، فإن القومية فى المدرسة الفرنسية هى من صنع الطبيعة، ونتاج حياة تاريخية، ولا إرادة للإنسان فيها.

ولاريب أن هذا المفهوم للقومية فى المدرستين الفرنسية والألمانية قد تطور مع الزمن خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ولكن أساس كل منهما ظل ثابتاً، وقد طبعا الحركات القومية فى هذين القرنين، من حيث الارتباط الحر والإرادة المشتركة واللغة.

ثالثاً :

أنه وإن كانت الفكرة القومية الحديثة قد أفرزها فكر فلسفى نظرى وعوامل إقتصادية معينة، فإن هذا لايعنى أن القوميات ذاتها قد نشأت نتيجة لهذا الفكر وتلك العوامل، وإنما كانت لهذه القوميات أصولها التاريخية.

وبمعنى آخر، أنها كانت موجودة بالفعل، ولكن الشعور بها كان غائبا، فكانت مهمة النظرية هى إيقاظ ذلك الشعور. وبعض هذه القوميات كانت متداخلة مع غيرها بحيث يتعذر تمييز حدودها اللغوية، كشعوب البلاد السلافية Slavonic، أو التى تتألف منها إمبراطورية الهابسبرج Habsburg وتلك كانت آخر القوميات التى اكتمل شعورها بذاتها.

ولكن إلى جانب هذه كانت توجد أمم أخرى متميزة احتفظت بذاتيتها القومية، ولكنها فقدت ذاتيتها السياسية منذ أزمنة طويلة، لخضوعها لسيطرة دولة أجنبية، مثل بلاد اليونان، وهذه يستمر وجودها دون أن يكون لها شعور بهذا الوجود.

وإلى جانب هذين النوعين كانت هناك دول مصطنعة، تدخلت فى تأسيسها أصلا عوامل سياسية وقانونية معينة، ثم تمكنت بتوافر عاملى الوقت والاستمرار، إلى جانب تضافر مؤثرات أخرى، من إدماج العناصر المختلفة فيها وخلق أمة معينة، كالأمة البروسية، والأمة السويسرية، والأمة البلجيكية، والأمة الأمريكية.

(٢) الحركات القومية قبل الثورة الفرنسية :

ففى الفترة التى كان يجرى فيها البحث النظرى فى القومية، كانت بوادر الحركات القومية قد ظهرت فى عدة بلدان.

ففى اليونان، بدأت حركة قومية فى أثناء حرب الروس ضد العثمانيين سنة ١٧٧٠م، كان لها أثر كبير فى شبه جزيرة المورة وفى جزر الأرخبيل.

وفى أوروبا الشمالية، وفى إسكنديناوة، بدأت تظهر الفكرة القومية منذ سنة ١٧٦٠م حينما ظهرت أولى الأساطير الخرافية عن الأبطال والآلهة الإسكندناوية (الميثولوجيا). ثم نشر «شوننج» Gerhard Schoning فى سنة ١٧٧٢م تاريخا للنرويج. ثم ظهرت بعد

شهور أنشودة قومية نرويجية تدعو الشعب النرويجى إلى التحرر من سيطرة الدانمارك الطويلة عليه. وفى سنة ١٧٧١م ظهرت فى فنلندة أنشودة من الطراز نفسه تدعو للتحرر من سيطرة السويد.

وفى ألمانيا كتب جوته Goethe فى موضوع القومية الألمانية فى سنة ١٧٧٣م.

وفى الأراضى المنخفضة الجنوبية، التى كانت من الأملاك النمساوية، بدأ إحياء تسمية «بلجيكى».

وفى بولندا، التى قسمت عام ١٧٧٢م بين روسيا والنمسا وبروسيا، تشبث الشعب البولندى بقوميته، على الرغم من أن هذه القومية كانت لاتزال مبهمة وقتذاك لحد ما. ثم زاد تمسكه بهذه القومية بالرغم ممّاحدث من تقسيمات تالية على دفعتين: فى ١٧٩٣م بين روسيا وبروسيا، وفى ١٧٩٥م بين روسيا وبروسيا والنمسا.

وفى الولايات المتحدة كان صمويل آدمز Samuel Adms يعد فى عام ١٧٧٢ ـ ١٧٧٣م برنامجا لاستقلال الولايات المتحدة.

ولقد كانت نتيجة لاشتعال الثورة الفرنسية، ومحاولة بونابرت، وليد الثورة، أن يخضع أوروبا لسيطرة فرنسا، بدعوى إشاعة الروح القومية، وإذاعة المبادئ الحرة – أن تولد وعى جديد فى الشعوب التى لم تعرف بعد هذا الوعى القومى الديمقراطى، كما تأصل هذا الوعى من جانب آخر فى الشعوب التى كانت من قبل

تحس بذاتيتها.

على أنه ينبغى علينا أن نميز فى الحركات القومية فى تلك الفترة بين ثلاثة أنواع:

النوع الأول : وقد نشأ كرد فعل ضد السيطرة النابليونية، كما هو الحال فى حركات المقاومة ضد السيطرة النابليونية فى أسبانيا وهولندا وروسيا.

والنوع الثانى : وقد نشأ متأثرا بالثورة الفرنسية ومبادئها، ومستعينا بها ضد السيطرة الأجنبية. كما هو الحال بالنسبة لسويسرا.

والنوع الثالث : وقد نشأ كرد فعل لتسوية فينا، التى أغفلت العامل القومى وتجاهلت مبادئ الثورة الفرنسية.

(٣) الحركات القومية ضد السيطرة النابوليونية :

بالنسبة لهذا النوع من الحركات، فقد نشأ كرد فعل «وطنى» ضد السيطرة النابليونية. ويتمثل ـ كما ذكرنا ـ فى أسبانيا وهولندا وروسيا.

وقد بدأت الثورة فى أسبانيا فى المقاطعات التى لم تحتلها فرنسا، مما يدل على أن الشعور القومى كان أساس قيامها، ولكنه نشأ كرد فعل وطنى ضد السيطرة النابليونية على التراب

الأسباني. وقد اشترك في المقاومة ضد الفرنسيين: النبلاء والإكليروس والفلاحين، فضلا عن الجيش النظامي. كما تميزت الثورة بانتشارها في جميع أرجاء شبه الجزيرة الأيبيرية كلها، وتميزت بتبادل العنف بين الأسبانيين والفرنسيين.

على أنه لما كانت لاتوجد بورجوازية كبيرة في أسبانيا إلا في بعض الموانى، خاصة «قادش» Cadiz، فإن الثورة في مجموعها كانت تهدف إلى عودة النظام القديم ـ وبمعنى آخر أنها اكتسبت صفة رجعية. ومع ذلك فقد استطاعت البورجوازية الأسبانية رغم ضعفها وضع دستور ١٨١٢م، الذي اعتبر صورة من دستور فرنسا سنة ١٧٩١م، والذي أصبح أساسا للانقسامات السياسية في أسبانيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

أما في روسيا، فيسمي الروس عادة حرب ١٨١٢م بالحرب الوطنية. وقد ظهر الطابع القومي في حرب ١٨١٢م في إجماع الرأى العام الروسي على رفض المفاوضات التي حاول نابليون الدخول فيها مع حكومة القيصر ألكسندر. كما تظهر في الحقيقة التالية، وهي أن حركة المقاومة الشعبية ضد الجيش الفرنسي، وإبادة المدن والقرى أمام الجنود الفرنسيين، والمجاعة ـ هي التي سببت هزيمة الجيش الفرنسي بصفة رئيسية، وليس البرد القاسي وحده. لأن شتاء ذلك العام لم يكن قاسيا مدة طويلة، ولأن البرد لم يبدأ إلا بعد أن وصلت الجيوش الفرنسية في تقهقرها إلى «سمولنسك» Smolensk وبعدها. وعندما هلك الجيش تقريبا كان الطقس معتدلا.

أما فى هولندا، فقد تمثلت الحركة القومية فيها فى رفض الهولنديين إدخال القانون المدنى الفرنسى والقوانين الفرنسية وإدخال الضرائب الفرنسية عام ١٨١٣م. ثم انفجرت الثورة فى لاهاى وأمستردام فى ١٧ أكتوبر ١٨١٣م، ودعى أمير أورانج إلى العودة وقيادة الحركة.

(٤) الحركات القومية والدستورية المتأثرة بالثورة الفرنسية:

فإذا انتقلنا إلى النوع الثانى من الحركات القومية، وهى الحركات التى تأثرت بالثورة الفرنسية واستعانت بها، فتتمثل فى ثورة بولندا ضد الحكم الروسى فى ٢٤ مارس ١٧٩٤م. ونمت واتسعت بعد قيامها.

وقد قامت هذه الثورة على أكتاف الأساتذة المثقفين فى جامعتى كراكاو وفيلنا Cracow - Vilna، وكان عمادها الطبقة البورجوازية فى وارسو. ولكنها انتهت إلى الفشل وإلى تقسيم بولندا الثالث فى ٣ يناير ١٧٩٥م.

كما يتمثل هذا النوع أيضا فى سويسرة، التى لم يكن لها وقتئذ شكل الدولة الحديثة، وإنما كانت أشبه «بحلف» بين الولايات، أو «الكانتونات» السويسرية، لتبادل الدفاع، كما لم تكن هذه المحالفة تشمل كل الولايات أيضا!.

وقد تبدى تأثرها بالثورة الفرنسية فى ظهور الرغبة الحاسمة فى الظفر بالحقوق الديموقراطية، وفى قيام المواطنين السويسريين المتغيبين خارج البلاد ـ وخصوصا فى فرنسا ـ بدعوة فرنسا إلى التدخل السياسى أو العسكرى. وقد أمكن بفضل هذا التدخل بالفعل انشاء جمهورية سويسرية على شكل دولة واحدة، تضم فى حدودها كل الولايات.

على أن خروج سويسرة للمرة الأولى إلى عالم الوجود لم يكن معناه أنه قد صار بها شعور قومى، وإنما اكتمل هذا الشعور بعد وقت طويل.

(٥) الحركات القومية والدستورية فى عصر مترنيخ :

ويبدأ هذا النوع من الحركات القومية بعد تسوية فينا ــ كما ذكرنا ــ وتمتد هذه الحركات على طول القرن التاسع عشر والنصف الأول للقرن العشرين، وهى متأثرة بمبادئ الثورة الفرنسية فى القومية والديموقراطية، وتتمتع، وخصوصا منذ منتصف الثلاثنيات، برسوخ أسسها العقائدية واكتمال الشعور القومى فيها.

وكنا قد أوضحنا أن الدول الكبرى فى مؤتمر فيينا قد أرست تسوياتها على مبادئ التوازن الدولى، والتعويضات، والحق

الشرعى للملوك، دون اكتراث برغبة الشعوب. وفى تلك الأثناء كان نابليون قد فر من جزيرة إلبا فى أثناء إنعقاد المؤتمر.

وبعد هزيمته فى واترلو فى ١٨ يونيه ١٨١٥م، رأت هذه الدول تجديد المحالفة بينها على أساس اتحادها للقيام بعمل مشترك، الغرض منه اتقاء أية أفكار قد تهدد السلام العام من جانب فرنسا فى المستقبل، ثم المحافظة على التسوية النهائية التى تمت فى فينا لعدم تكدير السلم كذلك فى أوروبا.

فعقدت لذلك معاهدة «التحالف الرباعى» فى نفس يوم توقيع معاهدة باريس الثانية مع فرنسا فى ٢٠ نوفمبر ١٨١٥م، وهى المعاهدة التى تعتبر الأساس العملى الذى قام عليه نظام الاتحاد الأوروبى فى السنوات التالية. وكان الذى وقع المعاهدة: روسيا، وبروسيا، والنمسا، وإنجلترا.

وقد نص هذا التحالف على أن تبادر كل دولة عضو فى التحالف بتقديم ستين ألف مقاتل لمساعدة أى عضو آخر يقع عليه أى هجوم، وعقد اجتماعات دورية لفحص المسائل التى تمس مصالح أعضائه المشتركة، ولتوطيد السلام فى أوروبا.

وفى ٢٦ ديسمبر ١٨١٥م كان قد صدر إعلان الحلف المقدس المشهور Holy Alliance، الذى أذاعه القيصر ألكسندر، الذى أراد أن يتخذ من الدين أساسا تقوم عليه العلاقات بين الدول!.

وقد وقعت على الحلف كل من روسيا وبروسيا والنمسا، ورفضت إنجلترا الإنضمام إليه بدعوى أن الدستور يمنع الملك أو الوصى على العرش من فعل ذلك.

ومع أن مترنيخ Metternich لم يأخذ هذا الحلف مأخذ الجد، بل وصفه بأنه «طبل أجوف»، إلا أنه أدرك إمكان الإعتماد عليه فى الجمع بين الدول الموقعة على وثيقته، والتقريب بينها على أساس التحالف الرباعى، الذى كان يعمل على تحويله إلى أداء فعالة للتدخل فى شئون الدول الداخلية، وقمع الثورات فيها، بحجة صيانة النظام والسلام فى أوروبا!

ففى الفترة من ١٨١٨م إلى ١٨٢٣م أخذ مترنيخ يبذل قصارى جهده كى يجعل من «الحلف المقدس» أداة فعالة تفرض النظام البوليسى على بقية الدول، وتسيطر على شئونها الداخلية، لإرغامها على البقاء فى نطاق نظام سياسى لايتغير، بإخماد الحركات الدستورية والقومية وتأييد الحكومات المستبدة.

ففى مؤتمر «إكس لاشابل» Aix - La - Chapelle، الذى عقد فى سبتمبر ١٨١٨م، للفصل فى مسألة جلاء قوات الاحتلال عن فرنسا، وإدخالها فى نظام التحالف الرباعى ـ تقرر مبدأ التدخل بطلب من الدولة ذات الشأن، حيث نص فى تصريح ١٥ نوفمبر ١٨١٨م على جواز عقد «اجتماعات جزئية» لبحث شئون الدول الأخرى إذا طلبت هى ذلك، وفى حضورها إذا لزم الأمر.

كما أقنع مترنيخ القيصر ألكسندر الأول، الذى كان قد منح بولندا دستورا فى ٢٧ نوفمبر ١٨١٥م، وافتتح فى وارسو أول دايت Diet لملكة بولندا الجديدة فى ٢٧ مارس ١٨١٨م - بنبذ هذه الآراء الليبرالية ظهريا.

كذلك استمال فردريك وليم الثالث ملك بروسيا إلى سياسته، مهددا بانسحاب النمسا من الاتحاد الألمانى إذا امتنعت بروسيا عن تأييد سياسته.

ثم استطاع مترنيخ أن يبسط نظامه على سائر ألمانيا عندما انعقد «مؤتمر كارلسباد» Carlsbad فى أغسطس ١٨١٩م وحضره مندوبون من النمسا، وبروسيا، وباڤريا، وبادن، وناساو، وڤرتمبرج، ومكلنبرج، وهيس، وساكس ڤايمار Saxe - Weimar – فقد استصدر طائفة من القرارات الرجعية، التى عرفت باسم «مرسومات كارلسباد» Carlsbad Decrees، وأصبحت قوانين فدرالية عندما أجازها «دايت» هذا الاتحاد فى فرانكفورت فى ٢٠ سبتمبر ١٨١٩م، ثم لم تلبث أن تأيدت فى المؤتمر الذى عقد فى فيينا برئاسة مترنيخ وحضره وزراء الولايات والإمارات الألمانية، وصدر بها «قرار فينا النهائى» .Vienna Final Act فى ١٥ مايو ١٨٢٠م، وبموجبه وضعت الجامعات تحت إشراف الحكومات لمراقبة المواد التى تدرس بها من الناحية السياسية، وأنشئت الرقابة على الصحف، وأقيمت لجنة فى «ماينز» مهمتها البحث عن المحرضين الثوريين، وإرشاد الحكومات المحلية إليهم.

وفى مؤتمر «تروباو» Troppau، الذى عقد فى نوفمبر ١٨٢٠م، وضعت دول الحلف المقدس مبدأ التدخل، وكان ذلك بسبب قيام الجنود الأسبانيين فى قادش بالثورة فى أول يناير ١٨٢٠م مطالبين بدستور ١٨١٢م، وانتشار الثورة بعد ذلك فى البلاد، ثم اشتعال ثورة أخرى عسكرية فى نابولى فى شهر يوليو ١٨٢٠م، واضطرار ملكها فرديناند الأول إلى قبول دستور ١٨١٢ الأسبانى أساسا لدستور مثله - ففى هذا المؤتمر وضعت دول الحلف المقدس الثلاث: روسيا وبروسيا والنمسا فى ١٩ نوفمبر ١٨٢٠م «مبدأ التدخل» بشكل سافر.

فقد نص «بروتوكول تروباو» على أن الدول التى يحدث تغيير فى حكوماتها بسبب قيام ثورة فيها، ويترتب على هذا التغيير تهديد الدول الأخرى، تفقد بحكم الضرورة عضويتها فى التحالف الأوروبى، وتظل خارج التحالف إلى أن يجىء الوقت الذى يعطى الموقف الداخلى فى هذه الدول الضمانات اللازمة لتأييد النظام القانونى والاستقرار.

وقد انضمت فرنسا إلى هذا التصريح خشية العزلة. أما إنجلترا فإن وزير خارجيتها «كاسلريه» Castlereagh كانت سياسته تقوم على رفض مبدأ التدخل، وقصر التحالف على الغرض الذى أقيم لأجله ـ وهو منع وقوع الاعتداء على عضو من أعضائه، والمحافظة على السلام.

ومالبثت سياسة التدخل أن دخلت دورها التطبيقى فى مؤتمر «ليباخ» Laibach الذى عقد بين ٨ يناير و ١٢ مارس ١٨٢١م، للبت فى المسألة الإيطالية بحضور فرديناند ملك نابلى، الذى حضر لطلب مساعدة الدول ضد شعبه!

فقد قرر المؤتمر، الذى تكون من أعضاء الحلف المقدس الثلاثة: النمسا وروسيا وبروسيا، إلغاء دستور نابلى. ثم عهد ثلاثتهم إلى النمسا بمهمة تنفيذ ذلك بالقوة العسكرية!. وبالفعل ذهب جيش نمساوى إلى نابلى حيث أخمد الثورة الدستورية، وأعاد إلى فرديناند سلطته الدستورية.

وقبل أن يختتم المؤتمر أعماله، وصله نداء آخر من ملك سردينيا لنجدته ضد رعاياه الثوار! فأرسلت النمسا جيشها لإخماد الثورة فى بيدمنت، وهزمت الثوار فى واقعة نوفارا، فى ١٨ أبريل ١٨٢١م، واحتل «الغزاة» تورين Turin العاصمة، وأعيد النظام القديم.

وفى مايو ١٨٢١م انفض المؤتمر بعد أن أعد منشورا إلى الحكومات الأوروبية، أوضح فيه سياسة الحلف المقدس قائلاً : «إن التغييرات النافعة والضرورية من الناحيتين التشريعية والإدارية، والتى تحدث داخل الدول، يجب أن تأتى من جانب أولئك الذين أعطاهم الله مسئولية الحكم فى هذه الدول!».

على أن الحركات القومية والدستورية لم تنقطع. ففى أثناء انعقاد المؤتمر فى ليباخ، جاءت الأنباء بقيام الثورة فى بلاد المورة. وفى الوقت نفسه استطاع الثوار فى أسبانيا انتزاع دستور من الملك فرديناند السابع، أقيمت بفضله الحكومة الدستورية فى مدريد. هذا فى حين كانت الثورة مشتعلة فى المستعمرات الأسبانية فى أمريكا اللاتينية.

ويسبب هذه الاضطرابات، تقرر إعادة عقد المؤتمر فى فيرونا Verona فى خريف العام التالى ١٨٢٢م لمعالجة مسائل أسبانيا وإيطاليا والمورة.

وفى هذا المؤتمر أظهر المندوبون الفرنسيون عزم حكومتهم على التدخل، ليس فقط لإخماد الثورة فى أسبانيا، بل وإخمادها كذلك فى مستعمراتها الأمريكية. وقد أيدتها روسيا والنمسا وبروسيا. وفى ١٩ نوفمبر ١٨٢٢م وجهت هذه الدول إنذارا إلى مجلس «الكورتيز» الأسبانى، وسحبت سفراءها من مدريد، وفى ٢٨ يناير ١٨٢٣م أعلن لويس الثامن عشر الحرب على أسبانيا، واحتل مدريد فى ٢٤ مايو ١٨٢٣م.

وفى ٣١ اغسطس ١٨٢٣م استسلم الكورتيز دون قيد أو شرط إلى الملك فرديناند السابع، بمقتضى معاهدة «تروكاديرو» Troc-adero، وعاد فرديناند إلى عاصمة ملكه على أسنه الرماح الفرنسية!

وقد مضت فرنسا، التى أصبحت الآن دولة رجعية، خطوة أخرى، فأرادت التدخل بين أسبانيا ومستعمراتها الثائرة فى كوبا وبويرتوريكو Buerto Rico. كما أرادت ايضا تنصيب أمراء فرنسيين من آل بوربون فى المستعمرات الأسبانية التى حصلت على استقلالها الفعلى: فى المكسيك، وبيرو، «وبوينوس آيرس» Buenos Aires.

ولكن وقف فى وجه هذا التدخل جورج كاننج Canning، وزير خارجية بريطانيا، الذى سار على سياسة سلفه «كاسلريه» فى مبدأ عدم التدخل إلا إذا حدث مايخل بالتوازن الدولى.

وفى الوقت نفسه كانت الولايات المتحدة تنظر بغير عين الارتياح للتطورات الأوروبية التى أفضت إلى تدخل فرنسا فى المسألة الأسبانية، وساءتها المشروعات الفرنسية.

وهكذا التقت رغبة بريطانيا مع رغبة الولايات المتحدة. ولذلك اقترح كاننج اشتراك الحكومتين الإنجليزية والأمريكية فى اتخاذ إجراء لمنع فرنسا من التدخل فى شئون المستعمرات الأسبانية فى أمريكا.

ولكن وزير الخارجية الأمريكى «جون كوينزى آدمز» John Quency Adams رفض العمل المشترك خشية أن يتخذ شكلا يدل على أن الدولتين تتعهدان ضمنيا بعدم الاستيلاء على قسم من

أملاك أسبانيا فى أمريكا، الأمر الذى يغل يد الولايات المتحدة فى المستقبل عن الاستيلاء على بعض الأقاليم التى تريدها، مثل تكساس، وكوبا.

لذلك انفرد الرئيس «مونرو» بإصدار تصريحه المشهور Monroe Doctrine فى ٢ ديسمبر ١٨٢٣م إلى الكونجرس، والذى أوضح فيه أن الولايات المتحدة لاترغب فى التدخل فى شئون أوروبا السياسية، ولاتريد من الدول الأوروبية التدخل فى شئون العالم الجديد السياسية، وأنها لن تتردد فى محاربة أية دولة تحاول فرض سيطرتها.

وهكذا تحطمت سياسة التدخل على صخرة المسألة الأسبانية الأمريكية.

كذلك تحطمت هذه السياسة على صخرة أخرى هى المسألة البرتغالية ـ البرازيلية. وكانت الثورة قد امتدت من أسبانيا إلى البرتغال سنة ١٨٢٠م، وبعد عامين أعلن دون بدرو Don Pedro، أكبر أبناء الملك يوحنا السادس، نفسه إمبراطورا دستوريا على البرازيل فى مايو ١٨٢٢م.

وهنا أراد الرجعيون فى البلاط البرتغالى الاستعانة بفرنسا، التى أحيا تدخلها الناجح فى شئون أسبانيا الآمال فى صدورهم. فى حين طلب الدستوريون مساعدة بريطانيا العسكرية. ولكن كاننج اكتفى بإرسال أسطول إلى نهر التاجوس Tagus، معلنا أنه، وقد

امتنع عن التدخل، قد بات على فرنسا أن تمتنع بدورها! وقد فهمت فرنسا، فلم ترسل جيشها إلى لشبونه، كما لم ترسل أية قوات إلى البرازيل، وانتصرت سياسة كاننج.

ولم تلبث هذه السياسة أن انتصرت أيضا فى عام ١٨٢٦م، حين طلب الرجعيون من أسبانيا التدخل فى النزاع القائم بينهم وبين الإمبراطور بدرو فى البرازيل، فعادت بريطانيا وأعلنت أنها لن تجيز لغيرها التدخل مادامت هى لاتريد التدخل، وأرسل كاننج قوة بريطانية إلى البرتغال، فحال هذا الموقف الحاسم دول التدخل الأسبانى.

وفى تلك الأثناء كانت الثورة تنشب فى اليونان الخاضعة للسيادة العثمانية، لتلقى مصيرا مختلفا بحكم الروح الصليبية فى الدول العظمى الأوروبية.

وقد قامت فى البداية فى ياسى ببلاد «البغدان» (ملداڤيا) -Mol davia فى مارس ١٨٢١م بقيادة إبسلانتى Ypsilanti . وكان هدفها، ليس فقط تحرير المقاطعات الدانوبية الأفلاق (أو ولاشيا -Wal lachia) والبغدان، التى سكنها الرومانيون والبلغار، بل وطرد العثمانيين من أوروبا كلها، وإعادة إمبراطورية اليونان القديمة. ولكن الجيوش العثمانية أوقعت الهزيمة بالثوار فى موقعة «دراجشان» Dragashan فى ١٩ يونيه ١٨٢١م، وانتهت الثورة فى الأفلاق، كما أمكنها إخماد الثورة فى البغدان بسهولة.

على أن حركة «إبسلانتى» سرعان ماجعلت اليونانيين يقومون بالثورة فى بلاد المورة Morea وفى الجزر اليونانية هذه المرة، فى أبريل ١٨٢١م، وامتدت عبر مضيق كورينثة Corinth إلى الشمال منتشرة فى مقدونيا وتراقيا Thessaly، وهدفها هذه المرة تحرير اليونانيين، وإنهاء سيطرة شعب أجنبى عليهم يختلف عنهم فى الجنس واللغة والدين. وبين سنتى ١٨٢١ ـ ١٨٢٥م كان النجاح حليف الثوار بسبب تفوقهم البحرى، وتدفق المتطوعين من أوروبا.

ولكن السلطان محمود الثانى استعان بقوات محمد على، والى مصر لإخماد الثورة، فنزل ابنه إبراهيم باشا بالمورة فى فبراير ١٨٢٥م، وأنزل الهزيمة بالثوار، ثم سرعان ما أخذ يستولى بسرعة على المواقع حتى أصبحت المورة بأكملها تقريبا تخضع للعثمانيين.

ولكن فرنسا وبريطانيا وروسيا لم تلبث أن أبرمت فيما بينها بعد ذلك بشهر واحد، «معاهدة لندن» فى ٦ يوليو ١٨٢٧، وذلك على أساس «بروتوكول بطرسبرج»، الذى أبرم فى ٤ إبريل ١٨٢٦م بين روسيا وإنجلترا، والذى وضع تسوية للمسألة اليونانية على قاعدة إعطاء اليونان الحكم الذاتى مع بقاء التبعية العثمانية، وأرسلت أساطيلها إلى خليج «نفارينو Navarino» فى ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧م، حيث وقعت موقعة نڤارينو البحرية المشهورة، التى تحطم فيها الأسطولان المصرى والعثمانى، والتى كانت الخطوة الأولى فى استقلال اليونان.

أما الخطوة الثانية فقد جاءت نتيجة لقيام الحرب بين روسيا والدولة العثمانية فى ١٨٢٩م، بعد أن أعلن السلطان محمود الثانى الجهاد ضد الدول المتحالفة عقب نكبة نفارينو. وقد هزمت الدولة العثمانية، وعقدت مع روسيا معاهدة أدريانوبل Adrianople (أدرنه) فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٩م، وبمقتضاها صارت الأفلاق والبغدان إمارتين مستقلتين استقلالاً فعلياً، وإن بقيتا تحت السيادة العثمانية. وأصبحت بلاد اليونان مستقلة استقلالا ذاتيا تحت السيادة العثمانية.

ولكن اليونانيين رفضوا البقاء تحت السيادة العثمانية، فأعادت الدول الكبرى النظر فى المسألة اليونانية ثانية، وأسفرت المباحثات بين إنجلترا وروسيا وفرنسا عن عقد «بروتوكول لندن» فى ٣ فبراير ١٨٣٠م الذى ينص على أن تصبح اليونان دولة مستقلة، تتمتع بكل الحقوق السياسية والإدارية والتجارية المرتبطة بالاستقلال التام. وأعيد رسم حدود الدولة اليونانية الجديدة، فأدخلت فى نظامها بعض الجزر فى بحر إيجه. وفى ٧ مايو ١٨٢٢م تم رسم حدود اليونان مرة أخرى فى «معاهدة لندن» بين الدول الثلاث بشكل أضاف إليها مساحة جديدة، ولم تملك تركيا إلا أن توافق على هذه الحدود فى اتفاق القسطنطينية فى ٢١ يوليو ١٨٣٢م.

* * *

ولم تلبث الثورتان الفرنسيتان فى يوليه ١٨٣٠م وفبراير ١٨٤٨م أن لعبتا دورا مهما فى تحريك الثورات القومية فى أنحاء أوروبا.

وكانت ثورة يوليو ١٨٣٠م فى فرنسا قد قامت على أثر انتهاك شارل العاشر، ملك فرنسا، للحريات الدستورية للشعب الفرنسى، وإصداره مراسيم بحل البرلمان وتكميم الصحافة، وذلك لإخماد المعارضة البرلمانية ـ مما استفز أهل باريس ودفعهم للقيام بالثورة.

وفى خلال أيام ثلاثة هرب الملك، ولكن تمكنت البورجوازية الفرنسية من إنقاذ الموقف من السقوط فى أيدى الطبقات الجماهيرية والعودة إلى الجمهورية، بترشيح (لويس فيليب) البوربونى، من فرع أورليان، ليكون ملكا دستوريا.

وعلى أثر قيام هذه الثورة، تحركت الثورات الأخرى فى أوروبا. فقد نظم الثوريون الإيطاليون الثورات على أمل التأييد الفرنسى، ولكن قامت القوات النمساوية بقمع هذه الثورات فى بارما ومودينا وروما.

كما وقعت الاضطرابات فى الولايات الألمانية، مما أجبر بعض الأمراء على الرضوخ لمطالب شعوبهم، ولكن سرعان ما أدى القمع المضاد الصارم من جانب الحكومتين النمساوية والبروسية إلى إخماد هذه الحركات فى جميع أنحاء وسط أوروبا.

وفى بلجيكا التى كانت تحت حكم النمسا، ثم ضمتها «تسوية فينا» إلى هولندا فى مملكة واحدة تحت أسرة أورانج، كان البلجيكيون يبغضون الهولنديين بغضا شديدا، وكانت الحركات القومية فيها فى البداية قاصرة على المطالبة بالانفصال الإدارى عن هولندا، ولكن الملك الهولندى أصر على احتلال بروكسل قبل إجابه هذه المطالب. فنشب القتال فى شوارع العاصمة البلجيكية ثلاثة أيام من ٢٣ إلى ٢٦ سبتمبر ١٨٣٠م، وأسفر عن طرد تلك القوات، وانتشرت الثورة فى بلجيكا كلها، وشكل الثوار حكومة مؤقتة، ودعوا «مؤتمرا وطنيا» إلى الانعقاد، وأعلنوا أن المقاطعات البلجيكية قد انفصلت عن هولندا وتؤلف دولة مستقلة.

وقد افتتح المؤتمر الوطنى البلجيكى فعلا فى ١٠ نوفمبر ١٨٣٠م ببروكسل. حيث كان الأعضاء يميلون بمشاعرهم إلى فرنسا، وأعلنوا خلع بيت أورانج وخلو العرش، واختيار الملكية الوراثية المقيدة شكلا للحكومة المقبلة.

على أن الدول الخمس الكبرى أخطرت المؤتمر الوطنى بضرورة الإبقاء على بيت أورانج، وهددت باحتلال الجيوش المتحالفة للبلاد، فرفض المؤتمر الاستسلام. ودب الخلاف بين فرنسا وإنجلترا، وكان الحل الوسط هو إعلان حياد بلجيكا الدائم وتعهد الدول الخمس بكفالته.

ولكن المؤتمر البلجيكي رفض أيضا، واختار الإبن الثاني للويس فيليب ملكا على بلجيكا، وحينئذ وجهت الدول الخمس إنذارا نهائيا للمؤتمر في أول يونيه ١٨٣١م، تراجع على أثره المؤتمر، وانتخب ليوبولد الذي كان مقيما في إنجلتراملكا على البلاد.

على أن هولندا سيرت قواتها مرة أخرى إلى بلجيكا في أغسطس ١٩٣١م، فرد لويس فيليب بتسيير القوات الفرنسية إلى بروكسل واحتلالها. وانتهى الأمر، بعد أن اعترضت بريطانيا اعتراضا شديداً على فرنسا، إلى تسوية المسألة البلجيكية في معاهدة الدول الخمس مع بلجيكا، الموقعة في ١٥ نوفمبر ١٨٣١م. ولما رفض ملك هولندا، قام جيش فرنسي - إنجليزي بطرد الهولنديين نهائيا من بلجيكا (١٨٣٢ - ١٨٣٣م).

وبعد ست سنوات - أي في ١٩ ابريل ١٨٣٩م - أبرمت الدول الخمس العظمى معاهدة نهائية أقرت استقلال بلجيكا وأسبغت عليها نظام الحماية الدائمة، وكانت تلك المعاهدة هي نفسها قصاصة الورق الشهيرة التي مزقتها ألمانيا بغزوها بلجيكا في سنة ١٩١٤م.

أما بولندا فإن معاهدة «كاليش» Calisch في ٢٨ فبراير ١٨١٣م بين (روسيا وبروسيا) كانت قد أعطت روسيا حق التصرف فيها. وعندما عقد مؤتمر فيينا، أراد القيصر إسكندر

الأول أن يضم غراندوقية وارسو، التى أنشأها نابليون، إلى بقية أجزاء بولندا، التى كانت روسيا قد استولت عليها منذ أيام تقسيم بولندا فى القرن ١٨، فى معاهدات التقسيم الثلاث المعروفة فى ١٧٧٢، ١٧٩٣، ١٧٩٥م - والغرض من ذلك أن يتسنى بعث بولندة القديمة إلى الوجود ثانية. وكان القيصر يريد أن يمنحها دستورا ديمقراطيا ويقيم بها حكومة برلمانية، ويجمع بينها وبين روسيا فى اتحاد تحت تاج القيصر الشخصى فقط.

وقد حقق مؤتمر فينا رغبة القيصر، فاستولت روسيا على بولندة فيما عدا «بوزن» Pozen وبروسيا الغربية اللتين انضمتا إلى بروسيا، وغاليسيا التى انضمت إلى النمسا، وكراكاو التى أصبحت مدينة حرة. وأعلن القيصر عن عزمه على حكمها كمملكة لها كيانها القومى، ومنحها دستورا تحرريا تقدميا منذ نوفمبر ١٨١٥م، واكتسب بذلك تأييد كثير من الوطنيين البولنديين، وافتتح «الدايت الأول Diet» فى ٢٧ مارس ١٨١٨م.

على أن القيصر، تحت تأثير مترنيخ، وتأثير الحركات القومية فى ألمانيا، لم يلبث أن أعاد الرقابة على الصحف فى ١٨١٩م، ومع أن الدايت انعقد مرة اخرى فى ١٨٢٠م، إلا أن القيصر إسكندر لم يلبث أن حله، وامتنع طوال خمس سنوات عن دعوة المجلس الجديد للانعقاد.

لذلك فسرعان ما أخذت الجمعيات السرية تنمو وتقوى. ولما نشبت ثورة فرنسا فى يوليو ١٨٣٠م، أثارت حماسا كبيرا فى

نفوس البولنديين. فانتقلت الجمعيات السرية إلى صفوف ضباط الجيش، وسرعان ما أدت الاستعدادات التى أخذ نيقولا يتخذها لإخماد الثورة فى فرنسا وبلجيكا فى تلك الأثناء إلى نشوب حركة تحرر فى البلاد، فحدث عصيان فى وارسو فى ٢٩ نوفمبر ١٨٣٠م، وانسحبت القوات الروسية من العاصمة، وتألفت حكومة بولندية مؤقتة مناهضة للروس قبيل نهاية العام، وفى يناير ١٨٣١م خلع البولنديون القيصر.

على أن الروس لم يلبثوا أن دخلوا المملكة البولندية فى جيوش جرارة واستولوا على العاصمة فى سبتمبر ١٨٣١م، وألغوا الدستور نهائيا فى فبراير ١٨٣٢م، وقدر لبولندا أن ترضخ مدة ربع قرن لحكم استبدادى عنيف فقدت فيه حياتها السياسية.

كانت هذه على كل حال الحركات الثورية بعد ثورة يوليو ١٨٣٠م فى فرنسا، وقد قمعت هذه الثورات، فيما عدا الثورة البلجيكية، التى كان لها وضع خاص بسبب مركزها بالنسبة لفرنسا وإنجلترا معا، وايثار الدولتين حل مسألتها بدلاً من الحرب بينهما. وفى سنة ١٨٣٣م كان فى وسع مترنيخ أن يهنئ نفسه بأن نظامه «لايتأثر بالنار البتة»!.

(٦) الحركات القومية والدستورية بعد سقوط مترنيخ :

على أنه كما حدث بعد ثورة يوليو ١٨٣٠م فى فرنسا من انتشار الحركات القومية والدستورية، فكذلك حدث بعد ثورة فبراير

١٨٤٨م فى فرنسا ـ وهى الثورة التى أسقطت ملكية أورليان وأقامت الجمهورية الثانية.

فقد اشتعلت الثورة فى فينا ـ قلب النظام الرجعى ـ واسقطت مترنيخ، الذى هرب من البلاد فى ١٣ مارس ١٨٤٨م بعد انضمام الجنود للمتظاهرين، كما انتشرت الثورة فى جميع ممتلكات آل هابسبرج وعملت على تمزيق الإمبراطورية.

فقد اتخذ الدايت المجرى دستورا مستقلا فى مارس ١٨٤٨م، ونظم الكروات لجنة دستورية مهمتها العمل من أجل الحكم الذاتى، وطالب التشيكيون بجمعية تأسيسية، وعقد مؤتمر لجميع السلاف فى براج.

وفى ايطاليا، من ميلانو إلى نابولى، أخذت تغلى بالإضطرابات عندما وصلت الأنباء فى مارس بفرار مترنيخ. وعملت الثورات التى قامت فى وقت واحد فى البندقية وميلان على طرد النمساويين. وفى «تورين» صدرت الأوامر لجيش «سردينيا» لمساندة الحرب فى سبيل القومية، ودفع الحماس الشعبى فى روما ونابولى «بيوس التاسع» و«فرديناند الثانى» إلى إرسال الفصائل لمطاردة النمسويين المتقهقرين، واجتاحت شبه الجزيرة موجة من الحماس الوطنى.

ويهمنا هنا أن نوضح بخصوص هذه الحركات القومية تدخل جملة عوامل أدت إلى إنضاج هذه الحركات واكتمال الشعور القومى فيها، وعلى رأس هذه العوامل العامل الاقتصادى.

ذلك أن تقدم الإنتاج الصناعى فى القرن التاسع عشر كان قد دفع رجال الأعمال إلى البحث عن اسواق: إما عن طريق التوحيد، كما فى ألمانيا وإيطاليا، وإما عن طريق الانفصال والاستقلال، كما فى المجر.

فقد أدت فترة خمسة عشر عاما من تطبيق نظام الاتحاد الجمركى الذى توصلت إليه الولايات الألمانية بقيادة بروسيا فى عام ١٨٤٤م، وشمل كل ألمانيا ـ وهو النظام المعروف باسم الزولفراين Zollverein ـ من الخدمات لقضية الوحدة الألمانية أكثر مما أداه نصف قرن من الخطب والأحاديث. فقد ترتب على هذا الاتحاد ازدهار تجارة الفحم والحديد والمنسوجات، وسيطرة النظام الجمركى على الأسواق الداخلية، ودعم تنظيماته فى سكسونيا ووستفاليا وسيليزيا والروهر. فلما أثرت طبقة رجال الصناعة فى هذه المناطق، راحت تحاول تحطيم الحواجز الأخيرة التى تحول دون تحقيق الوحدة الكاملة، وعندئذ ظهر المثل الأعلى للألمان، وهو وطن جرمانى موحد.

وقد ظهر تفكير مماثل فى أوساط رجال الصناعة فى «بيدمنت» وفى «لومباردى» و «البندقية.» فقد أدركت البورجوازية الإيطالية فى الأربعينيات، والتى عانت من منافسة الصناعة الإنجليزية، ومن الصناعة الألمانية التى أخذت تنهض حينذاك، أن توحيد إيطاليا سيجلب لها الرخاء، لأن الصناعة مثل العلم، لا ينهض فى اطار دويلات صغيرة مفككة.

وقد لعبت الثورة التى حدثت فى وسائل المواصلات البرية فى ألمانيا وإيطاليا دورا فى نمو الشعور القومى بها، لا لمجرد ربطها فقط بين المصالح الاقتصادية لرجال الصناعة والتجارة عبر الحدود السياسية، وإنما لأنها سهلت تبادل الآراء ونشر الصحف.

وقد لعبت المصالح الاقتصادية كذلك - ولكن بشكل مختلف - دورا مؤكداً فى حركة القوميات فى النمسا. وهى حركة تختلف عن الحركتين الألمانية والإيطالية، من حيث أن محتواها إنفصالى لا وحدوى. فالحركة القومية المجرية قد أسهمت فى قيامها الرغبة فى ضمان الاستقلال للمنتجات المجرية بالنسبة للبلاد النمسوية. وكانت الدعاية المجرية تحرك جمهورها بالمكاسب التجارية، معلنة أنه يمكن للمجر، بموقعها الجغرافى وبكمية منتجاتها وتعددها، أن تحصل على مزايا واسعة إذا حصلت على استقلالها، أما إذا فشلت حركة الاستقلال، فستستمر النمسا فى احتكارها للسوق.

وكذلك الأمر بالنسبة لحركة التحرر القومى للأقليات السلافية، التى تتكون بصفة خاصة من الفلاحين الخاضعين للسيطرة الاجتماعية لكبار الملاك الألمان أو المجريين، والتى كانت تعرض عليهم إمكانية الحصول على تحسين أحوالهم.

على أن العوامل الإقتصادية لم تكن دائما عاملا حاسما فى هذا الشأن، فإن رجال الصناعة التشيكيين فى داخل النمسا مثلا كانوا يعرفون أن إنشاء دولة مستقلة يهدد بفقدهم سوق البلاد الألمانية!

وقد لعب العامل الدينى دورا مهما أيضا فى صالح حركة القوميات. فقد لعب الدور الأول فى أيرلندا الكاثوليكية ضد إنجلترا البروتستنية. وفى بولندا الروسية وفى بولندا البروسية كان نفوذ رجال الدين الكاثوليك هو روح المقاومة للسيطرة الأجنبية. كما كان أيضا كذلك فى كرواتيا ضد النفوذ المجرى، وفى بلاد البلقان ضد الدولة العثمانية.

وقد كون مازينى منذ ١٨٣٤م، فى نطاق مشروعه القومى، إلى جانب لجنته الإيطالية لجانا بولندية وألمانية، وكان يميز فى شعوب القارة بين ١٣ أو ١٤ مجموعة قومية يجب على كل منها أن تصبح دولة، وتختفى الإمبراطوريتان النمسوية والعثمانية.

وتتميز القوميات فى هذه الفترة بالتعصب. ففى نفس الوقت الذى كانت فيه بعض القوميات تطالب بحقها القومى فى تكوين الدولة القومية والحكم الدستورى، كانت تطالب بحقها التاريخى أيضا لصالح فرض إرادتها على قوميات أخرى!

وقد أدى هذا إلى تصادم بين القوميات لصالح القوى الأجنبية المسيطرة. فمن عجائب المتناقضات أن نجد أن الصربيين والكرواتيين والرومانيين قد راحوا يحاربون فى النهاية لصالح النمسا ضد المجر، بغية تأمين حقوقهم القومية.

ففى ثورة المجر عام ١٨٤٨م (١٤ مارس) والتى أوصلتها إلى الاستقلال بعد سقوط مترنيخ، أوضح كوشوط Kossuth زعيم المجر

ان المجريين لن يمنحوا فى ممتلكاتهم أية حقوق عنصرية للصربيين أو الكرواتيين أو الرومانيين، وأخذ يتسلح علنا لسحق الصربيين والكرواتيين الثائرين.

ومن الجانب الآخر، فإن جوزيف جلاكيش Jellacic زعيم الكرواتيين كان يؤلب الصربيين والكرواتيين ضد المجر، وقد عينته الحكومة النمساوية حاكما لكرواتيا لهذا الغرض، وبإسهاماته الأساسية أمكنها إخماد ثورة المجر.

على كل حال، فعلى الرغم من نجاح الرجعية فى ألمانيا والنمسا فى الإنتصار على الثورات القومية والدستورية، وعلى الرغم من أن إلغاء الجمهورية فى فرنسا قد جاء سريعا بعد أن قامت الإمبراطورية الثانية وعلى رأسها نابليون الثالث - فإن ذلك لم يوقف الحركات القومية والدستورية، فكان النجاح حليف هذه الحركات إلى النهاية.

فقد تمتعت المجر بدستور أقام نظام الحكم الثنائى فى إمبراطورية النمسا والمجر تحت اسم الحل الوسط فى يولية ١٨٧٦م.

وأعلنت الجمهورية الثالثة فى فرنسا فى سبتمبر ١٨٧٠م، وصدر دستورها فى فبراير ١٨٧٥م.

وفى إيطاليا، عندما تمت وحدتها سنة ١٨٧٠م، اتخذ الطليان دستورا لهم (دستور بيدمونت) الذى أصدره ملك سردينيا «شارل ألبرت» فى مارس ١٨٤٨م.

وفى ألمانيا، بعد إتحادها، أعلن دستور الإمبراطورية الجديدة فى إبريل ١٨٧١م.

وفى شبه جزيرة «أيبريا» صار لأسبانيا دستور بعد جملة تقلبات منذ ١٨٤٥م. وكذلك صدر فى البرتغال بعد كفاح طويل «القانون الإضافى» بمثابة دستور لها منذ ١٨٥٢م.

وتركزت الرجعية فى كل من الإمبراطورية العثمانية وروسيا القيصرية. وفى ذلك فإن هاتين الإمبراطوريتين لم تنجوا من أثر الحركات القومية والدستورية.

فقد اضطرت الدولة العثمانية تحت ضغوط الدول الأوروبية إلى استصدار «خط شريف كلخانة» فى ٣ نوفمبر ١٨٣٩م، الذى يكفل لمختلف رعايا الدولة، دون تمييز بين مسلم ومسيحى، المساواة أمام القانون، ويؤمن هؤلاء جميعهم على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، ويتناول ضروب الاصلاح التى لم يكن هناك مناص من أن تأخذ بها الدولة العثمانية إذا رغبت فى مؤازرة الدول الأوروبية لها من أجل المحافظة على كيانها.

ولقد تجددت هذه الوعود من جانب الدولة العثمانية للسبب نفسه بعد ذلك، فصدر «خط شريف» آخر فى فبراير ١٨٥٦م يشتمل على هذه الضمانات.

ثم إن الأحرار العثمانيين انتزعوا من السلطان عبد الحميد الثانى فى ديسمبر ١٨٧٦م دستورا، لم يلبث أن ألغى، ثم أعيد عقب

الثورة التى قامت بها «جمعية الاتحاد والترقى» فى يولية ١٩٠٨م، وعزل الاتحاديون السلطان عبد الحميد فى ابريل ١٩١٩م.

وحينما كان الأحرار العثمانيون يناضلون فى سبيل الدستور، كانت الإمبراطورية العثمانية ذاتها تسير فى طريق الانحلال، نتيجة تغلغل المذهب القومى بين الشعوب المتباينة التى تألفت منها هذه الإمبراطورية.

ومما تجب ملاحظته أن نجاح الحركات القومية فى هذه الشعوب قد اقترن كذلك بنجاح الحركات الدستورية. فبعد انفصال اليونان واستقلالها عام ١٨٣١م صدر دستورها سنة ١٨٤٤م، وتلاه دستور آخر أكثر ديموقراطية سنة ١٨٦٤م. وفى سنة ١٨٦٩م نالت دستورا آخر تعرض لعدة تقلبات فى السنوات التالية.

كذلك فإن رومانيا، بعد أن صارت إمارة تحت السيادة العثمانية سنة ١٨٦١م، صار لها دستور منذ ١٨٦٦م، ثم حصلت على استقلالها سنة ١٨٧٨م، وأدخلت على دستورها تعديلات أكثر اتفاقا مع المبادئ الديموقراطية سنة ١٨٨٤م.

وقد أعلن استقلال الجبل الأسود Montenegro فى سنة ١٨٧٨م، مثل رومانيا، وأنشئ به فى السنة التالية ١٨٧٩م مجلس دولة تشريعى يتألف من ثمانية أعضاء، نصفهم بالتعيين والنصف الآخر بالانتخاب.

وأعطيت بلغاريا الحكم الذاتى تحت السيادة العثمانية فى مؤتمر برلين سنه ١٨٧٨م، مثل رومانيا والجبل الأسود، ثم صار

لها دستور فى السنة التالية ١٨٧٩م. وفى ١٩٠٨م انتهز البلغار فرصة انتشار الفوضى فى أرجاء الإمبراطورية العثمانية عقب ثورة الاتحاديين فأعلنوا استقلال بلادهم فى أكتوبر ١٩٠٨م.

كذلك نالت «ألبانيا» استقلالها فى معاهدة بوخارست سنة ١٩١٣م.

أما روسيا القيصرية فكانت ميدانا لحركات كبيرة قام بها الأحرار، وأخفقت جميعها، وظلت القيصرية رمزا للاستبداد والرجعية فى أوروبا زمنا طويلا.

فقد رأينا كيف منح القيصر إسكندر بولندا سنه ١٨١٥م دستورا كان أعظم ما عرفته فى ذلك الحين، ولكنه سرعان ما اعتدى على الدستور. وعندما قام البولنديون بثورتهم سنه ١٨٣٠م، متأثرين بثورة يوليو فى فرنسا، أخمدها القيصر نقولا الأول (١٨٢٥ - ١٨٥٥م) وألغى الدستور نهائيا فى فبراير ١٨٣٢م، وقدر لبولندا أن ترضخ مدى ربع قرن للحكم الاستبدادى.

على أن الروح القومية البولندية ظلت لا تقهر. وقد قدر لضم «كراكاو» إلى النمسا فى ١٨٤٦م أن يكون عاملا فعالا على شعب بولندا. فقد سمحت النمسا للبولنديين فى غاليسيا بما يشبه الحكم الذاتى، وفى ظل هذا الحكم نما الشعور القومى، وأصبحت «كراكاو» مركزا للثقافة والفن والأدب البولندى والدعوة التحريرية، فقامت الثورة من جديد فى بولندا فى يناير ١٨٦٣م، واستطاعت فى

البداية أن تحقق بعض النجاح، حتى إنها تقدمت إلى وراء حدود بولندا داخل الأراضى الروسية الخالصة، ولكن روسيا بتأييد «بسمارك» لم تلبث أن أخمدت الثورة.

ولم تقف القيصرية هذا الموقف من بولندا فقط بل وقفته داخل بلادها ذاتها، أى فى روسيا. فقد قضى القيصر نقولا الأول، عقب اعتلائه العرش بعد وفاة أخيه الإسكندر الأول، على ثورة الديسمبريين» سنة ١٨٢٥م. وهم من الروس الأحرار من رجال الطبقة الأرستقراطية والضباط الذين اشتركوا فى الحرب ضد نابليون الأول وزاروا باريس وتأثروا بالثورة الفرنسية ومبادئها، وساءهم أن يرفض القيصر الأول منح روسيا دستورا على غرار ما فعل مع بولندا، فانتهزوا وفاته بعيدا فى القرم، وجمعوا حولهم الحرس القيصرى، وراحوا يطالبون بالدستور فى ديسمبر ١٨٢٥م. فكان نصيب خمسة منهم الإعدام شنقا، فى حين نفى الباقون إلى سيبريا!

ولقد سمحت القيصرية بعد ذلك بتحرير رقيق الأرض سنة ١٨٦١م. وأدخلت بعض الإصلاحات فى الحكومة المحلية فى سنوات ١٨٦٤، ١٨٦٥، ١٨٧٠م. ومع ذلك فقد بقى الحكم أوتوقراطيا فى عهد القيصر إسكندر الثانى (١٨٥٥ ـ ١٨٨١م).

ثم زادت حدة الأوتوقراطية عندما ألقى الثوريون قنبلة على القيصر إسكندر الثانى، قضت على حياته فى ١٣ مارس ١٨٨١م.

وكان هؤلاء قد كونوا جمعية سرية سموها «إرادة الشعب» Na-rodnaya Volya بغرض إرهاب الحكومة، والتخلص من كبار الموظفين المسئولين باغتيالهم. ثم انتهى الأمر باغتيال القيصر نفسه. وكان من بين الذين قبضت عليهم الحكومة عقب هذا الحادث وأعدمتهم «إسكندر أوليانوف»، شقيق لينين الأكبر.

وقد ترتب على اغتيال القيصر تعطيل كل إصلاح فى روسيا حتى سنة ١٨٠٤م. فاشتدت وطأة الأوتوقراطية فى عهد القيصر اسكندر الثالث (١٨٨١ ـ ١٨٩٤م)، ولم يُجب القيصر نقولا الثانى (١٨٩٤ ـ ١٩١٧م) شيئا من مطالب الأحرار، واستمر الحال على ذلك حتى قامت الحرب الروسية - اليابانية فى ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥م، والتى هزمت فيها روسيا، فعم السخط البلاد، ونظم الثوريون بزعامة لينين وتروتسكى إضرابا عاما فى أكتوبر ١٩٠٥م، فاضطر القيصر إلى إصدار دستور فى ٣٠ أكتوبر من السنة نفسها وعد فيه باحترام حرية الفرد، وحرية الاجتماعات، والتمهيد لإنشاء برلمان يتمتع بالسلطة التشريعية إلى جانب الإشراف على تنفيذ القوانين وعلى الإدارة.

واجتمع مجلس الدوما الأول Duma فى ١٩٠٦م، ولكن القيصرية لم تشأ التخلى عن سلطاتها القديمة، فقيدت حقوق واختصاصات المجالس التالية وهى: مجلس الدوما الثانى ١٩٠٧م، ومجلس الدوما الثالث ١٩٠٧م - ١٩١٢م ثم مجلس الدوما الرابع ١٩١٢م.

وعلى ذلك فما كادت تهزم القيصرية فى الحرب العالمية الأولى، حتى أشعل البلاشفة الثورة فى أكتوبر ١٩١٧م بزعامة لينين، وانهارت القيصرية، ثم أعدم القيصر فى يوليو ١٩١٨م. وفى ١٩٢٣م صدر دستور اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية، ثم اعتمد دستور معدل جديد لهذه الجمهوريات فى ديسمبر ١٩٣٦م. وعلى هذا النحو تحققت الديمقراطية فى الاتحاد السوفيتى، ولكن بمعنى مختلف، هو ديمقراطية أوسع الطبقات فى المجتمع السوفيتى، وليس ديمقراطية الطبقة البوروجوازية.

أما فكرة القومية، التى جاءت بها الثورة الفرنسية، بمعنى تمتع الشعوب بالسيادة، وحكم نفسها بنفسها، فقد حاول الروس تحقيقها فى إنشاء اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية كما أوضحه دستورهم سنة ١٩٣٦م، ويتألف هذا الإتحاد من ١١ جمهورية فدرالية لها دساتير وحكومات متشابهة هى: روسيا Russia وأوكرانيا Ukrania، وروسيا البيضاء Pyelorussia White Russia، وأرمينيا Armenia، وجورجيا Georgia، وأزربيجان Azarbaijan، وأوزبيكستان Uzbekistan وكازاكستان Kazakstan، توركمنستان Turkmenistan، تاجيكستان Tajikistan، وكيرغيزيا Kirghizia.

الفصل الحادى عشر

الانقلاب الصناعى والتنافس الاستعمارى فى القرن التاسع عشر

الانقلاب الصناعى والتنافس الاستعمارى في القرن التاسع عشـــر

يرتبط الانقلاب الصناعى بالإنقلاب الميكانيكى، كما أنه إحدى نتائجه وآثاره، ذلك أن الاختراعات الميكانيكية المعتمدة على الطاقة المحركة كان من الطبيعى أن تؤثر بالضرورةعلى الصناعة، وتحدث فيها ثورة قفزت بالإنتاج إلى ذرى لم يسبق له مثيل فى التاريخ.

على أن هذه الثورة الصناعية لم تلبث أن أثارت مسألة توزيع المنتجات فى الأسواق. وهذه بدورها أدت إلى قيام المنافسة الاستعمارية بين الإمبراطوريات الصناعية الكبرى بحثا عن الأسواق، وتبع ذلك كله ظهور مشكلات اجتماعية واقتصادية خطيرة لم يعرفها العالم من قبل.

وقد بدأت الثورة الصناعية الميكانيكية فى القرن التاسع عشر. وكانت إنجلترا مهد هذا الانقلاب، لأن الإنجليز تمكنوا فى أثناء حروب الثورة ونابليون من إتقان مخترعاتهم الآلية، وبعد ١٨١٥م انتشر الانقلاب الصناعى فى بقية أوروبا.

وقد سبقت فرنسا وبلجيكا غيرهما من الدول، ثم دخلت ألمانيا فى هذا المضمار متأخرة بعد اتمام اتحادها. وفى سائر البلدان

سار الانقلاب الصناعى الميكانيكى سيرا بطيئاً، فبقيت الزراعة ميدان النشاط بين أغلب الشعوب، فى حين بقيت بلدان أوروبا الشرقية الجنوبية فى البلقان وتركيا وروسيا القيصرية بعيدة عن الانقلاب الصناعى فى هذا القرن.

ظلت بريطانيا مصنع العالم طوال ١٠٠ عام. ولكن فى عام ١٩٠٠م قضت ألمانيا والولايات المتحدة، على التفوق البريطانى. وكانت موارد هذه الدول الثلاث: بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة وتجهيزها الصناعى، مما وضعها فى المرتبة الأولى. وفى المرتبة الثانية كانت فرنسا وروسيا والنمسا وإيطاليا، التى ، وإن كانت جميعها دولا كبرى، إلا أن صناعتها لم تكن تسد احتياجاتها.

وفى المرتبة الثالثة كانت توجد بقية دول العالم التى كانت تتفاوت بين أمم متقدمة صناعيا ولكنها ضعيفة عدديا، مثل بلجيكا، وإمبراطوريات قوية عددياً ولكنها ضعيفة صناعيا، مثل الصين.

أما اليابان فلم يكن مركزها الصناعى مما يمكن التنبؤ به فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر، ولكن لم تلبث التكنولوجيا الحديثة أن أظهرت مدى السرعة الرهيبة التى تستطيع بها تغيير المركز الصناعى والحربى لأمة قوية العزم.

وفى عام ١٨٨٠م لم يقتصر مقياس القوة على إنتاج الآلات الصناعية فحسب، وإنما تعداه إلى تصدير هذه الآلات. وكانت

بريطانيا والولايات المتحدة وألمانيا هى الدول المصدرة الرئيسية حينذاك، فكانت تنتج مجتمعة $\frac{٤}{٥}$ الآلات التى تباع فى السوق العالمى، وظلت تزيد من احتكارها حتى الحرب العالمية الأولى. ولكن فى خلال ذلك حدث تغير مهم، ففى عام ١٨٨٠م كان نظام الأسبقية كالآتى: بريطانيا، فألمانيا، فالولايات المتحدة، ولكن عام ١٩١٣م أصبح كالآتى: ألمانيا والولايات المتحدة وبريطانيا. هذا من ناحية تصدير الآلات، أما من ناحية الإنتاج الإجمالى، ففى عام ١٩١٣م كانت الولايات المتحدة تصنع $\frac{١}{٢}$ الآلات الصناعية التى يستهلكها العالم، ولكنها كانت تحتفظ بـ $\frac{٩}{١٠}$ إنتاجها الضخم من الآلات فى وطنها، وكانت ألمانيا تصنع الخمس، وبريطانيا الـ $\frac{١}{٨}$.

ولقد كان نتيجة انتشار الانقلاب الصناعى فى هذا القرن، فى الوقت الذى ظهرت فيه الدول القومية نتيجة صراعها مع الإمبراطوريات الرجعية، أن هذه الدول، بعد أن أصبحت دولا صناعية كذلك، أخذت تناضل فيما بينها من أجل الاستيلاء على الأسواق التجارية والمستعمرات اللازمة لتسويق منتجاتها. وقد ارتبطت هذه الرغبة فى الاستيلاء على الأسواق برغبة لاتقل عنها خطورة، وهى رغبة التمتع بارتفاع السمعة السياسية، وذلك نتيجة لنمو الشعور القومى.

وعلى ذلك تميزت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر بهذا الصراع الذى استمر على أشده مدة طويلة (١٨٧٠- ١٩١٤م)

وصار متوقعا أن يؤدى فى النهاية إلى قيام حرب بين هذه الدول المتنافسة.

وكما أثرت الثورة الفرنسية على حياة الفرد وتوجيه فكره، فقد أثر الانقلاب الصناعى فى أسلوب حياة الفرد من الناحيتين الاقتصادية والسياسية.

ذلك أن انتشار السكك الحديدية، واستخدام التجار النقل المائى، لم يلبث أن أدى إلى سهولة الاتصال وسرعته فى داخل الوطن الواحد، وبينه وبين الأقطار المختلفة، ثم إنه قرب بين مواطن الإنتاج ومراكز الصناعة وبين البلدان المختلفة التى توجد بها الأسواق التى يجرى تسويق المنتجات فيها.

ولما كان من المتعذر نقل الآلات الضخمة من أماكنها، فقد نشأت مراكز الصناعة الجديدة فى الأماكن الغنية بمواردها الخام، خصوصا الفحم والحديد، وجذبت إليها هذه المراكز السكان من كل مكان، واستقر هؤلاء بجوار مصانعهم ومعاملهم.

وقد نجم عن ذلك ظهور مشكلات اقتصادية واجتماعية خطيرة، بسبب ظروف العمل الشاقة الناتجة عن رغبة أصحاب المصانع فى الثراء السريع، والتى عانى منها العمال من جهة، وبسبب ما وفرته المصانع الكبرى والمدن الصناعية من الرابطة الضيقة التى تجمع بين العمال فى داخل المصنع، وتسهل ترابطهم من أجل قضية مشتركة من جهة ثانية، وبسبب التنافس المرير بين الرأسماليين

داخل المجتمع الواحد، الذى كان يتيح لكبارهم ابتلاع صغارهم من جهة ثالثة.

وهكذا فى الوقت الذى فيه كان يتزايد عدد العمال وتتوثق روابطهم، كان يقل عدد الرأسماليين ويشتد التنافس بينهم. ومن ثم كان من الطبيعى أن يدب الصراع بين هاتين الطبقتين: صراع حول البقاء.

وقد برزت الاشتراكية فى ذلك القرن لمعالجة التناقض الأساسى بين هاتين الطبقتين، ولكن الماركسية كانت وحدها هى التى قدمت للطبقة البروليتارية النظرية العلمية التى تتضمن قوانين حركة الصراع، والمنهج العلمى للعمل فيما أثارته لإسقاط الطبقة الرأسمالية والاستيلاء على الحكم.

وفى الوقت نفسه، وعلى مستوى الدول كان التنافس يدب بين الدول الصناعية من جهة، وبينها وبين الدول التى تمثل بالنسبة لها أسواقا لتسويق منتجاتها من جهة أخرى.

وبالنسبة للتناقض داخل الدول الصناعية، أو بين بعضها وبعضها الآخر، فكان ثمرته الحرب العالمية الأولى. فقد ترتب على المنافسة الشديدة على الأسواق، أن أقيمت الحواجز الجمركية، وفرضت الضرائب العالية على السلع المستوردة من الخارج لحماية الأسواق المحلية والإنتاج المحلى، ونجم عن ذلك أن قلت الأسواق اللازمة لتصريف التجارة الخارجية.

ولما كان الإنتاج فى الدول الصناعية لايزال فى زيادة مضطردة، فقد أدى إلى المنافسة فى التجارة تبعا لذلك، وصار من المتوقع نزول الأسعار بشكل يعرض الاقتصاد الوطنى للخطر، وقد تضافرت هذه العوامل المختلفة على إشعال نيران الحرب بين الدول المتنافسة، وخصوصا بين إنجلترا وألمانيا.

أما بالنسبة للتنافس بين الدول الصناعية على الأسواق، فكان ثمرته حركة الاستعمار فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

ففى الربع الأخير من هذا القرن كانت جميع الدول الكبرى تسعى للحصول على مستعمرات جديدة، وخاضت جميعها، ماعدا النمسا والمجر، حروبا استعمارية مع الدول لتوسيع أملاكها فى القارات الأخرى.

فخلال جيل واحد ضمت أملاك دول أوروبا المنتصرة الواسعة خمس مساحة الأراضى الموجودة على سطح الكرة الأرضية، وعشر سكانها ـ وهو أقصى حد للتوسع الأوروبى فيما وراء البحار خلال خمسة قرون.

كذلك تم فى جيل واحد تقسيم أفريقيا التى تبلغ مساحتها أربعة أضعاف مساحة أوروبا، إذ اشتد السباق لاستعمارها بعد عام ١٨٨١م عندما استولت فرنسا على تونس، ثم استولت بريطانيا على مصر عام ١٨٨٢م، وتطلب إخضاع السودان ١٥ عاما.

وفى أكتوبر عام ١٨٨٤م أرسلت ١٤ دولة مندوبيها إلى برلين للاتفاق على تقسيم أفريقيا، وهى ألمانيا، والنمسا، وهولندا، وبلجيكا، والدانمارك، والسويد، وأسبانيا، والبرتغال، وإنجلترا، وفرنسا، والولايات المتحدة الأمريكية، وروسيا، وإيطاليا، وتركيا، ولم تنس أن تسبغ على عملها البشع مسحة المدنية، وذلك بالزعم بأن هدفها إلغاء تجارة الرقيق! ومعنى ذلك تسويغ استرقاق البلاد الأفريقية بحجة الرغبة فى تحرير رقيقها!

وقد تم الاتفاق فى مؤتمر برلين الذى استمر إلى فبراير ١٨٨٥م على تنظيم تقسيم القارة على النحو الآتى:

١ ـ عدم فرض أى دولة حمايتها على منطقة من مناطق القارة دون أن تعلن ذلك إلى الدول الأخرى الموقعة على هذا الاتفاق!

٢ ـ عدم إعلان أى دولة استحواذها على منطقة من المناطق دون أن تؤيده باحتلال فعلى لهذه المنطقة!

ومنذ هذا الوقت بدأ الاندفاع على أجزاء أفريقيا يأخذ شكلا خطيراً فى مدى العشر السنوات التالية.

وقد فضلت بريطانيا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا أن تلجأ إلى منح استغلال الأجزاء التى تريدها إلى شركات استغلالية، وتقوم الحكومة بمنحها الحماية والمساعدة المالية، فى حين لجأت فرنسا إلى سياسة استعمارية مباشرة معتمدة على عطف الدول عليها بعد هزيمتها فى حرب السبعين.

ومع هذا الاتفاق، فقد دفع التنافس على الأراضى الأفريقية بعض الدول الكبرى إلى حافة الحرب أكثر من مرة فى نهاية القرن التاسع عشر.

فقد أدى ضم فرنسا لتونس عام ١٨٨١ إلى معاداة الإيطاليين الذين كانوا يطمعون فى الاستيلاء على موقع قرطاجة القديم، ودفعهم إلى الاتفاق مع ألمانيا والنمسا فيما عرف باسم «الحلف الثلاثى» عام ١٨٨٢م.

وكاد الصدام بين إنجلترا وفرنسا فى أعالى النيل (مسألة فاشودة) فى عام ١٨٩٨م أن يؤدى إلى قيام الحرب بينهما.

كما نتج عن المنازعات الألمانية حول مراكش سلسلة من الأزمات بين عامى ١٩٠٥، ١٩١٢.

وكان من الطبيعى أن تؤدى محاولة الدول الاستعمارية الاستيلاء على الأوطان الأفريقية إلى عدد من الحروب المحلية والمحدودة مع شعوب هذه الأوطان، فامتلأت هذه الفترة من ١٨٨٠ إلى عام ١٩٠٠م بالقتال فى الصحراء والأدغال.

كما دخلت قبائل الريف، والسنجال، والهوفا، والتوريج، والأشانتى، والباسوتو، والزولو،، والماتابيل، وغيرها من القبائل فى قتال مع البيض لم تحقق فيه نصرا.

وكان الأحباش وحدهم هم الذين احتفظوا باستقلالهم، إذ ردوا في عام ١٨٨٧م القوات الإيطالية الغازية التي أتت من أرتيريا. وكانت موقعة «عدوة» من أشنع الهزائم التي منيت بها دولة بيضاء في القرن الـ ١٩.

ويمكن إدراك مدى التوسع الاستعماري في أفريقيا في الربع الأخير من القرن الـ ١٩ وحتى عام ١٩١٤م بالمقارنة بين مساحة الأراضي الأفريقية التي أصبحت تحت السيطرة الاستعمارية الأوروبية في أوائل وأواخر هذه الفترة.

ففي عام ١٨٧٨م كانت الحكومات الأوروبية تسيطر على مايزيد على عشر القارة. وفي عام ١٩١٤م كانت تسيطر على ٩/١٠ أراضيها. وكان الفرنسيون يسيطرون على أكبر كتلة، فقد بلغت مساحة الإمبراطورية الفرنسية الأفريقية التي تمتد من الجزائر إلى ساحل العاج، ومن السنغال إلى السودان، ضعف مساحة فرنسا عشرين مرة، وفاقت مجموع ممتلكات بريطانيا الأفريقية!

وفي نهاية القرن التاسع عشر قال جول فيري Jules Ferry رئيس وزراء فرنسا: «إن شعوب أوروبا إنما تطمع في الإستيلاء على مستعمرات لأغراض ثلاث هي: الطمع في خاماتها، والاستحواذ على أسواقها لبيع ما تنتجه من مصنوعات، وأخيرا استثمار رءوس الأموال الفائضة بها. ولا يمكن تحقيق هذه الأهداف إلا باستغلال الأرض والسكان لمصلحة الدولة صاحبة السيادة».

وهذا القول يوضح أن استعمار أفريقيا كان ثمرة الانقلاب الصناعى فى أوروبا والثمرة المرة لشعوب أفريقيا! أما استعمار آسيا، فكان قبل الانقلاب الصناعى بوقت طويل، إذ كان ثمرة المغامرات التجارية بالدرجة الأولى، وقام على أكتاف البورجوازية التجارية، فى حين قام استعمار أفريقيا على أكتاف البورجوازية الصناعية والمالية الاحتكارية.

على أن هذا لايعنى أن آسيا لم تظفر بنصيب من البلاء الاستعمارى، ولم تتأثر تأثيراً بنتائج الإنقلاب الصناعى. فقد قدر لها أن تشارك أفريقيا مصيرها فى تلك السنوات التى زحفت فيها الإمبريالية.

وكان البريطانيون قد سيطروا على الهند من قبل، وفى عام ١٨٨٦م ضموا بورما العليا إلى الهند باعتبارها إقليما منها. وفى عام ١٨٨٥م كادت الحرب تنشب بينهم وبين الروس حول أفغانستان، التى أراد الروس احتلالها ليقفزوا منها على الهند.

وبسبب هذا الصدام تحول الروس إلى الصين بدلا من الهند، وولى القيصر وجهه عام ١٨٩٢م نحو الصين، وبنى الخط الحديدى عبر منشوريا ترقبا لانهيار السلطة فى الصين، ولكن مشروعاته انتهت بهزيمة كبيرة على يد دولة فتية هى اليابان.

وفى عام ١٨٨٣ أتم الفرنسيون استيلاءهم على الهند الصينية من كمبوديا Cambodia إلى تونكين Tongking، واخترقوا إقليم

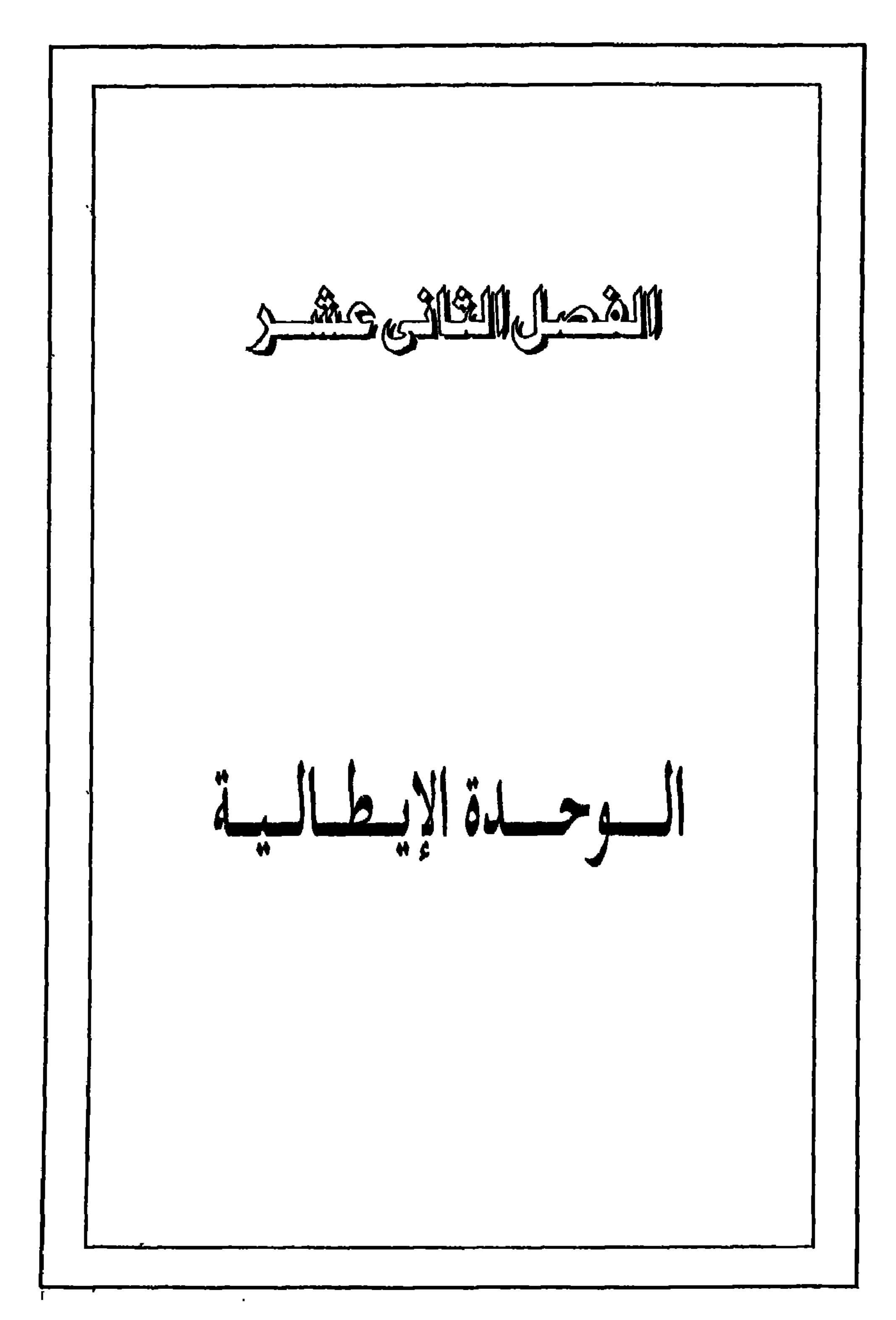
يونان Yunnan الصينى وحصلوا على إقليم كوانجشو Kuangchow بالإيجار عام ١٨٩٨م.

وفى عام ١٨٩٤م استطاع اليابانيون بهجومهم على الصين أن يفصلوا كوريا ويضموا فرموزا، وأن يستولوا تقريبا على شبه جزيرة لياو تونج Liaotung.

إلا أن هذا المكسب الأخير كان يهم الروس والألمان والفرنسيين، واستطاعت هذه الدول إقناع اليابان بإعادته إلى الصين.

وقد دفع هذا الطمع الاستعمارى من جانب الدول الكبرى الصينيين إلى المقاومة على يد جمعية سرية تدعى جمعية الملاكمين «البوكسرز» Boxers، قامت تقتل المبشرين والتجار الأوروبيين. وهنا زحف جيش دولى على بكين، ونهب قصر الإمبراطورية التى شجعت البوكسرز، وفرض تعويضا فادحا. وكانت الدول الاثنتى عشرة التى اشتركت فى إعادة حسم الأمور فى الصين تضم اليابان والولايات المتحدة.

وفى بداية القرن العشرين كانت مدمرات ست دول كبرى، هى: بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا واليابان والولايات المتحدة تجوب مياه الشرق الأقصى، ولكن أكثر الدول اهتماما بالصين بين هؤلاء الأوصياء كانت اليابان وروسيا، إذ لكل منهما حدود متاخمة على بحر اليابان، وقد أدى تنازعهما إلى الصدام المسلح عام ١٩٠٤م.



الفصل الثانى عشر

الوحدة الإيطالية

الـوحـدة الإيـطالـيـة

تعتبر الوحدة الإيطالية ثمرة من ثمار الثورة الفرنسية وحكم نابليون. لقد كانت إيطاليا قبل غزو نابليون مجرد اسم جغرافى، فقد كانت مقسمة إلى إمارات إقطاعية يحكمها أمراء إقطاعيون، وبالتالى فإن هذا النظام الإقطاعى كان من شأنه تفتيت الشعور القومى.

وعندما غزا نابليون إيطاليا، قضى على سلطة الأمراء الإقطاعيين، وقضى بذلك على الدويلات العشر فى شبه الجزيرة الإيطالية، فمهد الطريق لظهور طبقة بورجوازية بعد زوال الحواجز الإقطاعية، وكانت هذه الطبقة البورجوازية هى التى حملت لواء الدعوة للوحدة الإيطالية.

وكما رأينا فقد تجاهل مؤتمر فيينا الشعور القومى الذى عمل نابليون على تشجيعه بوازع من أصبله الإيطالى، ولإقامة حاجز إيطالى فى مواجهة النمسا، ومن هنا كانت النمسا نفسها هى التى عملت على إعادة إيطاليا إلى أوضاعها السياسية التى كانت عليها قبل الثورة الفرنسية.

فقد استولت النمسا على مقاطعة لومبارديا (لومباردى) Lombardy. التى كانت خاضعة لها منذ عام ١٧١٣م، كما استولت على البندقية وجزرها التى كانت تمتلكها، واستعادت تريستا وساحل دالماشيا، وأصبحت النمسا بفضل استيلائها على البندقية وجانب كبير من شاطئ الأدرياتيك الشرقى، دولة بحرية.

أما بقية الإمارات الإيطالية، فقد أعيد ملك بيد مونت (ولقبه الرسمى: ملك سردينيا)، وهو من أسرة سافوى، إلى مملكته، وكان قد طالب بضم مقاطعة لومبارديا إليه، ولكنه لم يوفق، وألحق به جزء من سافوى، كماضم إليه أيضا جمهورية جنوة Genoa القديمة.

وأعيدت ولايات البابا إليه، وأعيد الملك فرديناند البوربونى إلى نابولى قاعدة ملكه، بعد أن ضم إلى ملكه جزيرة صقلية أيضا، وقد تعهد ألا يمنح لرعيته دستورا أكثر مما هو ممنوح للومبارديا والبندقية.

كما عقدت النمسا معاهدات مع أمراء توسكانيا ومودينا وبارما (فى الغرب من الولايات البابوية) تضعهم تحت نفوذها، وأقامت حاميات نمساوية فى قلاعهم.

وعلى هذا النحو قسم مؤتمر فيينا إيطاليا إلى ثمانية أجزاء، وهى: مملكة بيد مونت Biedmont، والمقاطعات النمساوية فى الشمال، (وتتكون من لومبارديا والبندقية) ودويلات الكنيسة،

ودوقيات توسكانيا ومودينا وبارما ولوكا Lucca فى الوسط، ومملكة نابولى (أو The two Ciclies الصقليتين) فى الجنوب.

وأعطيت بارما إلى مارى لويز الأميرة النمساوية وأرملة نابليون، وأعطيت لوكا إلى الأميرة مارى لويز البوربونية التى كانت تحكم بارما قبل الثورة الفرنسية، وأعيدت الدويلات الأخرى إلى أصحابها القدامى فيما عدا البندقية التى حصلت عليها النمسا، وجنوة التى ضمت إلى مملكة بيدمونت.

وقد أصابت هذه التغييرات مصالح الطبقة البورجوازية الإيطالية التى أزدهرت فى عهد نابليون، بعد أن أعيدت الحواجز الإقطاعية، وأصيبت تجارتها بالكساد من جرّاء المكوس الجمركية التى عادت بين الدويلات، فأخذت تتوق إلى إزالة هذه الحواجز عن طريق الوحدة.

وفى الوقت نفسه، كان العسكريون متشبعين بالأفكار الثورية الديمقراطية، وقد سخطوا من جرّاء ضياع الحريات الاجتماعية، وعودة الترقيات إلى الضباط الذين أعادتهم تغييرات مؤتمر فيينا من المنفى.

وازداد الاستياء فى المقاطعات الخاضعة للنمسا فى لومباريا، بعد أن أسندت المناصب العليا إلى النمساويين والتيروليين، وضربت مصالح رجال الصناعة الذين كانت صناعتهم

تخضع للرسوم الجمركية عند دخولها إلى النمسا فى حين كانت سوق لومبارديا مفتوحة للسلع النمساوية.

وقد أفرز ذلك كله حزبا مكونا من البورجوازيين والأشراف فى ميلان، كان رئيسه كانفالونييرى Canfalonieri الذى كان يجتمع بأحرار إنجلترا وفرنسا.

وتزايد السخط فى نابولى التى تعهد ملكها فرديناند - كما رأينا - لمترنيخ بحكم بلاده بلا دستور، بعد أن فتحت أبواب إيطاليا أمام التجارة الأوروبية، وزاحمت البضائع الأجنبية المصنوعات الوطنية، فضعفت صناعة الأقطان والمشروبات، فضلا عما أصاب تجارة الحبوب والزيوت من الكساد، وأصيبت مصالح الطبقة البورجوازية التجارية والصناعية فى الصميم، وبدأ الفلاحون يتذمرون بسبب عودة الحقوق الإقطاعية.

فى ذلك الحين ظهر تشكيل جديد بزعامة جمعية الكاربونارى Carbonari (أى حارقو الفحم) وهى جمعية سرية تشبه فى مراسمها وتشكيلاتها تشكيلات الماسونية، ظهرت فى نابولى، وساعد على إيجاد أنصار لها من مختلف الأحزاب تعاليمها الديمقراطية الاشتراكية ونزعتها المسيحية.

وقد انتشرت هذه الجمعية من نابولى فى الجنوب إلى الشمال فى بيدمونت وبارما ولومبارديا، وأخذ هؤلاء يدبرون المؤامرة الكبرى

التى هيأت لثورة ١٨٢٠م ضد الملك فرديناند فى نابولى. ولكن نجح النمساويون بسهولة فى إخمادها. كما لقيت انتفاضات أخرى فى بارما ومودينا والولايات البابوية فى ١٨٣١م نفس المصير.

وقد أدى فشل الكاربونارى فى قيادة الثورة إلى قيام تنظيم جديد أكثر حيوية، وهو تنظيم «إيطاليا الفتاة» الذى ألفه ماتزينى Mazzini الذى ولد فى جنوة، وكان عضوا فى جماعة الكاربونارى، ونفى بسببها فى عام ١٨٣١م، ويعتبر من زعماء حركة البعث Ri-sorgimento التى نادت بتوحيد إيطاليا.

وكان يرى أن سبب فشل ثورة الكاربونارى ناشئ من أن قادتها كانوا محدودى الكفاية والإبداع، ولم يكن لديهم أى برنامج معد ليباشروا تنفيذه عند إسقاط الحكومات الاستبدادية، وقد اعتقد أنه آن الأوان لظهور قيادات شابة وأفكار شابة، وكان شعاره «اتركوا المجال للشباب» وضعوهم على رأس الثورة، وأقنعوهم بمقدرتهم، وأطلقوهم فى وجه النمساويين.

وقد اختلفت جمعية «إيطاليا الفتاة» عن «الكاربونارى»، فى أن الجماعة الأخيرة كانت تطلب من أعضائها الطاعة العمياء، فى حين كان ماتزينى يطلب من الأعضاء العمل حسب اقتناعهم الشخصى. ولما هرب من سجنه فى عام ١٨٣١م والتجأ إلى فرنسا، راجت كتاباته فى جميع أنحاء إيطاليا، وأخذت مدرسته الجديدة تقوم مقام «الكاربونارى»، إذ خلب منهجه الشباب الإيطالى الذى كان ينتظر بفارغ الصبر ظهور الزعيم، وأخذ أنصاره يزدادون يوما

بعد يوم، وكان يرى أن الثورة لا يمكن أن تنجح بدون اشتراك عامة الشعب، وكانت فكرة ماتزينى أن تكون إيطاليا الجديدة «جمهورية» «وموحدة»، لأن حالة إيطاليا وتقاليدها وجميع ذكرياتها الخالدة متمركزة فى فكرة «الجمهورية».

على أن الوحدة الإيطالية فى نظر ماتزينى كانت أثمن من الجمهورية، وكان مؤمنا بإمكان بعث إيطاليا الموحدة، وأخذ يبشر برسالة الوحدة حتى أصبحت إنجيل الأمة، وسرى إيمان ماتزينى إلى الناس فأصبحوا يعتقدون أن إيطاليا لن تستطيع أن تكون قوية إلا بالوحدة.

وكان ماتزينى، كأكثر الكاربوناريين، يعتبر بيدمونت مؤهلة لقيادة الحركة القومية، فلما تولى شارل ألبرت Charles Albert العرش، وجه إليه ماتزينى رسالة يدعوه فيها لأن يكون على رأس الوطنيين، ولكن شارل ألبرت أصدر عليه حكما قاسيا، فما كان من ماتزينى إلا أن دعا إلى الثورة، متصورا أن الثورة على أبواب البلاد، وأنه ما يكاد ينفخ فيها حتى يهرع المتطوعون للانضمام إلى الحركة، ثم ينضم الجيش البيدمونتى إلى الثورة، ويستولى على لومبارديا، ويجبر شارل ألبرت على ترؤس الحركة أو الخلع.

على أن الحكومة فى بيدمونت اكتشفت المؤامرة، ولجأت إلى القسوة فى البطش برجالها، وتألفت المحاكم العرفية، وقاد شارل ألبرت عملية الاضطهاد بنفسه.

ولم يحفل ماتزينى بهذا الفشل، بل اجتمع فى سافوى على رأس ٧٠٠ من المبعدين وأعد ثورة ثانية، فاجتمع فى سويسرا جيش من المبعدين من جميع الأقطار الإيطالية، وزحفوا على سافوى، وعلى رأسهم الجنرال المنفى «رمارينو»، فى حين حاول البحار الشاب غاريبالدى إثارة الأسطول، ولكن بطأه وعجزه أضاعا الفرصة، وتشتت القوة بعد بعض المناوشات فى فبراير ١٨٣٤م.

فى تلك الأثناء برزت إلى جانب تنظيم «إيطاليا الفتاة» حركة قومية معتدلة يقودها مثقفون تختلف طريقتهم فى الحصول على الاستقلال عن طريقة «إيطاليا الفتاة»، فقد كانوا ملكيين ينفرون من المؤامرات والثورات، ويرون فيها ذريعة تستخدمها الحكومات الرجعية للمضى فى التدابير الاستبدادية، وكانوا يعتمدون على الملوك فى الإصلاح، ويرون أن الزمن لم يحن بعد لاستخدام العنف.

وقد انقسم هؤلاء المعتدلون إلى فريقين، الفريق الأول، كان كاثوليكيا، وقد أطلق أعضاؤه على أنفسهم اسم «الجلفى الجديد» Guelfe، وكان على رأس هؤلاء جيوبيرتى Gioberti، وهو راهب من أهل تورينو.

ولم يكن جيوبيرتى يؤمن بالوحدة الإيطالية، فقد كان يرى تعذر تحقيقها بصورة سليمة بسبب الانقسام الذى أصاب إيطاليا منذ زمن بعيد وفعل فعله، كما كان يعتقد أن تأسيس الوحدة

الإيطالية بالقوة جريمة، ولكنه كان يرى إقامة اتحاد بين الدول الإيطالية برئاسة البابا العليا. وهو ما يضمن دخول روما وممتلكات البابا فى الاتحاد.

أما المجموعة الثانية من الوطنيين المعتدلين، فكانت ترى فى مملكة بيدمونت معقد آمالها فى الاتحاد، وكان على رأسها « قيصر بالبو» الذى نشر كتابا فى باريس سنة ١٨٤٣م بعنوان: «آمال إيطاليا». وكان بالبو تلميذا لجيوبرتى، ولكنه يختلف عنه فى تعليق آماله على تورينو بدلا من بابا روما، وكان كتابه موجها للملك شارل ألبرت يحرك به وطنيته، ولم يكن بالبو يؤمن بالوحدة الإيطالية أيضا، وإنما بالاتحاد الإيطالى، غير أن هذا الاتحاد لم يكن ليتم مادام النمساويون يحتلون البلاد، ومن هنا تأتى أهمية وضرورة الاستقلال الوطنى.

كذلك كان على رأس هذه المجموعة «دازيجليو»Dazeglio صديق بالبو الذى قام بنشر آرائه، وكان يؤمن بزعامة بيد مونت ويكره بابا روما، وقد ندد بالثورات المحلية الصغيرة التى لا تؤدى إلى الاستقلال، وإنما تمكن الحكومات من سحقها وتسوغ حجتها فى إنزال الاضطهاد بالأحرار، مبينا انه ليس من حق أقلية أن تفرض مستقبل شعب.

وقد أصبح دازيجليو بفضل هذه الآراء زعيما لأنصار شارل ألبرت الذين يعلقون آمالهم على ملك بيدمونت وأصبح الذين يتوقون إلى رؤية إيطاليا حرة ينضمون إلى صفوف المعتدلين الذين ثبت

أنهم كانوا أقدر على تحقيق الوحدة الإيطالية من جماعة كاربونارى وإيطاليا الفتاة، وقد أطلق عليهم اسم العمليين.

وعلى هذا النحو انقسم الرأى العام فى الولايات الإيطالية بين أنصار الملكية وأنصار الجمهورية ـ أى بين أنصار ملكية بيدمونت، وأنصار ماتزينى الذين يؤمنون بالجمهورية.

فلما نشبت الثورة فى فرنسا عام ١٨٤٨م، وامتدت عدواها إلى النمسا فى مارس ١٨٤٨م، واضطر مترنيخ إلى الفرار، قامت الثورة فى لومباردیا فى شمال إيطاليا ضد الحكم النمساوى فى ١٧ مارس ١٨٤٨م، وأجبر الوطنيون فى عاصمتها ميلانو الحامية النمساوية بقيادة راديسكى Radesky على الجلاء بعد خمسة أيام من الثورة.

وفى نفس الوقت تقريبا تم طرد حكومتى بارما ومودينا (وقد كانتا نمساويتين فى حقيقة الأمر).

وفى ١٧ مارس ١٨٤٨م قامت الثورة فى البندقية، وأطلق الوطنيون سراح الزعيم الوطنى مانين Daniel Manin الذى سارع بإعلان الجمهورية.

وهكذا توقف الأمر فى نجاح الثورة على موقف شارل ألبرت ملك بيد مونت (وهى القاعدة الحقيقية لملكة سردينيا)، فأصدر فى ٢٣ مارس ١٨٤٨م بيانا لشعبى لومبارديا والبندقية يعلن فيه وقوفه

إلى جانبهما، ثم أعلن الحرب على النمسا، وعبر الجيش السردينى نهر تتشينو Ticino لتعقب النمساويين ومساندة الثائرين فى لمبارديا، واضطرت حكومات توسكانيا وروما ونابولى إلى إصدار الأوامر لجيوشها بالزحف، للاشتراك فى حركة تحرير إيطاليا، واعتقد الناس أن الوحدة الإيطالية آتية.

على أن هذا الأمل لم يتحقق تحت عاملين: الأول، أن الولايات الإيطالية كانت تفتقر إلى الوحدة الحقيقية، فقد سارع فرديناند ملك نابولى إلى سحب جيوشه، وكذلك فعل دوق تسكانيا.

وفى الوقت نفسه رفض البابا بيوس التاسعBius IX الاشتراك فى الحرب ضد النمسا، على أساس أنه بابا يحب جميع الشعوب ويساوى بينها! فانقلب بذلك على تاريخه، إذ كان صاحب مبادئ حرة أثارت دهشة مترنيخ حتى اعتبر ظهور بابا ذى مبادئ حرة «أعظم كارثة فى هذا العصر»! وبعد هذا الانقلاب أضطر البابا إلى الفرار من روما.

وسرعان ما أقيمت جمهورية ثورية أسند الحكم فيها إلى ثلاثى يتألف من ماتزينى وسافى Saffi وأرميللينى Armillini ـ وإن كان ماتزينى هو الموجه الفعلى لسياسة الجمهورية. كما جاء غاريبالدى، الذى صار يعتبر بطل إيطاليا، فوضع سيفه تحت تصرف الحكومة الثلاثية. ومن روما راح ماتزينى وغاريبالدى يتحديان سلطة النمسا والبابا باسم الله وباسم الشعب.

أما العامل الثانى فهو موقف الملك شارل ألبرت، الذى أصبح الآن وحده فى الميدان بعد تخلى الولايات الإيطالية عنه، وكان فى وسعه التقدم بعد الانتصارات التى حققها على النمساويين، ولكنه تردد، وقد سمى لذلك بالملك المتردد Retentenna، والتاريخ يعرفه بصفة عامة باسم «هاملت سافوى»The Hamlet of Savoy. وقد أضعف شأن الحركة الإيطالية باقتصارها على شمال إيطاليا، وكان همه ألا يعطى للجمهوريين الفرصة، وأن يضم لومبارديا إلى بيدمونت قبل تحقيق النصر.

وكان النمساويون بعد طردهم من ميلانو قد تقهقروا إلى الشرق بعد أن حققت القوات الإيطيالية بعض الانتصارات، وأعظمها الاستيلاء على حصن بيشبييرا Pescbiera المهم.

على أن النمساويين ظلوا يسيطرون فى الرباعى الشهير: «فيرونا» Verona وبيشبييرا Pescbiera ولينياجو Legnago ومانتورا Mantora على مواقع حصينة أتاحت للجيش النمساوى طريقا مأمونا للاتصال بالنمسا وتلقى الإمدادات، كما وجدوا فى «راديتسكى» رغم تجاوزه الثمانين من عمره، قائدا يعترف له أعداؤه بالبراعة، وكان مستوى النظام والكفاءة فى جيش النمسا أعلى كثيراً منه لدى الإيطاليين. ومن هنا لم يكن ثمة ما يمكن أن ينقذ الإيطاليين من الهزيمة الكاملة سوى انهيار السلطة النمساوية انهيارا كاملا شمال الألب.

وسرعان ما اقتربت النهاية عندما اكتمل استعداد «راديتسكى» لشن هجوم مضاد، فالتحم بالإيطاليين فى يوم ٢٥ يوليو ١٨٤٨م فى ساحة القتال بكستوزا Custozza، وهى الساحة التى قدر لهم أن يصابوا فيها بضربة قاضية مرتين، فأنزل بهم هزيمة فادحة مما اضطر شارل ألبرت إلى الانسحاب إلى ميلانو، ودخل النمساويون ميلانو من جديد، واضطر شارل ألبرت إلى عقد هدنة من شروطها الموافقة على إعادة لومبارديا إلى النمسا.

وهنا أعلن ماتزينى أن الحرب الملكية قد انتهت، وأن الأوان قد آن لحرب الشعب أن تبدأ، ورفع علما نقش عليه شعاره المفضل: «الله والشعب».

لم تكن الهدنة التى وقعت على أثر الاحتلال النمساوى لميلانو تسوية نهائية لمستقبل إيطاليا، فقد طالب البرلمان فى تورينو بإستئناف الحرب، وهددت جنوة بإعلان الجمهورية إذا قبلت شروط النمسا، فلم يجد شارل ألبرت بدا من مواجهة النمساويين من جديد، ولكن الجيش البيدمونتى بقيادة شارل ألبرت لقى الهزيمة فى معركة نوفارا Novara فى ٢٣ مارس ١٨٤٩م، وهى هزيمة اقترنت ببعض الشك فى خيانة بعض قواده.

وهنا أعلن شارل ألبرت أنه قد ضحى بكل شئ فى سبيل إيطاليا، وأنه لما كان قد غدا العقبة الرئيسية فى طريق الصلح، فقد قرر النزول عن العرش، لابنه فيكتور عمانويل الثانى. وهجر شارل ألبزت بلاده إلى البرتغال حيث توفى بعد أشهر قليلة.

كان على أثر هذه الهزيمة أن عادت الرجعية إلى الولايات الإيطالية، فقد استطاع فرانسوا الأول ملك نابولى إعادة النظام الرجعى فى نابولى أولا، وتمكن ، بمساعدة النمسا ، من عبور المضيق إلى صقلية التى كان الثوار قد أعلنوا فيها قيام دولة مستقلة ذات نظام دستورى، فاخمد الثورة. وبقيت جمهوريات توسكانيا والبندقية وروما.

وبالنسبة لتوسكانيا فإنها كانت قد تمكنت من إقامة جمهورية فيها بزعامة الشاعر «جورازى» Guerazzi، ولكن النمسا تدخلت فى أمرها، وأعادت فيها النظام القديم.

أما البندقية فقد أخضعتها النمسا بدورها، ونفت بطلها «مانين».

وأما روما فقد تنازعت النمسا وفرنسا على إخضاعها وإعادتها إلى البابا، ولكن لويس نابليون رئيس الجمهورية الفرنسية أراد أن يكسب لصفه الكاثوليك فى فرنسا، فأرسل حملة على روما قامت بغزوها. وقد دافع عنها ماتزينى، وغاريبالدى دفاع الأبطال، ولكن المدينة سقطت، وفر غاريبالدى وصحبه، وعاد البابا إلى عرشه.

ولم يبق فى إيطاليا كلها فى نهاية عام ١٨٤٩م مملكة دستورية غير بيدمونت، التى باتت الآمال معقودة عليها لتحقيق الوحدة الإيطالية.

وكانت بيدمونت عند حسن الظن بها، فقدظل فكتور إيمانويل يحافظ على الدستور وعلى الراية المثلثة الألوان (رمز الوحدة) ويأوى الأحرار، ومن هؤلاء مانين بطل البندقية، الذى أنشأ جمعية اسمها «الوحدة الإيطالية» تعمل من أجل الوحدة بزعامة بيدمونت. ومنهم أيضا غاريبالدى. وبلغ من تزايد توافد الأحرار على بيدمونت أن زاد عدد سكانها نحو الخمس!

وقد اختار فكتور إيمانويل الثانى لمعاونته الوزير كافور (١٨١٠ ـ ١٨٦١م) Camillo Benso di Cavour الذى كان من أكثر المتحمسين للحكم الدستورى، وهو من أبناء تورين، وأسس فى عام ١٨٤٧م جريدة أسبوعية باسم Resorgimento أى البعث، وقد استدعاه إيمانويل الثانى فى عام ١٨٥٠ للاشتراك فى الوزارة، وفى ١٨٥٢م عينه رئيسا للوزراء.

وقد كانت خطة كافور للوحدة هى تقوية بيدمونت اقتصاديا وعسكريا حتى تستغنى عن أية نجدة تأتى من أمراء إيطاليا بعد أن ثبت تخليهم عن بيدمونت وقت الحرب. وقد استطاع بالفعل عن طريق الأخذ بيد الصناعة والتجارة وفرض الضرائب على أملاك الكنيسة أن يقوى اقتصاد بلاده على نحو مكنه من إعداد تسعين ألفا من الجنود الذين تمرنوا على النمط البروسى.

كذلك تخلى كافور عن فكرة الاعتماد على إيطاليا وحدها فى التحرير، وهى الفكرة التى كانت تعتنقها كل الجماعات الإيطالية التى كانت تقول: «إيطاليا تقوم بذلك وحدها» "Italia Fara da se".

لقد أدرك كافور أن إيطاليا لا تستطيع الوقوف وحدها فى وجه النمسا القوية، فعمد إلى إرضاء الدول وجلب ثقتها، وأخمد ثورات ماتزينى حتى لا تنفر منه الحكومات الراغبة فى السلام والنظام.

ولما قامت حرب القرم Crimean War (١٨٥٤ ـ ١٨٥٦م) عرض على كل من إنجلترا وفرنسا الاشتراك معهما ضد روسيا، وانتصر معهما فى معارك كثيرة، فغسل عار هزيمة نوفارا.

ولما انعقد مؤتمر الصلح فى باريس عام ١٨٥٦م، جلس بجانب مندوبى الدول العظمى، وإن لم يكن قد دعى رسميا إلى المؤتمر، وأسمعهم صوت إيطاليا، وعرض قضيتها ضد النمسا، وتقرب من نابليون الثالث، الذى نشأ على حب إيطاليا واندمج فى صفوف الكاربونارى وتعهد بالعمل على توحيد إيطاليا إذا ولى العرش.

على أن خطة كافور فى الاستعانة بفرنسا كادت تتعرض لنكسة عندما ألقى إيطالى يسمى أورسينى Orsini ثلاث قنابل على نابليون الثالث وزوجته فى باريس، وهما ذاهبان إلى الأوبرا يوم ١٤ يناير ١٨٥٨م، وقبض على أورسينى. ولكن الجانى لم يلبث أن أرسل من سجنه نداء إلى الامبراطور يتوسل إليه فيه أن يذكر إيطاليا، وأنه مادامت إيطاليا محرومة من استقلالها فلن يكون هناك سلام فى أوربا.

وهنا بعث الإمبراطور يطلب لقاء كافور فى حمامات بلومبيير Plombère فى ٢٠ يولية ١٨٥٨م، واتفقا على أن تساعد فرنسا بيدمونت فى حربها ضد النمسا، بشرط أن تبدأ الأخيرة بالعدوان، وأتفقا على أنه عند انتصار الحليفين تنفذ الشروط الآتية:

١ ـ تضم لومبارديا والبندقية لبيدمونت، وكذلك الدوقيات وبعض أجزاء ولايات البابا فى شمال إيطاليا، ويصبح فكتور إيمانويل ملكا على مملكة شمال إيطاليا.

٢ ـ يضاف الجزء الباقى من ولايات البابا ـ ما عدا روما وماجاورها ـ إلى توسكانيا، وتتكون منها جميعا مملكة إيطاليا الوسطى.

٣ ـ يتكون اتحاد إيطالى من كل من مملكة شمال إيطاليا ومملكة إيطاليا الوسطى بالإضافة إلى مملكة نابولى والولايات البابوية، بزعامة البابا ترضية له عن خسارة معظم أملاكه.

٤ ـ تتنازل بيدمونت لفرنسا عن نيس وسافوى لتوسيع حدود فرنسا إلى جبال الألب.

وبناء على هذا الاتفاق أخذ كافور فى استفزاز النمسا لكى تعلن الحرب على بيد مونت، وذلك عن طريق الإيعاز إلى الصحف فى بيد مونت بالطعن فى الحكومة النمساوية وبالتنديد بها، وفتح اكتتابات لتعزيز الجيش، وإزاء ذلك أرسلت النمسا إنذارا الى كافور تطلب فيه تسريح الجيش ونزع سلاحه فى ثلاثة أيام.

وهنا تقاطر المتطوعون على بيد مونت، وتقدم غاريبالدى إلى الملك متطوعا رغم ميوله الجمهورية، فعقد الملك له لواء المتطوعين.

وفى أبريل ١٨٥٩م زحفت الجيوش النمساوية على بيد مونت، فاعتُبرت معتدية فى نظر أوربا، وتقدمت فرنسا لمساندة حليفتها «وتحرير إيطاليا من الألب إلى الأدرياتيك»، وكون غاريبالدى من المتطوعين فرقة «صيادى الألب» لمهاجمة جناح الجيش النمساوى، وانتصر نابليون وفكتور إيمانويل على الجيش النمساوى فى ماجينتا Magenta فى ٤ يونية ١٨٥٩م، وسولفرينو Solferino فى ١٤ يونية ١٨٥٩م.

على أن تطور الأوضاع فى إيطاليا فى أثناء الحرب، وتغير الموقف الدولى، ضغطا على يد نابليون لإيقاف الحرب دون استشارة كافور.

فقد أعلنت الولايات الوسطى انضمامها إلى بيدمونت على أثر الحرب، مما هدد بظهور وحدة إيطالية قوية. وفى الوقت نفسه استغاثت النمسا بروسيا وإنجلترا، واستنكر الرأى العام فى فرنسا إضعاف سلطة البابا عن طريق فقد بعض أملاكه فى إيطاليا الوسطى.

وعلى ذلك طلب نابليون الثالث مقابلة الإمبراطور النمساوى فرانسوا جوزيف، فقابله فى «فيلافرانكا » Villafranca، يوم ١١

يولية ١٨٥٩م، وعقد معه هدنة، واتفقا على شروط الصلح، بغير استشارة بيد مونت، وهى الشروط التى عرفت باسم «صلح زيوريخ» ١٨٥٩م، وبمقتضاها تنزل النمسا عن لومباديا إلى بيدمونت، وإرجاع حكام توسكانيا ومودينا وبارما إلى عروشهم، بعد أن كانوا قد طردوا منها وطلبت شعوبهم الانضمام إلى بيد مونت كما ذكرنا، وتأليف اتحاد من كل إيطاليا تحت رئاسة البابا، على أن تدخل البندقية ضمن هذا الاتحاد كإقليم تابع للنمسا.

على هذا النحو لم تنل بيد مونت من الحرب غير لومبارديا، إذ بقيت البندقية للنمسا، وتقرر عودة حكام الولايات الوسطى إلى عروشهم، وهنا قدم كافور استقالته إلى الملك فيكتور عمانويل الثانى احتجاجا على قبول الملك «المعاهدة الحقيرة».

على أنه عندما أبى الشعب الثائر فى مودينا وبارما وتوسكانيا وروماني Romagna الخضوع لأحكام المعاهدة، وأصر على رغبته فى الانضمام إلى بيدمونت، أرضى ذلك كافور، فعاد إلى رياسة الوزارة فى يناير ١٨٦٠م، وأخذ يعمل على إجابة طلب هذه الولايات.

ولما كان نابوليون لم يحصل على نيس وسافوى بسبب عدم تنفيذه كل شروط بلومبيير»، فقد عرض عليه كافور ضم الولايات الوسطى إلى بيد مونت فى مقابل حصوله على نيس وسافوى، فقبل بشرط استفتاء الأهالى فى هذا الانضمام، وقد جاءت نتيجة

الاستفتاء فى صالح الانضمام إلى بيدمونت. وعلى الرغم من أن اسم المملكة الرسمى كان لايزال مملكة سردينيا، فقد باتت تعرف باسم «إيطاليا».

وفى الوقت نفسه أخذت أصوات أهل نيس وسافوى، فكانت فى جانب الانضمام إلى فرنسا، وعلى ذلك تنازل كافور عن نيس وسافوى لفرنسا.

وكانت نيس هى مسقط رأس غاريبالدى، الأمر الذى جعله يكره كافور، وكانت سافوى مسقط رأس أسرة الملك فيكتور إيمانويل، وهى التى كانت تسمى أسرة سافوى Savoy، وكانت شارتها صليبا أحمر فوق ترس، وقد بقى الترس والصليب فى وسط علم إيطاليا المثلث الألوان رغم ضم سافوى لفرنسا.

على كل حال فقد بقى خارج الوحدة كل من مملكة نابولى والبندقية وأملاك البابا بما فيها روما.

وبالنسبة لنابولى وصقلية اللتين كانتا تكثر فيهما الثورات لاستبداد ملكهما، فقد عمد كافور إلى تحريك الثورة فيهما، وأرسل غاريبالدى سرا فى مايو ١٨٦٠م ومعه ألف من المتطوعين من «ذوى القمصان الحمراء» نزل فى صقلية واستولى عليها دون عناء، وعبر البوغاز ونزل أرض نابولى، ودخل عاصمتها دخول المنتصر يوم ٧ سبتمبر ١٨٦٠م.

فى ذلك الحين كان البابا يعد جيشا لمحاربة بيد مونت ليسترجع منها رومانيا، وأعلن الجهاد الدينى عليها، فأتاح بذلك الفرصة لكافور لضم الممتلكات البابوية، وتقدم الملك فيكتور إيمانويل الثانى بجيشه، وشتت جيش البابا عند «كاستيلفيداردو» Castelfidardo فى ١٨ سبتمبر ١٨٦٠م، واحتل ممتلكات البابا عدا روما، إذ كانت فيها حامية فرنسية، وجرى استفتاء شعبى انتهى لصالح الانضمام إلى بيد مونت فى نوفمبر ١٨٦٠م.

وتقدم الملك بعد ذلك إلى نابولى، حيث كان غريبالدى يريد إنشاء جمهورية فيها متأثراً بأفكار ماتزينى، ولكنه عدل عن رأيه وطلب إلى الناس الاتحاد تحت لواء الملك، ودخل الملك وغاريبالدى مدينة نابولى فى عربة واحدة، وفتحا معاً ما بقى من حصون البلاد.

وقد تلا ذلك إجراء استفتاء شعبى فى الوحدة مع بيدمونت، فكان الاستفتاء لصالح الوحدة. وفى ١٨ فبراير ١٨٦١م اجتمع المجلس النيابى الجديد فى تورينو، وكانت كل إيطاليا ـ فيما عدا البندقية وروما ـ ممثلة فيه، فاستبدل باسم «مملكة سردينيا» (بيدمونت) «مملكة إيطاليا»، ونودى بفكتور إيمانويل الثانى ملكاً على إيطاليا «بفضل الله وإرادة الأمة».

ولكن بعد أربعة أشهر فقط، أى فى ٦ يونية ١٨٦١م، مات كافور بعد أن وحد إيطاليا بالدستور، ولقبه المؤرخون ببسمارك إيطاليا، وإن كان بسمارك وحد ألمانيا بالحديد والدم.

وقد بقى على إتمام الوحدة الإيطالية ضم البندقية، التى كانت لاتزال تابعة للنمسا، وروما التى كانت تحت سيطرة البابا.

أما البندقية فقد ضمت إلى مملكة إيطاليا بعد هزيمة النمسا أمام جيوش بروسيا سنة ١٨٦٦م.

وأما روما فقد بقيت فى يد البابا حتى نشوب حرب السبعين (١٨٧٠م) بين فرنسا وبروسيا، وانسحاب الجيوش الفرنسية منها، فدخل الجيش الإيطالى روما فى ٢٠ سبتمبر ١٨٧٠م. وقد دخلها الملك فرداً عادياً لا كملك، احتراماً للبابا. وقد جرى استفتاء شعبى فى روما طبقاً لما جرى فى الولايات السابقة، فصوتت الغالبية العظمى لصالح الانضمام للمملكة، وبذلك تمت الوحدة الإيطالية.

على أن البابا لم يعترف بهذا الانضمام، وظل يعتبر نفسه ـ هو ومن تلاه من البابوات ـ سجيناً فى قصره بالفاتيكان، ورفض أن ينزل عن سلطته الزمنية، واستمر ذلك حتى سوى هذا النزاع فى أثناء الحكم الفاشى فى إيطاليا فى «اتفاقية لاتران» فى ١١ فبراير ١٩٢٩م، وهى الاتفاقية التى عقدت فى قصر البابا المعروف باسم قصر Lateran، وقد اعترفت فيها الحكومة الإيطالية بالكاثوليكية الرومانية باعتبارها دين إيطاليا الرسمى، وبمدينة الفاتيكان Vatican City كدولة مستقلة ذات سيادة. وفى عام ١٩٤٨ أكد الدستور الإيطالى هذه الاتفاقية.

الفصل الثالث عشر

الوحدة الألمانية

الوحــــــدة الألمانيــــــة

(أولاً) لماذا تاخرت الوحدة الألمانية :

لم تشهد ألمانيا حتى القرن التاسع عشر ظهور الدولة المركزية الموحدة كما حدث بالنسبة لإنجلترا وفرنسا وأسبانيا فى أوائل العصور الحديثة. فعلى الرغم من خضوع معظم أجزائها للإمبراطورية الرومانية المقدسة التى تتوارثها أسرة الهابسبرج ومقرها فينا، فإن هذه الإمبراطورية لم تكن دولة قومية، بل فدرالا (اتحادا) فضفاضا كان يضم فى القرن الثامن عشر ١٨٠٠ وحدة سياسية ذات طابع إقطاعى.

فطبقا لما أورده باسانت Bassant فى كتابه «موجز تاريخ ألمانيا من ١٨١٥ ـ ١٩٤٥م»، فإن هذه الوحدات السياسية كانت تضم ٧٧ إمارة علمانية و ٥١ مدينة حرة و ٤٥ قرية حرة و ١٤٧٥ وحدة يحكمها فرسان امبراطوريون لا يخضعون لأحد إلا للإمبراطور ويحكمون مائتى ميل مربع. وكان حكام هذه الوحدات السياسية يتراوحون بين ملوك ودوقات ومركيزات وكونتات وبطاركة وأساقفة وفرسان أحرار.

وكان الأمراء يحكمون دولا أجنبية بجانب أراضيهم الألمانية، وحتى الإمارات الصغيرة كانت تدعى أنها أمم منفصلة، كما فعلت كالنبرج سنة ١٧٩٤م، التى طلب مجلس الدايت فيها من حاكمها الملك جورج الثالث ملك بريطانيا أن يعلن حياد «أمة كالنبرج» فى الحرب ضد فرنسا، وكان جيش كالنبرج لا يتجاوز ٢٢ من الفرسان و ١٤٠ من المشاة!

وهذه الحقيقة التاريخية تدفع إلى بحث أسبابها.

فيقول «سابابن Sabine» إن السبب فى تأخر الوحدة الألمانية وتفتت ألمانيا يرجع إلى ضعف الامبراطورية الرومانية المقدسة التى لم تسطع أن تتحول إلى دولة موحدة فى ألمانيا.

ويذكر «باسانت» أن السبب فى عدم تحول الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى دولة قومية هو احترامها لسيادة الوحدات السياسية فيها، التى كان لها الحق فى عقد معاهدات مع الدول الأجنبية، وبذلك قضت على الأساس الذى تقوم عليه السلطة المركزية.

وفى الواقع أن الامبراطورية الرومانية المقدسة لم تكن تعتبر نفسها ممثلة لأمة واحدة، فقد كانت مثل الدولة العثمانية تشمل جنسيات مختلفة. فضلا عن أنها لم تكن تظلل ألمانيا كلها، فإن بعض الممالك الألمانية المهمة، مثل بروسيا، كان يقع جزء منها داخل الإمبراطورية وجزء آخر خارجها، وذلك حسب ظروف الوراثة والضم التى مرت بها المملكة.

ذلك أن الدويلات فى ألمانيا قد تشكلت حسب الأوضاع الأسرية للملوك والأمراء. فقد كانت تتسع أحيانا نتيجة الارتباط بالزواج، أو تتقلص نتيجة الحروب.

ويتفق الرأى على أن حركة الإصلاح الدينى كان لها تأثير حاسم فى تأخر وحدة ألمانيا. ذلك أن هذه الحركة، التى صاحبها تدمير الامتيازات الإقطاعية ودعم الدولة المركزية فى كل من فرنسا وإنجلترا، قد أدت فى ألمانيا إلى العكس، وهو تدعيم الامتيازات الإقليمية بحيث أصبحت الوحدات الإقطاعية تتمتع بنفس الحقوق التى للدول الكبرى الجديدة من الناحية النظرية على الأقل.

ويقول فيجيس Figgis إن الاختلافات الدينية العميقة بين أجزاء الإمبراطورية الرومانية قد ساعدت على استمرار تفتتها، وأدت مع الوقت إلى تحول الأمراء إلى حكام سياديين. ويعتبر صلح «أوجزبرج» سنة ١٥٥٥م، الذى سمح لكل حاكم بأن يختار الكاثوليكية أو البروتستانتية مذهبا لإقليمه، عاملا قويا فى تأكيد التمزق، ثم حرب الثلاثين عاما من ١٦١٨م إلى معاهدة وستفاليا ١٦٤٨م، والتى كانت ألمانيا بصفة خاصة هى مسرحها، فأصابت ألمانيا بالدمار الشامل وكان لها أثر مميت على وحدة ألمانيا.

يضاف إلى هذا السبب سبب آخر هو العداء الشديد المتأصل بين طبقات الشعب الألمانى، ووجود هوة واسعة تفصل بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا.

فقد تميزت الأرستقراطية الألمانية بعزلتها واحتقارها الشديد لعامة الشعب، مما أدى إلى تميز المجتمع الألمانى بالانقسام الشديد، حتى بعد ظهور الطبقة المتوسطة فى معظم المدن الألمانية الكبرى. وإن كانت الحركة القومية الألمانية ستشهد تقاربا بين الطبقة الحاكمة القديمة «اليونكرز» وجماهير الشعب الألمانى على حساب الطبقة المتوسطة..

فضلا عن ذلك فإن أحد جوانب أفكار حركة الاستنارة التى ظهرت فى القرن الثامن عشر هو جانب العالمية، وقد كان لهذا الجانب تأثير بالغ فى معظم مفكرى ألمانيا، الذين اتجهوا إلى استنكار القومية والمشاعر المحلية عموما.

ويقول هيرتز Herts إن الكتاب والمفكرين الألمان قد تبرءوا من وصمة القومية السياسية. وأورد على لسان ليسينج Lessing قوله: «إن حب الوطن ليس سوى ضعف بطولى، يسرنى أننى لم أصب به». كما أورد على لسان شيللر Schiller قوله: إن «واجب الفليسوف الشاعر ألا ينتمى إلى أى شعب». وعن جوته قوله إن العداوات القومية تشتد بين الطبقات الدنيا وتختفى عند المستوى الأعلى من الثقافة. وكان هردر أكثر صراحة فى ذلك، فقد أعلن أنه من الأفضل أن تكون ألمانيا مقسمة، لأن ذلك يتيح لكل إقليم إبراز خصائصه.

(ثانياً) عوامل نمو القومية الألمانية :

على أنه رغم هذه العوامل المسئولة عن تأخر مشاعر القومية الألمانية، فإن هذه المشاعر القومية قد توافرت لها وقتذاك ظروف أخرى ساعدت على نموها.

فعلى الرغم من أن التطرف غير العادى فى المشاعر المحلية قد سبب تأخر الوحدة القومية، فإنه كان له أيضا جوانبه الطيبة، فقد أدى إلى تنافس الملوك والنبلاء والحكام فى إنشاء جميع أنواع المؤسسات الثقافية. وكان من يُضطهدون بسبب دينهم أو آرائهم فى ولاية، يجدون ملجأ فى ولاية أخرى قريبة تكون أكثر تسامحا، مما أدى إلى شعور مواطن المقاطعة الصغيرة بأنه من السهل أن يصير مواطنا على نطاق اوسع من نطاق المقاطعة الصغيرة أو الولاية الصغيرة.

فضلا عن ذلك، فعلى الرغم من تجاهل الحركة الفكرية والأدبية الألمانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر لكل صور المشاعر القومية، فإنها مع ذلك أسهمت بشكل حاسم فى خلق القومية الثقافية الألمانية التى كانت خطوة مهمة فى تطور الدولة القومية الحديثة.

ويتفق المؤرخون على الدور الكبير للثورة الفرنسية ونابليون فى نمو القومية الألمانية، ويمكن تحديد الجوانب الآتية التى أثرت منها الثورة الفرنسية فى نمو القومية الألمانية:

وأولها، رد الفعل القومى ضد الحكم الفرنسى. فعندما قامت الثورة الفرنسية لم تكن المشاعر القومية الألمانية قد تبلورت بعد كما رأينا، وقد استقبل المفكرون الألمان، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم مواطنين عالميين أفكار مبادئ الثورة الفرنسية فى الحرية والإخاء والمساواة، باعتبارها فجراً جديداً للبشرية. ولم يقتصر الأمر على صفوة المثقفين، بل شمل فئات مختلفة من السياسيين والأرستقراطية العليا والجيش. ولكن عندما اجتاحت جيوش نابليون ألمانيا، وأطاحت بحكوماتها، وأساء الفرنسيون معاملة الألمان عموما، أخذت المشاعر القومية تنمو مصطحبة بكراهية لفرنسا وثورتها ومبادئها.

وفى الحقيقة أن سياسة نابليون كان من شأنها أن تولد النزعة القومية من وجهين:

الوجه الأول، إرغام الشعوب الخاضعة على تطبيق القوانين والإدارة الفرنسية واستخدام اللغة الفرنسية، لغة رسمية إلى جانب لغاتها الخاصة، وتغيير دساتيرها وقوانينها وحكامها بصورة تحكمية تخضع لإرادة الإمبراطور، وكذلك فتح أسواقها للمنتجات الفرنسية دون قيود، فى حين كانت منتجاتها ممنوعة من دخول فرنسا إلا بتعريفة جمركية مرتفعة، فضلا عن أن جميع البلاد التى ضمت والتابعة كانت مرغمة على تقديم إسهامات ضخمة، وأن تضع تحت تصرف الإمبراطور نابليون فرقا كبيرة من الجند

لاستخدامها فى الغزوات تخفيفا لأعباء الحرب عن كاهل الشعب الفرنسى، مما أدى إلى نمو الروح القومية المعادية لفرنسا وتحولها إلى موجة عاتية أغرقت العالم.

ومن ناحية أخرى، فقد كان لتطبيق القوانين الفرنسية المصطبغة بفكرة المساواة فى الثورة الفرنسية أثر مهم آخر، وإن كان بشكل غير مباشر، فى إزالة العوائق الداخلية التى كانت تعرقل الشعور القومى فى البلاد المفتوحة، مثل: إلغاء الامتيازات الطبقية، ونظام القنانة، وبقايا القيود الإقطاعية، وتحقيق المساواة الدينية، وإزالة العوائق التجارية، وتحسين المواصلات. كما أخمدت هذه القوانين كل الأنظمة التى تحد من السلطة المطلقة، مثل المجالس الإقليمية «الدايت»، كما أخمدت الحكم الذاتى للمدن والاستقلال الكنسى وروح الحرية فى البحث والتربية والأدب والصحافة فى كل مكان ظهرت فيه.

ومعنى هذا الكلام أن سياسة نابليون فى الوقت الذى كانت تساعد على الوحدة القومية داخل البلاد المفتوحة، فإنها كانت توجه هذه المشاعر للقومية توجيها عدائيا نحو الإمبراطورية الفرنسية..

وبالنسبة لألمانيا فمن المعروف أن نابليون قد تمكن من إخضاع مناطق شاسعة فى ألمانيا، كما أذل أكبر دولتين ألمانيتين وهما بروسيا والنمسا، وأدى إستخدام الآلاف من الألمان فى الفتوحات، وضرب الألمان بعضهم ببعض فى المعارك ضد بروسيا والنمسا،

إلى لفت نظر الشعب الألمانى إلى طبيعة الحكم النابليونى الأجنبى، فساد شعور الكراهية نحو الفرنسيين مما أفاد الحركة القومية الألمانية..

وفى نفس الوقت فإن عمليات الإدماج الهائلة للدويلات الألمانية التى تمت فى عهد الثورة الفرنسية وحكم نابليون قد خدمت الوحدة القومية الألمانية، فقد أزال نابليون الإمبراطورية الرومانية المقدسة سنة ١٨٠٦م، وأجرى عملية إدماجات كبيرة فى ألمانيا الغربية، حيث كانت توجد أكثر المناطق تجزئة وانقساما بوجود دول بارونات الإمبراطورية والإمارات الكنسية، ونتيجة هذه التغيرات الاندماجية تناقص عدد الدول الألمانية إلى ٨٠ تقريبا بعد أن كان يبلغ ٢٤٨.

كذلك فقد انتزع نابليون من النمسا معظم ممتلكاتها الشخصية فى ألمانيا، التى كانت موزعة فى نقاط صغيرة فى الإمبراطورية، مثل مدن الحدود الرينانية، وعدد من الأملاك الصغيرة فى منطقة الغابة السوداء، فضلا عن عديد من المدن الصغرى الأخرى.

وبذلك خرجت النمسا من ألمانيا، واستحالت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى إمبراطورية النمسا وحدها، وبدأت النمسا تبتعد عن ألمانيا وتجعل لنفسها حياة خاصة منذ مؤتمر فينا.

كذلك أبعد نابليون السويد عن ألمانيا بعد أن كانت تملك فيها بوميرانيا Pomerania (على البلطيق) وأقصيت العناصر الأجنبية.

وفى أواخر عهد الإمبراطورية هبط عدد الدويلات الألمانية من ٨٠ إلى ٣٨ فقط. وقد كانت هذه خطوة ضخمة ومهمة، لأن ألمانيا لم تعد إلى تجزئتها بعد ذلك، ولم تعد فيها دول كنسية ومدن حرة، حتى لم يبق فى ألمانيا النابليونية سوى ثلاث دويلات صغيرة يبلغ عدد سكانها ٥٠٠٠ نسمة بفضل أسباب شخصية.

وقد بدأ نابليون بأن أنشأ أولا «الاتحاد الرينانى» فى ١٢ يوليو ١٨٠٦م، ليحل محل الإمبراطورية المقدسة. وكان يضم ١٦ أميرا من ألمانيا الغربية والجنوبية، ثم وسع هذا الاتحاد فى السنوات التالية بحيث شمل ٣٧ عضوا، أى مايقارب جميع الدول الألمانية عدا بروسيا والنمسا.

وقد جعل نابليون لهذا الاتحاد دستورا يحدد حقوق الدول الأعضاء وواجباتها، ومجلسا استشاريا أعلى يعرف باسم «الدايت»، وأعلن نابليون نفسه حاميا لهذا الاتحاد.

وليس ثمة شك فى أن هذه التغيرات الاندماجية قد هدمت الروابط التى تقوم عليها خصائص كل دويلة من الدويلات. وقضت على التقاليد التى يمكن أن تتأسس عليها مشاعر قومية محلية، فضلا عن أن انتزاع قسم ضخم من الطبقة النبيلة الألمانية من بارونات وفرسان الإمبراطورية المقدسة التابعين للإمبراطور، من أراضيهم الخاصة، قد حرمهم من قوميتهم المحلية، ولم تعد ثمة قومية يمكن أم ينتموا إليها سوى القومية الألمانية.

وفى هذه الظروف غير المفكرون الألمان آراءهم بالنسبة للفكرة العالمية التى سيطرت عليهم، فقد خرج فيخته Fichte

(١٧٦٢ ـ ١٨١٤م) بآراء جديدة أخرجت الفكرة القومية الألمانية من غموضها السابق، وحاول التوفيق بينها وبين الفكرة القومية. فقد رأى أن الثقافة الفرنسية قد استنفدت أغراضها بعد أن بلغت أرقى مراحلها، وحان الوقت ليواصل الشعب الألمانى هذه المهمة. وقد وصف «الألمان» بأنهم «جميع المتحدثين بهذه اللغة».

أما جيته Goethe (١٧٤٩ – ١٨٣٢م) وشيلر Shiller (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥م) فقد يئسا من فكرة العالمية، فقد عاد شيلر ينادى بأن لكل شعب عبقريته الخاصة فى فهم الحرية والمساواة، وللشعب الألمانى بحكم ثقافته وعبقريته المختلفة أن يشكل آراءه الخاصة فى الحرية والمساواة..

أما شتاين Stein (١٧٥٧ ـ ١٨٣١م) المصلح الكبير البروسى، الذى نظم الخدمة العسكرية الإجبارية، وابتدع نظام الخدمة القصيرة، فقد كانت فكرته تمثل فكرة الوحدة القومية الألمانية فى مفهومها الأسمى. وكان فى ذلك متقدما كثيرا عن الآخرين فى وجهة نظره هذه، ومتقدما عن الرأى العام الذى بقى غير مبال بفكرة القومية!

(ثالثاً) حركة القومية الألمانية من مؤتمر فيينا إلى ١٨٤٨م

بانهيار حكم نابليون فى أوروبا وانعقاد موتمر فيينا سنة ١٨١٤ ـ ١٨١٥م، بدأ عهد جديد فى أوروبا عرف باسم العهد الرجعى، ساد فيه رد فعل الحكومات ضد الحركات التحررية

والقومية. وقد ذكرنا كيف تجاهل مؤتمر فيينا مبدأ القوميات وأخذ بقاعدة التعويض، وكيف أن تعويضات النمسا كانت معظمها فى إيطاليا، فى حين حصلت بروسيا على تعويضاتها فى ألمانيا، فقد ضمت إليها النصف الشمالى من سكسونيا، وكذلك عددا من الإمارات والمقاطعات عند نهر الراين، وبذلك تهيأ السبيل لزعامة بروسيا لحركة الوحدة الألمانية، وزاد ابتعاد النمسا عن هذه الزعامة.

وكنا قد رأينا كيف أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت تشمل أجزاء كبيرة من ألمانيا ومن النمسا معا، وبالتالى فإن كلتا الدولتين كان لها الحق فى التحدث باسم الوطن الألمانى.

وهذا ما نشاهده فى أثناء حرب السنوات السبع (١٧٥٦ ـ ١٧٦٣م) ففى النزاع الذى قام بين فردريك الثانى ملك بروسيا والإمبراطورة ماريا تريزا Maria Theresa ـ إمبراطورة النمسا، حول اقليم سيليزيا ـ كان كل من العاهلين يتحدث باسم مصلحة «الوطن الألمانى»!

فقد كان فردريك الأكبر يطالب بسيليزيا ليضمها إلى الوطن الألمانى، في حين كانت إمبراطورة النمسا ترى أن ضم النمسا لسيليزيا هو أدعى للمحافظة على الوطن الألمانى من فردريك وحلفائه الفرنسيين الذين ساعدوه على انتزاع سيليزيا.

وفى سنة ١٧٦٩م تباحث فردريك والإمبراطورة حول تحالفهما لحماية الوطن الألمانى. وعندما انفرد فردريك بتأليف «عصبة

الأمراء» سنة ١٧٨٥م ضد جوزيف الثانى إمبراطور النمسا، كان يتذرع بالدفاع عن «الحريات الألمانية».

على أن تسوية فيينا سنة ١٨١٥م بتعويض النمسا فى إيطاليا، وتعويض بروسيا فى ألمانيا، قد دفعت ببروسيا إلى مركز الصدارة فى حركة القومية الألمانية.

وأصل دولة بروسيا هو مقاطعة براندنبورج Brandenburg التى كانت تنحصر بين نهرى الموز Meuse والإلب Elbe. ففى القرن الخامس عشر ظهر على هذه المقاطعة بيت هوهنزولرن Ho-henzollern الذى اتخذ من براندنبرج قاعدة لتوسعه، حتى أصبح يحكم ألمانيا بأسرها.

وفى أثناء القرن السادس عشر لم يقدر لحكام براندنبورج أن يلعبوا دورا مهما فى مجرى الحياة الأوروبية، ولكن فى بداية القرن السابع عشر استطاع ناخب براندنبورج جون سيجيسموند Si-gismund أن يوسع أملاكه فى الدوقيات المطلة على الراين، وهى كليفز Cleves ومارك Mark وريفنزبرج Ravensberg.

وفى سنة ١٦١٨م توفى دوق بروسيا، وهو أحد أقربائه، فاستولى على دوقية بروسيا، وبذلك أصبحت أملاكه تمتد فى غرب ألمانيا على نهر الراين الأدنى وقطاع على البلطيق فيما وراء الفستولا.

وفى نفس العام (١٦١٨م) نشبت حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ ـ ١٦٤٨م) وأصبحت براندنبورج وبروسيا نهبا لجيوش الدول الرئيسية المتحاربة، وهى السويد والنمسا.

ولكن باعتلاء فردريك وليم Frederick William سنة ١٦٤٠م، الذى يعتبر أحد ساسة القرن السابع عشر العظماء، العرش تحول الموقف لصالح بلاده. فقد تركزت سياسته على الانسحاب من الصراع الأوروبى تدريجيا، والتركيز على سياسة الحياد، وإنشاء جيش قوى.

ونتج عن ذلك أنه حين عقد صلح وستفاليا Westphalia المشهور سنة ١٦٤٨م، كان فى وضع يسمح له بالحصول على قدر كبير من الغنائم، إذ حصل على أربع أسقفيات مدنية ألمانية، إلى جانب الجزء الشرقى من دوقية بوميرانيا على البلطيق، فأصبحت دولته تتكون من ثلاث مقاطعات هى : براندنبورج فى الوسط، ودوقية بروسيا بعيدا جهة الشرق، وفى الغرب فى جهة الراين تقع الدوقيات الصغيرة: كيلفز Cleves ورافنزبورج Ravensburg.

وقد استعان فردريك بالنموذج الفرنسى فى عهد ريشيلو ومازازان ولويس الرابع عشر، فى إحلال الملكية المطلقة محل الملكية الإقطاعية، عن طريق إدماج المقاطعات الرئيسية الثلاث السالفة الذكر فى وحدة لها جيش عام وإدارة مدنية عامة. وأسس جيشا عظيما جيد التدريب والإعداد.

وعند وفاته كانت بروسيا قد أصبحت بفضل إصلاحاته دولة، لاينقصها إلا أن تصبح ملكية. وهذا هو ما حصل فى عهد ابنه فردريك الثالث الذى أقنع الإمبراطور ليوبولد Leopold I إمبراطور

النمسا، بتلقيبه ملكا، وتوج فى ١٨ يناير سنة ١٧٠١م ملكا، وأصبح يحكم تحت اسم الملك فردريك الأول فى بروسيا.

وفى عهد ابنه الملك فردريك وليم الأول (١٧١٣ ـ ١٧٤٠م) استطاع بفضل توجيه عنايته لتنظيم الجيش والإدارة، الإرتفاع ببروسيا الدولة الصغيرة إلى صفوف الدول الأوروبية الكبرى من الناحية العسكرية.

على أن وجود دولتين ألمانيتين قويتين هما: بروسيا والنمسا، لم يلبث أن أدى إلى نشوب الصراع بينهما على زعامة ألمانيا.

فقد انتهز فردريك الأكبر ملك بروسيا النزاع على العرش الإمبراطورى بين ماريا تيريزا ودوق بافاريا ـ وكانت لفردريك ادعاءات فى سيليزيا كما ذكرنا ـ فهاجم سيليزيا ليحصل عليها بالقوة واستولى عليها ١٧٤٠ - ١٧٤٢م.

وانتهزت فرنسا وأسبانيا وبافاريا وسكسونيا فرصة هجوم فردريك وكونت حلفا ضد النمسا، ثم وقعت مارياتريزا الصلح مع فردريك على أساس الاعتراف له باحتلال سيليزيا.

ولكن ما كادت تنتهى حروب الوراثة الأسبانية War of Austrian Succession (١٧٤٠ ـ ١٧٤٨م) بمعاهدة إكس لاشابل Aix - La - Chapelle سنة ١٧٤٨م، التى اعترفت بمارياتيريزا الوارثة الوحيدة لأبيها الإمبراطور شارل السادس، حتى أدركت مارياتيريزا أن

العدو الاساسى للنمسا ليس هو فرنسا بل بروسيا، ومن ثم اتجهت إلى التحالف لأول مرة مع فرنسا عدوتها اللدودة، وهو ما اعتبره المعاصرون «ثورة دبلوماسية»، وعقدت حلفا ضد بروسيا مكونا من فرنسا وروسيا والسويد وسكسونيا.

وقد تمخض عن هذه الثورة الدبلوماسية حرب السبع سنوات (١٧٥٦ ـ ١٧٦٣م) التى كادت تقضى على بروسيا، لولا انسحاب روسيا وفرنسا من الحلف، فاضطرت ماريا إلى عقد الصلح سنة ١٧٦٣م، وهو الذى عرف باسم صلح «هوبيرتسبورج» Hubertsburg واعترفت ماريا لفردريك بسيليزيا. ولم تكد تمضى عشر سنوات حتى تمكن فردريك عند تقسيم بولنده ١٧٧٢م من الحصول على بروسيا الغربية عدا دانزج.

وعلى هذا النحو، وقبل الثورة الفرنسية، كانت زعامة ألمانيا لا تزال بعيدة عن الاستقرار فى يد أى من النمسا أو بروسيا.

ثم كانت فترة الثورة الفرنسية وإمبراطورية نابليون، فشغلت الدولتان بالصراع ضد نابليون. ولكن حين استؤنف الصراع بعد مؤتمر فيينا كانت أوضاع الدولتين قد تغيرت.

فمن جانب، فإن حصول بروسيا على بعض الأقاليم الواقعة على نهر الراين قد جعل حق الدفاع عن ألمانيا مرتبطا ببروسيا، فارتفع شأنها تدريجيا، وانتقلت إليها تدريجيا الزعامة فى ألمانيا بعد أن أصبحت قبلة الدويلات والإمارات الصغرى التى تطلعت

إليها فى الدفاع عنها. فضلا عن ذلك فإن إعطاء بروسيا أقاليم متفرقة فى ألمانيا قد جعل بروسيا مرغمة على العمل من أجل ربط هذه الأقاليم ببعضها البعض، فكان ذلك بداية السياسة التى أفضت إلى قيام الاتحاد الألمانى فى ١٨٧٠ ـ ١٨٧١م.

ومن الجانب الآخر، فقد أقر المؤتمر وضع «الدايت» الألمانى على ما هو عليه، وهو المجلس الاستشارى الذى يمثل فيه جميع الأمراء الذين يسلمون بزعامة الإمبراطورية الرومانية المقدسة القديمة، وكان بعضهم قبل سنة ١٨٠٦م له حق انتخاب الإمبراطور من أسرة هابسبرج.

وقد انتهى نظام الإنتخاب بمقتضى الدستور الإتحادى الذى وضعته تسوية فيينا، فصار الاتحاد الكونفدرالى الألمانى يتألف من أربع وثلاثين إمارة، زادت واحدة فصارت خمسا وثلاثين فى سنة ١٨١٦م. فبقى «الدايت» بذلك رمزا على حقوق الملوك الموروثة فى الامبراطورية بصرف النظر عن جنسياتهم، إذ كان يمثل فيه ملوك أجانب مثل ملك إنجلترا بحكم إمتلاكه هانوفر، وملك الدينمارك بحكم امتلاكه مقاطعتى شليزفيج Schleswing وهولشتاين Holstein.

على أنه عندما أعطيت رياسة الاتحاد إلى النمسا، تمكنت من السيطرة على الدويلات الألمانية الصغيرة، وترتب على ازدياد هذا النفوذ، فى الوقت الذى كانت النمسا فى عهد مترنيخ تقود السياسة الأوروبية، أن تعطل اتحاد ألمانيا مدة خمسين عاما تقريباً.

وعلى هذا النحو، ففى الوقت الذى هيأ فيه مؤتمر فيينا لبروسيا الفرصة لتتزعم حركة الوحدة الألمانية، فإنه من جانب آخر قيد هذه الفرصة بالنفوذ النمسوى بالشكل السالف ذكره.

وبطبيعة الحال فلم يكن ذلك ليوقف حركة الوحدة الألمانية، وإنما أخرها فقط ـ كما ذكرنا ـ نصف قرن. فعلى الرغم من نظام بروسيا الرجعى، إلا انها كانت الدولة التى اتخذت أول إجراء عملى فى سبيل وحدة ألمانيا.

ففى ذلك الحين، كانت كل ولاية فى ألمانيا تستقل بفرض الضرائب والرسوم الجمركية على الواردات التى تخترق حدودها، فرأت بروسيا أن تمحو تلك الحواجز الجمركية، وإقامة وحدة جمركية فى الأراضى البروسية ذاتها، وأصدرت بذلك قانونا فى مايو ١٨١٨م.

غير أنه وجدت فى داخل الأراضى البروسية ٢٧ منطقة تابعة لاثنتى عشرة دولة ألمانية خارجية، وكانت كل منطقة من هذه المناطق محاطة بالجمارك البروسية.

ومن جهة أخرى، كان النظام الضريبى يتضمن تعريفات ترانزيت على البضائع الخارجية التى تجتاز الأراضى البروسية، وكانت هذه الرسوم مصدر إيراد كبير للحكومة البروسية، ووسيلة ضغط بيدها على الدويلات المجاورة.

فلما وضعت بروسيا تعريفة الترانزيت الموحدة لأقاليمها، صرخت الدول التى أضيرت بها، واحتجت على الحكومة البروسية فى مؤتمرى كارلسباد Karlsbad وفيينا. ولم تجد المناطق المحاطة بالأقسام البروسية بدا من الدخول فى مفاوضات مع الحكومة البروسية للدخول فى التعريفة الجمركية البروسية.

فلما دخل الوزير فون موتز وزارة المالية فى ١٨٢٥م، إهتم بإدخال المناطق التى مازالت تقاوم بعد فى التعريفة البروسية، وتكللت جهوده فى هذا السبيل بالنجاح، بالمعاهدة التى وقعتها بروسيا مع دوقية هس ـ دارمشتات Hesse - Darmstadt الكبرى، وانضمت بمقتضاها الأخيرة إلى النظام الجمركى البروسى. وكان قانون الجمارك البروسى لعام ١٨١٨م أساسا للتعريفة الجمركية فى الدولتين. وهكذا فإن ما كان تعريفة جمركية بروسية، أصبح اتحادا جمركيا (زولفراين Zollverein).

وقد اصطدمت بروسيا بمعارضة من الداخل والخارج. فمن الداخل تألف اتحاد جمركى بين بافاريا وفرتمبورج فى الجنوب فى يناير ١٨٢٨م. كما تألف اتحاد جمركى ثالث فى الوسط ضم ١٧ دولة ووقع فى فرانكفورت، وكانت الدول المهمة فيه هانوفر وساكسونيا Saxony، وهس ـ كاسل Hesse - Kassel. ومن الخارج حرضت إنجلترا والنمسا على مقاومة الإجراءات البروسية، الأولى لتعارض مصالحها الإقتصادية مع الاتحاد الجمركى، والثانية خوفا من زيادة قوة بروسيا فى ألمانيا.

على أن بروسيا تغلبت على اتحاد الجنوب، وعقدت معه معاهدة في ١٨٣٣م دخلت بموجبها بافاريا وفرتمبرج في اتحاد جمركي مع الزولفراين. ثم دخلت ساكسونيا، وبادن Baden، وهس Hesse، وناساو Nassau وفرانكفورت. ومن قبل دخلت هس - كاسل في الاتحاد الجمركي مقيمة بذلك رابطة بين جزأى الدولة البروسية. وفي عام ١٨٣٦م كان الاتحاد يضم ٢٥ دولة تؤلف فريقا جمركيا موحدا، وفي سنة ١٨٤٤م كان الاتحاد يضم من الناحية العملية جميع ألمانيا، فيما عدا النمسا الألمانية، وهانوفر Hanover، وأولدنبورج Oldenburg وميكلينبورج Mecklenburg والمدن الهانسية Hansa الثلاث.

ويتضح من ذلك أن الزولفراين لم يبدأ كعمل سياسي كما يعتقد البعض، وإنما بدأ كعمل مالي ضريبي، ولم يكن من عمل سياسيين قوميين وانما من عمل إداريين اقتصاديين بروسيين.

ولكن إقامة اتحاد اقتصادي وثيق يضم الغالبية العظمى من دول الاتحاد الكونفدرالي الألماني، تحت زعامة بروسيا، كان نصرا سياسيا لاشك فيه على النمسا، وكانت هذه الوحدة الاقتصادية خطوة مهمة نحو الوحدة السياسية والعسكرية لألمانيا، خصوصا بعد أن تدعم نظام الزولفراين نتيجة مد خطوط السكك الحديدية، وصدرت باسمه مجلة خاصة كانت لسان حاله، وتفرغ المفكر الاقتصادي فردريك ليست لتحرير هذه المجلة، وفي رأيه أن العامل الاقتصادي من أقوى الدعائم لتكوين الأمة.

(رابعاً) حركة الوحدة الألمانية ١٨٤٨ - ١٨٥٠م :

على كل حال فلم تلبث حركة الوحدة الألمانية أن دخلت مرحلة سياسية جديدة بثورات ١٨٤٨م - التى أشعلتها الثورة الجماهيرية التى انطلقت فى باريس فى ٢٤ فبراير ١٨٤٨م. فقد سقط مترنيخ فى فيينا يوم ١٣ مارس ١٨٤٨م، وانتشرت الثورات الدستورية والقومية فى كل مكان.

وكان اتجاه الحركات الثورية فى ألمانيا إلى إلغاء القوانين الاستثنائية ومشاركة الشعب فى الحكم، وإصلاح الإتحاد الكونفدرالى الإلمانى بشكل يؤدى إلى الوحدة الألمانية. وقد تحقق المطلبان الأولان حين أصدر «الدايت» قرارا بإلغاء القوانين الإستثنائية، وقررت أكثر الدويلات الألمانية تطبيق المبادئ الدستورية..

أما بالنسبة لإصلاح الاتحاد الكونفدرالى، فقد كان الشعور قبل حركة ١٨٤٨م عاما بضرورة هذا الاصلاح، وأخذت المؤتمرات الألمانية تطالب بتشكيل برلمان ألمانى، وصيبوت فى يوليو ١٨٤٧م فى كولونيا جريدة ألمانية تحت اسم «الصحيفة الألمانية»، للدعوة إلى هذه الحركة الثورية.

وقد رأى فردريك وليم الرابع الاستجابة إلى هذه الحركة، لتوجيه الأفكار إلى الوحدة القومية وصرفها عن القضايا الليبرالية، فاقترح على مترنيخ فى نوفمبر ١٨٤٧م مشروعا لإصلاح الاتحاد

الكونفدرالى، تتاول فيه إعادة تنظيم الدايت بشكل تتخذ فيه القرارات بتصويت الأكثرية (بدلا من الإجماع)، وإنشاء محكمة اتحادية، ووحدة التشريع الاقتصادى، وإصلاح الجيش الاتحادى.

فلما انتشرت الثورات فى ألمانيا فى أعقاب ثورة باريس ١٨٤٨م، اجتمع سبعة من زعماء الأحرار فى هايدلبرج Heidelberg واتفقوا على عقد مجلس قومى، ودعوا كل من اشترك فى مجالس ألمانيا السياسية إلى حضور هذا المجلس.

وقد انعقد هذا المجلس التحضيرى من ٦٠ عضوا فى فرانكفورت، وسن قانونا انتخابيا انتخب على أساسة أول مجلس نواب جديد على مستوى قومى. وفى ١٨ مايو ١٨٤٨م انعقد هذا البرلمان الجديد فى فرانكفورت.

وكانت تلك هى المرة الأولى التى يتخطى فيها الشعب الملوك والأمراء، وينعقد مجلس نواب منتخب من الأهالى على هذا المستوى القومى.

وقد وصف المجلس نفسه فى ٢٧ مايو ١٨٤٨م بأنه «هيئة إرادة الأمة الألمانية وانتخابها لتأسيس وحدة ألمانيا وحريتها السياسية»، ووافق على اقتراح بأن يقوم المجلس بنفسه بتشكيل حكومة لجميع ألمانيا، أسند رئاستها إلى الأرشيدوق يوحنا John النمسوى، نائب الإمبراطورية، كما قرر تشكيل جيش قومى باقتطاع ٢٪ من الجيوش المحلية، وصوت على إنشاء أسطول بسبب تفوق الأسطول الدنماركى على البروسيين فى البلطيق.

كذلك فقد تبنى برلمان فرانكفورت النظرية التاريخية واللغوية فى القومية، وأراد أن يضم إلى ألمانيا جميع البلاد الناطقة بالألمانية. فرحب بالقرار البروسى الذى يفصل المناطق الناطقة بالألمانية من بروسيا البولندية. وطلب إلى حكومة الأراضى المنخفضة حذف الدستور الهولندى فى ليمبرج Lemberg ولوكسمبورج باعتبارهما ألمانيتين، وطالب بالتيرول Tyrol والكانتونات Cantons السويسرية الشرقية. وطالب البعض بالألزاس Alsace باسم اللغة. كما تحمس للمطالبة بشلزڤيج وهولشتاين من الدنمارك.

وقد أثارت هذه النزعة عداء الرأى العام الأوروبى ضد البرلمان، بسبب هذه النزعات التوسعية.

ثم أخذ البرلمان فى مباشرة عمله الأساسى وهو إعداد دستور الإمبراطورية. واتخذ فى أكتوبر ١٩٤٨م مبدأين أساسيين:

أولهما، أنه لا يمكن لأى جزء من ألمانيا أن يتحد مع بلاد غير ألمانية فى دولة واحدة.

ثانياً، أنه إذا كان لبلد ألمانى ولبلاد غير ألمانية سيد واحد، فإن علاقاتها لا تكون إلا اتحادا شخصيا.

وقد انقسم الرأى بخصوص ما إذا كانت النمسا تدخل فى الاتحاد الألمانى أم تخرج بولاياتها المختلفة من ذلك الاتحاد. ففى ١٨٤٩م تأسس فريق يسمى «الألمان الكبار»، من رأيه أنه يجب على

ألمانيا احتواء النمسا، وأن يتبادل إمبراطور النمسا وملك بروسيارئاسة الاتحاد كل ثلاثة أعوام.

ولكن تألف فى مواجهة هذا الفريق فريق آخر يسمى «الألمان الصغار»، يرى تأليف دولة ألمانية خاصة دون النمسا، على أن تكون فى شكل إمبراطورية وراثية.

وقد تغلب الرأى الثاني بعد أن أصرت النمسا على أن تدخل بكامل أقاليمها، سواء منها الأقاليم الألمانية والأقاليم غير الألمانية فى الاتحاد، مما كان يعنى تجاهل المبدأ القومى، وسيطرة النمسا على ألمانيا.

فاتجه البرلمان نحو بروسيا، وأصدر فى ٢٧ مارس ١٨٤٩م دستورا ينص على الآتى:

تشكل الدول الألمانية، فيما عدا النمسا، إمبراطورية اتحادية، تحافظ فيها كل دولة على سيادتها فى بعض القضايا، وتمثل الحكومة الإمبراطورية ألمانيا تمثيلا دبلوماسيا فى الخارج، وتوجه السياسة الخارجية، وتنظم الجيش، وتتولى السلطة التشريعية والسلطة الاقتصادية العامة، ويعهد بهذه الحكومة إلى إمبراطور وراثى دستورى له القيادة العليا للجيوش. ويتألف البرلمان (الرايخستاج Reichtag) من مجلسين: مجلس الدول، ومجلس الممثلين. وفى ٢٨ مارس جرى انتخاب الإمبراطور فردريك وليم الرابع إمبراطوراً للاتحاد.

وعلى هذا النحو كان دستور برلمان فرانكفورت ثورة تاريخية كبرى، لأنه وحد ألمانيا فى إمبراطورية برلمانية، كما طرد النمسا من ألمانيا. وكان الوقت مناسبا للإمبراطور فردريك وليم الرابع لترؤس ألمانيا، وقبول التاج الإمبراطورى، ولكن فردريك وليم رفض هذه الفرصة لسببين :

السبب الأول : أن التاج المعروض عليه إنما هو معروض من مجلس شعبى لا من مجلس أمراء، وبالتالى فهو «تاج غير مشرف»! وقد كتب يقول: «لا أملك أن أقول نعم، ولا أملك أن أقول لا، لأنه ليس لديكم شئ تقدمونه إلىّ. إن هذه المسألة مما تحتاج إلى تسوية بين أمثالى».

أما السبب الثانى : فهو ما رآه فردريك وليم من أن النمسا يجب ألاّ تطرد من ألمانيا، لأنها ضرورة لألمانيا. وقد رد يقول :

«إن النمسا تملك التاج الإمبراطورى، وستظل تحتفظ به، وستكون بروسيا سيف الإمبراطور». وكتب يقول:

«مادام هناك أمل فى الإبقاء على وحدة ألمانيا، والحفاظ على السبعة والثلاثين مليون نمسوى، وبقاء آل هابسبرج على رأس الإمبراطورية المسيحية وألمانيا، فلن أقبل التاج الإمبراطورى.

وفى ٢٧ إبريل ١٨٤٩م أعلن فردريك وليم رفض التاج الذى قدمه له برلمان فرانكفورت، وكان معنى ذلك إلغاء برلمان فرانكفورت. وهكذا أخفق تحقيق الوحدة الألمانية بالطريق الشعبى.

على أن فردريك وليم الرابع لم يلبث أن دفع الثمن غاليا لرفض التاج الذى قدمه برلمان فرانكفورت، واحتقاره للشعوب. ففى أعقاب هذا الرفض أراد فــــردريك صنـع الوحــــدة الألمانيـــة عن طريق الحكومــات، وذلك بإقــامــة دولة فــدراليــة تحل مــحل الاتحـــاد الكونفدرالى السابق، ويكون هو لها زعيما عسكريا. فدعا فى بداية مايو ١٨٤٩م الدول الألمانية إلى إرسال مندوبين إلى برلين لمناقشة إصلاح الاتحاد الكونفدرالى.

وفى ٢٦ مــايو ١٨٤٩م أعـد اتحــاد الملوك الثــلاثة: بروســيــا وساكسونيا وهانوفر مشروع دستور أبلغوه إلى الحكومات لقبوله، على أن يعرض فيما بعد على مجلس شعبى. وقد قبل هذا الدستور ٢٨ أميرا، ووضع موضع التطبيق فى ١٥ أكتوبر ١٨٤٩م، وعرف هذا الاتحاد باسم «الاتحاد الضيق».

على أن النمـســا لم تلبث أن قــامت فى وجـه هذا الاتحــاد، واســتــعــانت بدول الجنوب التى عــارضت التــفــوق البــروسى، وخصوصا بافاريا وفرتمبرج. وانفصلت عنه ساكسونيا وهانوفر.

وبذلك أصبح الاتحاد الضيق عبارة عن اتحاد يجمع بروسيا مع الدول الألمانيـة الصـغرى، أمـام الدول الأربع الجنوبيـة الكبرى التى تساندها النمسا. وفقد لذلك صفته القومية، وأصبح مجرد عصبة بروتستنتية فى مواجهة الدول الكاثوليكية الجنوبيـة التى اعتصمت بالنمسا. ولم تلبث النمسا أن أعادت إنشاء «الدايت» بشكل جديد فى فرانكفورت.

ثم جاءت الفرصة للنمسا لإذلال بروسيا، حين قامت الثورة فى «كاسل» بسبب سياسة ناخب هس الرجعية، وكان من حق بروسيا - طبقا للتقليد القديم السابق لعام ١٨٤٨م - إخماد هذه الثورة، كما أن دستور الاتحاد الضيق كان يعطيها هذا الحق أيضا، ولكن الناخب استنجد «بالدايت »الذى اختار بافاريا لتقوم بهذا العمل الفدرالى بدلا من بروسيا! وعندما احتج فردريك وليم، اتفقت النمسا مع ملوك ساكسونيا وفرتمبرج وبافاريا على أن معارضة بروسيا لقرار «الدايت» يخلق «حالة حرب».

وفى الوقت نفسه، حصلت النمسا من الروسيا على وعد بمساندة السياسة النمسوية. ثم وجهت إنذارا فى نوفمبر ١٨٥٠م إلى فردريك وليم يطالبه بجلاء الجيوش البروسية عن هس.

وفى الاجتماع الذى عقد فى أولمتز Olmutz بين رئيس الوزراء البروسى مانتوفيل Mantueffel ورئيس الوزراء النمسوى الداهية شفارتسينبيرج Schwarzenberg قبل الجانب البروسى التخلى عن الاتحاد البروسى، والاعتراف «بالدايت» الألمانى الذى بعث بشكل جديد فى فرانكفورت، وأما بالنسبة لدستور ألمانيا فى المستقبل فيجب أن يعرض لمناقشة فى مؤتمرات مفتوحة فى جميع دول ألمانيا. ولم يكن القرار الأخير إلا ستارا لإخفاء تراجع بروسيا المخزى.

وهكذا فى أولمتز دفع فردريك وليم الرابع ثمن رفضه التاج الذى قدمه برلمان فرانكفورت، وتأجلت فرصة بروسيا لتحقيق وحدة ألمانيا، لتحقيق وحدة ألمانيا حتى تهيأ السبيل لذلك بفضل سياسة بسمارك، سياسة الدبلوماسية والحرب.

(خامساً) حركة الوحدة الألمانية من ١٨٥٠ - ١٨٦٢م :

فى الفترة من ١٨٥٠م إلى سبتمبر ١٨٦٢ حدثت جملة تطورات مهمة:

أولاً : نهضت الصناعة الألمانية نهضة كبيرة، حتى ليمكن القول إن الحركة الصناعية الألمانية قد بدأت فى هذا التاريخ. فقد بدأت بنمو إنتاج الفحم، حتى وصلت ألمانيا منذ سنة ١٨٥٠م إلى الصف الثانى فى أوروبا كمنتجة للفحم بعد بريطانيا مباشرة. كما تضاعف عدد أفراد القوى العاملة إلى ثلاثة أضعاف. وفى صناعات النسيج ازداد عدد الأنوال بمقدار خمسة أضعاف بين ١٨٥٠ و ١٨٦٠م. وفى صناعة السكر ارتفع عدد المصانع من ٩٦ مصنعا سنة ١٨٤٧م إلى ٢٤٧ مصنعا فى سنة ١٨٦٠م. كما زادت خطوط السكك الحديدية من ٦٠٠٠ ك م سنة ١٨٥٠ إلى ١٤٠٠٠ سنة ١٨٥٦م. ثم زادت إقامة شبكات السكك الحديدية بين مختلف البلاد الألمانية.

ونتج عن هذه الصناعة نمو الطبقة البورجوازية نموا كبيرا، وكان من الطبيعى أن يهدف هؤلاء البورجوازيون من كبار الصناعيين والتجار إلى انشاء دولة موحدة لتكون سوقا طبيعية لمنتجاتهم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد أخذ مركز النمسا يتحرج بعد هزيمتها فى الحرب التحريرية التى قامت بينها وبين كل من كافور ونابليون الثالث، والتى انتهت باستيلاء بيدمونت على لمباردى وبارما «بصلح ڤيلافرنكا». فمع أن هذه الحرب كانت فرصة لبروسيا لإزاحة النمسا من الميدان، إلا أنها خشيت أن تقلب فرنسا، بتزايد قوتها، الوضع السياسى الذى أرسته معاهدات فيينا، ولذلك اكتفت بحشد ست قطع من الجيش البروسى على الراين. وقد أفلح هذا الخطر على الجيش الفرنسى فى الحد من نتائج صلح ڤيلافرنكا لصالح فرنسا.

وقد أثارت أزمة ١٨٥٩ هذه الرأى العام فى ألمانيا الذى أحس بالحاجة إلى الوحدة، ولكن هزيمة النمسا أدت إلى ارتفاع شأن بروسيا. ومع أنه وجه لوم إلى بروسيا لعدم قيامها بواجبها كدولة ألمانية فى نجدة النمسا، إلا أن الرد جاء بأن النمسا لم تكن تحارب فى مصلحة ألمانية، بل للحفاظ على لومباردى والبندقية وهما إقليمان إيطاليان.

وعلى كل حال فإن إحراز حركة الوحدة الإيطالية انتصارها الكبير فى ١٨٥٩ - ١٨٦١م تحت قيادة كافور، قد جعل الأصوات ترتفع فى ألمانيا بالوحدة، واتجه التفكير إلى بروسيا لتقوم بدور «بيدمونت» فى توحيد ألمانيا.

فى ذلك الحين كانت مقاليد الأمور فى بروسيا قد انتقلت من يد فردريك وليم الرابع الذى أصيب بمرض عقلى، إلى يد أخيه منذ سنة ١٨٥٨م. وفى سنة ١٨٦١م توفى فردريك وليم وخلفه أخوه تحت اسم «وليم الأول».

وقد أدرك وليم الأول أنه لا سبيل إلى زعامة بروسيا لألمانيا إلا عن طريق بناء جيش قوى. فعقد النية على إصلاح الجيش إصلاحا شاملا، وقدم للبرلمان البروسى فى سنة ١٨٦٠م مشروعا بإطالة التجنيد، وتجنيد كل من يصل إلى السن القانونية، وزيادة عدد الجيش إلى ١٩٠ ألفا فى حالة السلم و ٤٥٠ ألفا فى حالة الحرب.

على أنه لما كان ذلك يستدعى نفقات باهظة، فقد عارض البرلمان فى ذلك، ولما حل الملك هذا البرلمان وأجرى إنتخابات جديدة، جاء البرلمان الجديد بأغلبية معارضة للحكومة. وهنا أصبح أمام ملك بروسيا إما أن يخضع لهذه الأغلبية، وبذلك يتوطد الحكم الدستورى على حساب برنامج الجيش، وإما أن يتنازل عن العرش لابنه الذى كانت ميوله لليبرالية، وكان الحل الذى انتهى إليه الملك تحت ضغط العناصر المحافظة هو استدعاء بسمارك لتولى الوزارة فى سبتمبر سنة ١٨٦٢م.

(سادساً) بسمارك وحركة الوحدة الألمانية :

ولد أوتو فون بسمارك Otto von Bismarck ١٨١٥ ـ ١٨٩٨م في براندنبورج من أسرة أرستقراطية من أصحاب الارض (اليونكرز) وتخرج فى جامعة بوتنجن فى هانوفر سنة ١٨٣٥م. وعندما وقعت أحداث ١٨٤٨م اقترح على الملك إخماد الثورة بالقوة، وطلب منه السماح له باستخدام فرقة من فلاحيه للقضاء عليها. وفى ١٨٤٩م انتخب لأول مرة عضوا فى البرلمان البروسى الجديد. وكان موقفه متشددا ضد الأغلبية الليبرالية. وبعد حل برلمان فرانكفورت عين مندوبا لبروسيا فى «الدايت» الألمانى. وفى ١٨٥٩م عين سفيرا لبروسيا فى موسكو. وفى مايو ١٨٦٢م عين لفترة سفيرا لبروسيا فى باريس، ثم استدعى لتولى الوزارة.

ومنذ بداية حكمه عبر عن حقيقة اتجاهه نحو الوحدة القومية، عندما صرح بأن ألمانيا لا تتطلع إلى بروسيا فى تحقيق الوحدة بسبب ما تتمتع به من حكم ليبرالى، وإنما لقوتها، وأن المسائل الكبرى فى ذلك العصر، كمسألة الوحدة، لا تتحقق بالخطب وقرارات الأغلبية كما حدث فى سنة ١٨٤٨ و ١٨٤٩م، ولم يؤد إلى نتيجة ـ وإنما تتحقق «بالدم والحديد».

على هذا النحو أعلن بسمارك سياسته فى تحقيق الوحدة الالمانية، وهى القوة. على أن بسمارك لم ينجح بواسطة القوة وحدها، بل بواسطة القوة والدبلوماسية معا. وتقوم شهرته فى الحقيقة، لا على خلق الظروف، بل على الاستفادة الذكية من الظروف بالدرجة الأولى، وخصوصا فى المراحل الأولى.

ويمكن تتبع سياسته التى أدت فى النهاية إلى تحقيق الاتحاد الألمانى على النحو الآتى :

أولاً : فى البداية حارب بسمارك اتجاه النمسا لتدعيم سلطانها وتقويته فى ألمانيا.

وكانت النمسا قد وجهت دعوة لعقد اجتماع الأمراء الألمان فى فرانكفورت، لبحث مشروع قدمته لاصلاح الدستور التعاهدى الألمانى. وكان إمبراطور النمسا يرى أنه يستطيع بتحدثه مع الأمراء الألمان أنفسهم، لا مع مندوبيهم، التوصل إلى غاياته بشكل أفضل.

ولكن بسمارك أحس بأن إصلاحات تنفذ بإرشاد النمسا وبتسليم بروسيا، لن تكون نتيجتها إلا تدعيم سلطان النمسا وتقويته فى ألمانيا، ولذلك اتجهت خطته إلى عدم تمثيل بروسيا فى فرانكفورت، لإحباط المشروع النمساوى وهو فى المهد، واستطاع أن يحصل على موافقة ملك بروسيا الشيخ قسرا، بعد أن هدد باستقالته.

وعندما افتتح المؤتمر فى ١٤ أغسطس ١٨٦٣م كان واضحا أنه لايمكن إصلاح الاتحاد الألمانى دون رضاء بروسيا، وعندما أبلغت النمسا بروسيا بمشروع الاصلاح فى ٢٢ سبتمبر ١٨٦٣م أجابت بروسيا بوضع ثلاثة شروط:

١ ـ مساواة بروسيا للنمسا فى الحقوق فى الاتحاد، أى تكون رئاسة الاتحاد مناوبة بين بروسيا والنمسا.

٢ ـ أن يكون لبروسيا الحق فى رفض إعلان الحرب على دولة أخرى حتى لو قرر البرلمان الفيدرالى الحرب. ومعنى ذلك أن تحتفظ بروسيا باستقلال سياستها الخارجية.

٣ ـ ألا تتنازل عن حق من حقوقها إلا لبرلمان يمثل الأمة الألمانية بأسرها.

وعندما طلبت النمسا من جميع الحكومات الألمانية تشكيل الاتحاد دون رضاء بروسيا، رفض الأمراء ذلك لأنهم لم يتصوروا اتحادا ألمانيا بدون بروسيا.

وقد كانت أهمية هذا القرار هو اقتناع الرأى العام الألمانى بأن لا وحدة ممكنة بأى شكل من الأشكال إذا لم تدخل فيها بروسيا، وكان هذا الاقتناع مهماً جدا للمستقبل.

وهنا يلاحظ أن المصالح المادية للشعوب الألمانية كانت مرتبطة فى الحقيقة بالاتحاد الجمركى (الزولفراين) الذى تشكل تحت إدارة بروسيا. ولم تشارك فيه النمسا.

ثانياً : فى نفس العام ١٨٦٣م سنحت الظروف لبسمارك لتأمين حدود بروسيا الشرقية فى أى صراع تخوضه ضد النمسا، وذلك عندما اندلعت الثورة فى بولندا الروسية، وقمعت قمعا عنيفا. فقد استفز هذا القمع الرأى العام فى فرنسا وإنجلترا والنمسا، واتفقت الدول الثلاث على تقديم مذكرة إلى روسيا تحضها فيها على منح بولندا استقلالها الداخلى، ودعيت بروسيا إلى تأييد هذا

المطلب. على أن بسمارك لم يكتف فقط برفض الاشتراك فى تقديم هذه المذكرة، بل وقع مع روسيا اتفاقية حربية تحمل فى ظاهرها دلائل اهتمامهما المشترك فى بسط الأمن بين شعب مشاغب، فضمن بسمارك منذ تلك اللحظة تحالفه مع روسيا..

وفى الحقيقة أن بسمارك وهو يفعل ذلك، لم تكن عينه فقط على حدوده الشرقية، وإنما كانت عينه أيضا على الجزء البولندى الخاضع لبروسيا.

ففى ذلك الحين، كان بسمارك يرى أن الحل الوحيد للمشكلة البولندية فى بلاده هو فى تحويل البولنديين إلى بروسيين بأقل تأخير مستطاع، والقضاء على لغتهم، وإزالة ثقافتهم القومية من الوجود.

ولم يكن يسمح بطرح هذه المسألة على مؤتمر دولى، بل لقد ذكر أنه يؤثر على ذلك سلخ أراضى الراين نفسها! وعلى كل حال فيلاحظ أن بسمارك فى هذا المسألة لم يخلق الظروف لتدعيم علاقة بروسيا، وأنما احسن استخدام الظروف.

ثالثاً : ولم تلبث أن برزت فى العام التالى ١٨٦٤م، مشكلة شلزڤيج وهولشتاين، لتقدم لبسمارك فرصة أخرى تتبدى فيها مهارته السياسية، وتدفع ببروسيا خطوة أخرى على طريق تزعم حركة الوحدة الألمانية.

وكانت هاتان الدوقيتان الواقعتان فى شمال شرقى ألمانيا فى شبه جزيرة چاتلاند Jutland، تابعتين لملوك الدانمارك شخصيا منذ

١٤٩٠م، وان لم تكونا جـزءا من مملكة الدانمارك. وكـانت شلزڤيج التى تقع شـمـال هـولشـتـاين يبلغ عدد سكانـهـا ٣٩٥ ألفا منهم ١٥٠ ألفا يتكلمون الألمانية، فى حين كـان سكان هولشـتـاين يبلغ عددهم ٥٤٠ ألف نسـمـة، ولغـتـهم الألمانية. وكانت هولشـتـاين من قبل جزءاً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة، واعترفت بها مـعـاهدة فيينا سنة ١٨١٥م عضـوا فى الاتحـاد الكونفدرالى (التـعـاهدى) الألمانى The Germanic Confederation.

ومنذ أن ظهرت الحـركـات القـومـيـة فى القرن التـاسـع عشـر، وجدت فى الدوقيتين حركة تنزع إلى الارتباط بالإتحـاد الألمانى، فى الوقت الذى كانت الدنمارك تتوق إلى ضـمـهـا.

وفى عـهـد فـردريك السـادس ملك الدنمارك (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩م) حـاول إدمـاج الدوقيتين نهـائيا فى مملكتـه، ولكن مـحـاولتـه ووجـهـت بمعـارضـة بيت أوجـسـتنبـورج Augustenburg، الذى كان يطمع فى الوصول إلى العرش عند انقضـاء نسل الذكور فى البيت الدنماركى الحـاكم طبقا للقانون فى هـاتين الدولتين.

ولكن فى عـام ١٨٤٦م اعـتـرف كـرسـتـيـان الثـامن (١٨٣٩ ـ ١٨٤٨م) بحق أختـه الأمـيـرة شـارلوت وورثـتـهـا فى حـكم دوقـيـتى شلزويج وهـولشـتـاين بعـد وفـاة ابنه، وقـد أثار هذا العـمـل غـضـب الدوقيتين اللتين كانتا تتوقان إلى خضـوعـهمـا لحـاكم ألمانى. وثار الألمان فى الدوقـيـتين عندمـا بدأت القـوات الدنمـاركـيـة فى احـتـلال شلزفيج، وألـفـوا حكومـة مـؤقـتـة فى «كـيـيل» فى ٢٤ مـارس ١٨٤٨م. وأيدهم برلمان فرانكفورت.

وأفسح ذلك لحربين خاضهما الجيش البروسى ضد الدنمارك، وقد انتهتا بعقد مؤتمر فى لندن ضم بريطانيا وبروسيا والنمسا وروسيا وفرنسا والسويد والدنمارك، وتم الاتفاق فى البروتوكول الذى وقع فى ٨ مايو ١٨٥٢م The London Protocol على تثبيت وراثة العرش وحكم شلزفيج وهولشتاين، مع عدم المساس بحقوق الاتحاد الألمانى فى هولشتاين، ووقعت بروسيا مع النمسا على هذه المعاهدة، وأما الدوق أوجستنبرج المطالب بالعرش، فقد قبل تعويضا كبيرا لقاء تنازله عن مطالبه ودعاويه، ولم يدع الاتحاد الألمانى لتوقيع المعاهدة، كما لم توقع الدوقيتان.

على أنه لم تكن تمضى عشرون عاما على المعاهدة حتى نسى فردريك السابع ملك الدنمارك بنود البروتوكول، وأصدر فى ٣٠ مارس ١٨٦٣م دستورا تضمن إدماج شلزفيج فى مملكته، ومنح هولشتاين الاستقلال الداخلى.

وعند ذلك استنجدت هولشتاين «بالدايت» الألمانى، الذى اعتبر نفسه مطلق اليد نظرا لأنه لم يشترك فى توقيع معاهدة لندن ولم يوافق عليها، وتقدم ابن الدوق أوجستنبرج الذى تنازل عن العرش، معلنا أن تنازل أبيه ليس ملزما له.

وقد رد فردريك السابع ملك الدنمارك على ذلك فى ١٣ نوفمبر ١٨٦٣م بإصدار دستور آخر ضم فيه الدوقيتين نهائيا إلى مملكة الدانمارك، وبذلك نقض بروتوكول لندن ١٨٥٢م.

وفى سياق هذه التعقيدات، توفى فردريك السابع بعد يومين، وخلفه الأمير كريستيان التاسع الذى وضع الدستور الأخير موضع التنفيذ.

وقد كانت تلك هى الظروف التى انتهزها بسمارك للقيام بسلسلة من المناورات التى أدت فى النهاية إلى سقوط الدوقيتين فى يد بروسيا. فمع أنه كان أحد الموقعين على بروتوكول لندن، وبالتالى فقد كان ملزما بالاعتراف بكريستيان التاسع، إلا أنه اعتزم العمل عل محاربته.

ففى ذلك الحين قرر «الدايت» الألمانى، لسان حال الاتحاد، الاعتراف بأوجستنبرج أميرا على شلزڤيج وهولشتاين، وطلب إلى الدنمارك أن تجلو عن دوقيتى شلزڤيج وهولشتاين ولاونبرج Launburg. وكانت القوات التى تحت تصرف الاتحاد قوات ضعيفة ولذلك انتهز بسمارك الفرصة للتدخل، وعرض على النمسا الاشتراك فى الحرب، ومع أن النمسا لم يكن لديها أى سبب مباشر للاشتراك، نظراً لأنها كانت دولة متعددة القوميات، وكان من الخطر أن تتدخل لصالح ألمان الدوقيات باسم القومية - إلا أنها خشيت انفراد بروسيا بنجدة ألمان الدوقيات وتقاعسها هى عن ذلك، وتم الاتفاق فى يناير ١٨٦٤م على تقديم إنذار نهائى إلى الدنمارك بإلغاء دستور نوفمبر. وقد صيغ فى أسلوب يجعل قبوله مستحيلاً!

وسار كل شئ طبقا للخطة الموضوعة، فقد رفضت الدنمارك الإنذار، وتقدمت جيوش بروسيا والنمسا لغزو الدوقيتين، وأكره كريستيان على طلب الصلح، ونزل للدولتين الألمانيتين عن حقوقه في شلزفيج وهولشتاين، وفي دوقية لاونبرج الصغيرة.

ثم اختصت بروسيا بإدارة شلزفيج، واختصت النمسا بهولشتاين في معاهدة جشتاين Gastein سنة ١٨٦٥م.

وهكذا أحبط بسمارك دعاوى بيت أوجستنبرج، رغم رأى غالبية الأمة الألمانية.

على أن بسمارك لم يكن جادا في التقسيم، لأن شلزفيج التي اختص بادارتها كانت تقع في الطرف الشمالي الأقصى، وتفصلها عن بقية ألمانيا هولشتاين، فضلا عن أن غالبية سكانها يتكلمون الدنماركية، في حين كانت هولشتاين التي اختصت بها النمسا ألصق بألمانيا، كما أن سكانها جميعا كانوا ألمانيين. يضاف إلى ذلك أن برزخ كييل كان يقع وسط الدوقيتين، وكان في نية بسمارك حفر قناة تخدم أغراض بروسيا الاقتصادية، وكان التقسيم على هذا النحو يعرقل مشاريعه. لذلك فلم يكن مفر من الحرب مع النمسا، وبات يترقب فرصة للاحتكاك بها..

على أنه قبل أن يفعل ذلك كان عليه أن يعزل النمسا ويدعم موقفه. ولما كان مطمئنا من ناحية حدود بلاده الشرقية مع الروس، فقد اتجه همه إلى ضمان حياد فرنسا ومعاونة إيطاليا لبلاده.

وبالنسبة لفرنسا فقد تقابل بسمارك مع نابليون الثالث فى بياريتز Biarritz فى ٣٠ سبتمبر ١٨٦٥م، بعد فشل الحملة الفرنسية فى المكسيك، مستغلا أمل نابليون الثالث فى تعويض هذه الهزيمة بنجاح فى ميدان آخر، وأبدى استعداده للنظر فى توسيع رقعة فرنسا إذا ما ضمن حيدتها فى الحرب القادمة بينه وبين النمسا، وموافقتها على عقد تحالف بروسى إيطالى.

وأما بالنسبة لإيطاليا. فقد اشترى بسمارك مساعدتها بوعدها بضم مقاطعة البندقية إليها، وأبرم التحالف البروسى الايطالى فى ٨ أبريل ١٨٦٦م بالفعل، وبمقتضاه رضيت إيطاليا أن تعلن الحرب على النمسا، بشرط ألا تعقد بروسيا الصلح مع النمسا قبل ضم البندقية إلى إيطاليا.

ثم أقدم على خطوة لكسب ولاء الشعوب الألمانية، فتقدم فى اليوم التالى لإبرام التحالف البروسى الإيطالى، بمشروع إلى «الدايت» الألمانى بإصلاح عام للاتحاد التعاهدى الألمانى، ودعوة الناخبين إلى انتخاب برلمان ألمانى «تنتخبه الأمة الألمانية كلها بواسطة الانتخاب المباشر على أساس حق الانتخاب للجميع، للنظر فى مقترحات الحكومات لإصلاح الدستور الفيدرالى. وكان غرضه من هذا المشروع الثورى (لم يكن أى قطر من الأقطار الألمانية قد عرف حق الانتخاب المباشر للجميع حتى ذلك الوقت) أن تثبت بروسيا أنها تهتم فعلا بمصالح الأمة الألمانية ورغباتها، وبذلك تلتف حول بروسيا فى صراعها المقبل.

وفى تلك الأثناء كانت الأحوال فى هولشتاين تنبئ بقرب الصدام مع النمسا، فإن الدوق أوجستنبرج كان يقوم بدعاية ضد معاهدة جشتاين بتشجيع السلطة النمسوية، فطلبت حكومة بروسيا إلى الحكومة النمسوية قمع هذه الدعاية، ولكن النمسا ردت بأن كل دولة منهما حرة فى العمل داخل منطقة إدارتها.

وفى أول يونيو ١٨٦٦م حدث ما كان يتوقعه بسمارك. فقد قررت الحكومة النمسوية إحالة قضية شلزفيج وهولشتاين إلى «الدايت». فاعترض بسمارك بأن هذا القرار يعد انتهاكا للمعاهدة التى أبرمت بين النمسا وبروسيا فى يناير ١٨٦٤م بمناسبة قضية الدوقيتين، وأمر القوات البروسية بدخول هولشتاين.

فردت النمسا بعرض الأمر على «الدايت»، على اعتبار أن هولشتاين هى عضو فى الاتحاد الألمانى، وطلبت إلى الحكومات الألمانية إعلان الحرب على بروسيا.

وهنا انقسمت الدول الألمانية بين النمسا وبروسيا، فبينما وقفت دول الجنوب وبعض دول الوسط ودولة واحدة هى هانوفر فى ألمانيا الشمالية إلى جانب النمسا، وقفت الدول الأخرى الصغيرة إلى جانب بروسيا.

وفى يونيو ١٨٦٦م قطعت العلاقة بين النمسا وبروسيا، وفى الأسبوع الأول من الحرب سحقت بروسيا المقاومة النمساوية التى جابهتها فى الشمال الغربى من ألمانيا، واستولى البروسيون على سكسونيا وهانوفر، والتقوا مع الجيش النمساوى فى بوهيميا عند

سادوا Sadowa (Koniggratz)، حيث دارت معركة من أكبر معارك التاريخ يوم ٣ يوليو ١٨٦٦م انتصر فيها الجيش البروسى انتصارا حاسما.

وأما إيطاليا فقد برت بوعدها فى محاربة النمسا، ولكنها هزمت برا فى كستوزا Custozza وبحرا فى Lissa. وأرادت القوات البروسية الزحف على فيينا، ولكن بسمارك السياسى الكبير، لم يشأ إذلال النمسا توقعا منه للحرب التالية مع فرنسا، ورغبة فى إعادة المصادقة مع النمسا لتحييدها فى الحرب مع فرنسا كما حيد الأخيرة فى حربه مع النمسا.

لذلك أصر على إبرام الصلح مع النمسا بشروط لا تحط من شرفها، وأبرمت معاهدة براج Prague فى ٢٣ اغسطس ١٨٦٦م، وبها ضمت بروسيا هانوفر، وبعض أجزاء بافاريا، وكذلك هس ـ درمشتات، وشلزڤيج وهولشتاين، ومدينة فرانكفورت، وأصبحت زعيمة اتحاد ألمانى شمالى يشمل كل الإمارات الواقعة شمال نهر الماين Main، مع معارضة النمسا لهذا الاتحاد.

أما الإمارات التى فى جنوبى النهر، فتكون منها اتحاد جنوبى ألمانى. ولم يشأ بسمارك مراعاة لشعور هذه الحكومات إكراهها على الانضمام إلى اتحاد الشمال، وكان من رأيه أن اتحادا شماليا هو أقصى ما تستطيع بروسيا أن تطمع فى هضمه فى هذه المرحلة، ومع أن الولايات الألمانية الجنوبية كانت قد انضمت إلى النمسا، إلا أنه لم يفرض عليها غرامات حربية، بل إنه لم يسلبها أى أرض. وقد

لقى جزاء اعتداله، فإنه قبل أن ينتهى أغسطس ١٨٦٦م كانت بافاريا وفيرتمبرج وبادن قد أبرمت اتفاقيات حربية مع حكومة بروسيا.

أما بالنسبة لإيطاليا، فقد انتزعت البندقية من النمسا وضمت إليها مكافأة لها. وبذلك تمت الوحدة الإيطالية.

ولم يلبث بسمارك أن استدار إلى فرنسا. ذلك أن نابليون الثالث أراد فى شتاء ١٨٨٦ ـ ١٨٦٧م الحصول على مكافأة لوقوفه موقف الحياد فى الحرب. ولكن بسمارك أنذره بأن أى تعديل من جهة حدود الراين معناه الحرب، وعندئذ ولى نابليون الثالث وجهه شطر لوكسمبورج، حيث استمال ملك هولندة الذى كان يسيطر عليها ليبيع له حقه فيها، ولكن بسمارك الذى كان يعد لوكسمبورج مفتاح ألمانيا الجنوبية، وقف فى وجه هذه المحاولة، فترتب على ذلك أزمة حادة انتهت بحل وسط. فقد اجتمع مؤتمر من الدول الكبرى فى لندن يوم ٧ مايو ١٨٦٧م، حيث أبرمت «معاهدة لندن» فى ١١ مايو ١٨٦٧م التى خرجت بها لوكسمبورج من الاتحاد الألمانى، وأصبحت دوقية محايدة تضمن حيادها الدول الكبرى تحت السيادة الاسمية لهولندا.

وأحست فرنسا بالمهانة العميقة وبأن الخطوات التى خطاها بسمارك نحو توحيد ألمانيا سوف تهدد مستقبل فرنسا، وكانت فرنسا من قبل تعتقد أن الخطر من جهة توحيد ألمانيا يأتى من جانب النمسا لا بروسيا باعتبارها الدولة الأقوى، ولذلك وقف

نابليون الثالث على الحياد بين بروسيا والنمسا فى الحرب الدائرة بينهما على أمل إضعاف الدولتين كل منهما الأخرى، ثم تقدم ليفرض شروطه. فلما تحقق النصر لبروسيا فى سرعة خارقة، أعلن تيير وزير الحربية الفرنسية أنه يجب توقيف بروسيا عند هذا الحد، وأجاب بسمارك بنشر مفاوضاته مع نابليون بعد معركة سادوا، التى طلب فيها نابليون منحه بعض الأراضى على شاطئ الراين الأيسر كترضية له، ورفض بسمارك ذلك، فظهر بسمارك فى عين الولايات الجنوبية الأربع التى كانت تختلف عن الشمال فى الدين والثقافة، فى مظهر المدافع عن السيادة الألمانية، وسارعت إلى الدخول فى الزولفران، فألف بسمارك منها ومن الرايشستاج Reichstag الألمانى الشمالى برلمانا جمركيا Zollparlament يحضره ممثلو الولايات الجنوبية، فكان هذا البرلمان الجمركى برلمانا لجميع ألمانيا.

وفى ذلك الحين تقدمت المسألة الأسبانية لتشعل نيران الحرب الروسية والفرنسية. ففى سبتمبر سنة ١٨٦٨م قامت ثورة فى أسبانيا أسفرت عن طرد ملكتها ايزابيللا Isabella، وقرر الثوار أن تكون حكومة أسبانيا ملكية دستورية. فاختير أخيرا الأمير ليوبولد من أسرة «هوهنزولرن ـ سيجمارينجن» Hohenzollern - Sigmar-ingen ليكون ملكا، ولكن هذا الاختيار أهاج فرنسا التى خشيت أن يؤدى تولى بروسى عرش أسبانيا إلى توحيد الدولتين البروسية والأسبانية وإعادة دولة شرلمان وقلب التوازن الدولى.

ومع أن الملك وليم نفض يده من مسألة العرش الأسبانى، كما تخلى الأمير ليوبولد عن اعتلاء العرش، إلا أن فرنسا، التى كانت تريد الحرب، طلبت من ملك بروسيا أن يتعهد بألاّ يعود مستقبلا إلى الموافقة على ترشيح هذا الأمير لعرش أسبانيا، الأمر الذى كان يشكل إهانة لملك بروسيا قابلها بالرفض.

وهنا انتهز بسمارك الفرصة ليظهر رفض وليم فى شكل يهين الأمة الفرنسية، فأعلنت حكومتها الحرب على بروسيا فى ١٩ يوليو ١٨٧٠م، وهى الحرب المشهورة فى التاريخ التى انتهت بهزيمة فرنسا هزيمة ساحقة، ووقوع نابليون الثالث فى الأسر خلال شهر واحد، وانتهت بإبرام الصلح الذى أجبرت فيه فرنسا على النزول عن الألزاس واللورين فى معاهدة فرانكفورت يوم ١٠ مايو ١٨٧١م.

وقد كان تأثير هذا النصر حاسما على الحركة القومية الألمانية، فقد ابتدأت المفاوضات بين بسمارك والدويلات الألمانية، وانتهت فى نهاية نوفمبر ١٨٧١م بانضمام ولايات الجنوب إلى الاتحاد الالمانى الشمالى. ودعى الملك وليم William ليعتلى عرش الاتحاد الألمانى بلقب «إمبراطور» ألمانيا، وتوج رسميا فى ١٨ يناير ١٨٧١م فى قاعة المرايا فى قصر فرساى Versailles وسط احتفالات النصر على فرنسا، وبذلك تمت وحدة ألمانيا.

الفصل الرابع عشر

تطور الولايات المتحدة
فى القرن التاسع عشر

تطور الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر

يمكن تقسيم التاريخ الأمريكى إلى ثلاثة أقسام رئيسية: القسم الأول: من ابتداء استعمار أمريكا حتى الاستقلال. والثانى: من الاستقلال حتى الحرب الأمريكية الأسبانية ١٨٩٨م، والثالث: بعد ذلك حتى الآن. وسوف نعالج القسم الأوسط فقط من هذا التاريخ.

ولكى نمهد لهذا القسم نقول إنه عند منتصف القرن الثامن عشر كانت قد تكونت على الشاطئ الشرقى لأمريكا الشمالية ثلاث عشرة مستعمرة بريطانية، نتيجة الهجرة الأوروبية المتواصلة عبر الاطلنطى لعناصر تنتمى إلى جنسيات وديانات متعددة.

وهذه المستعمرات بترتيب امتدادها من الشمال إلى الجنوب هى: نيو هامبشير New Hampshir ، وماساتشوستس Massachusetts ، ونيويورك New York ، وورود آيلاند Rhode Island، وكونيكتكات Connecticut، وبنسلفينيا Pennsylvania، ونيو چيرسى New Jersy، وديلاوير Delaware، وميريلاند Maryland، وفيرچينيا Virginia، ونورث كارولاينا North Carolina، وساوث كارولاينا South Carolina، وجورجيا Georgia .

وقد طبق على هذه المستعمرات نظام «الميثاق الاستعماري» المتمثل في المذهب التجاري Mercantile System الذي يحظر على سكان المستعمرات الاتجار مع أية دولة غير الوطن الأم، أو استخدام سفن تابعة لدولة أجنبية، لأن هدف الاستعمار هو بالدرجة الأولى خدمة سكان الوطن الأم.

ولما كانت هذه القيود من شأنها إلحاق الضرر بالمهاجرين، خصوصا وكانت تشمل تحريم الاشتغال بالصناعة، وذلك في الوقت الذي اتسعت فيه هذه المستعمرات سكانيا وعمرانيا. فقد أدى ذلك إلى ردود فعل تطورت من المطالبة بالتمتع بالحقوق التي يتمتع بها سكان الوطن الأم، إلى المعارضة في فرض الضرائب، ثم إلى المقاومة، ثم إلى تنظيم المقاومة عن طريق الاتحاد بين المستعمرات الثلاث عشرة، ثم إلى الصدام مع الحكومة البريطانية والبرلمان البريطاني، ثم إلى إعلان الاستقلال في ٤ يوليو ١٧٧٦م، ثم إلى حرب الاستقلال مع إنجلترا، حيث كانت فرنسا تقدم المعونة لأمريكا، ثم إلى الانتصار وعقد معاهدة باريس في ٣ سبتمبر ١٧٨٣، التي اعترفت فيها إنجلترا باستقلال الولايات المتحدة.

وعند توقيع معاهدة باريس عام ١٧٨٣م كان من الممكن أن تنحصر حدود الولايات المتحدة بين جبال الأبلاتشيان The Appalachians والمحيط الأطلنطي، ولكنها كانت منذ اللحظة الأولى لاستقلالها «كالطفل المحظوظ» ـ حسب تعبير بعض المؤرخين ـ فقد

تمتعت الدولة الجديدة بمساحات هائلة تمتد من المحيط الأطلنطى إلى المسيسبى Mississippi، ومن البحيرات العظمى شمالا إلى خط العرض ٣١ جنوبا.

وفى خلال عشرين عاما، زادت هذه المساحة بشراء لويزيانا Louisiana من نابليون بونابرت (بمبلغ ١٥ مليونا من الدولارات) وهى التى كان قد حصل عليها من أسبانيا بالتنازل وخشى وقوعها فى يد انجلترا، ففضل ببيعها للولايات المتحدة فى ٣ أبريل ١٨٠٣م.

ولم تلبث أن لحقت فلوريدا Florida، التى كانت تقع على الحدود الجنوبية للولايات المتحدة والى شرق المسيسبى بلويزيانا. ذلك أن الجزء الغربى منها كان قد وقع فى يد رجال الحدود الأمريكيين، وفى عام ١٨١٠م قامت الثورة ضد الحكم الأسبانى، فأمر الرئيس «ماديسون» Madison باحتلال هذا الجزء. وبقى الحكم الأسبانى فى فلوريدا الشرقية بعض الوقت، ولكن قبضة الحكم الأسبانى كانت واهية. وفى ١٨١٩م تخلى الأسبان عنها للولايات المتحدة مقابل خمسة ملايين دولار، وترتب على ذلك اجلاء الهنود الحمر عن مواطنهم فى شرقى نهر المسيسيبى. مما أدى إلى قيام المدن الكبرى فى الشمال من هذه المنطقة مثل كليفلاند Cleveland، وديترويت Detroit، وشيكاغو Chicago.

وقد توقف التوسع الأمريكى بعض الوقت، ولكن لم تمض فترة طويلة على عملية غرب فلوريدا حتى تكررت بالنسبة لمنطقة تكساس Texas الواقعة غرب لويزيانا، فهناك تحرك رجال الحدود

الأمريكيون إلى داخل هذه المنطقة التى كانت قبضة المكسيك فيها مهتزة، وانتهى الأمر بضم ولاية تكساس إلى الولايات المتحدة.

وعندما توانى المكسيكيون عن الاعتراف باتحاد تكساس مع الولايات المتحدة، قامت الحرب بين الولايات المتخذة والمكسيك فى عام ١٨٤٦م، وترتب على انتصار الولايات المتحدة فى هذه الحرب توسع آخر فى المساحة الإقليمية لها، فأضيفت إليها كاليفورنيا California، وأجزاء من أريزونا Arizona، ونيومكسيكو New Mexico، ونيفادا Nevada، ويوته Utah

وفى العقد الرابع من القرن التاسع عشر سويت الخلافات التى كانت قائمة بين مين Maine وكندا البريطانية بمعاهدة وبستر - أشبرتون«Webster Ashburton التى أبرمت عام ١٨٤٢م، فأصبحت الحدود الشمالية للولايات المتحدة أكثر دقة ووضوحا. وبنفس هذه المعاهدة أضيفت مساحة كبيرة فى مينيسوتاMinnesota إلى الأراضى الأمريكية.

وإلى أقصى الغرب اتفقت الولايات المتحدة وبريطانيا على ترك أراضى أوريجون Oregon حرة مفتوحة لأهالى كل من الدولتين. وفى عام ١٨٤٦م تم الاعتراف بالخط ٤٩ حدا فاصلا بين أراضى الدولتين، فأصبحت المنطقة الواقعة جنوب هذا الخط - باستثناء جزيرة فانكوفر Vancouver - جزءا من الولايات المتحدة.

وكان العمل الذى اختتم به التوسع نحو الغرب هو شراء جيمس جادسدن Gadsden فى سنة ١٨٥٣م إقليماً صغيراً فى الجنوب الغربى كان ضروريا لإنشاء خط سكة حديد عبر القارة، وهو الآن جزء من أريزونا الجنوبية.

ثم كان شراء الآسكاAlaska من روسيا فى عام ١٨٦٧م، فأخضع للولايات المتحدة منطقة أخرى مهمة.

على هذا النحو استكملت الولايات المتحدة مساحتها أو توسعها القارى قبيل عام ١٨٥٣م - أو عام ١٨٦٧م إذا أدخلنا فى اعتبارنا منطقة الآسكا. وتكون قد ضمت فى خلال سنوات أربع فقط ما يزيد على مليون من الأميال المربعة.

وقبيل نهاية هذه الفترة كانت قد بدت مظاهر الاهتمام داخل الولايات المتحدة بالأراضى التى تقع وراء الحدود الأمريكية. ففى خلال العقد الثالث من القرن التاسع عشر كانت الإرساليات الأمريكية قد مدت نفوذها فى جزر هاواى Hawaiian Island، وسيطرت على الحكومة الملكية هناك التى كان نظامها بدائيا. وفى عام ١٨٥٣م وقعت فعلا معاهدة تقضى بضم الجزيرة إلى الولايات المتحدة، ولكن مجلس الشيوخ لم يصادق عليها. وبعد ذلك بعشرين عاما أبرمت معاهدة مع ملك هاواى ربطت اقتصاد هاواى بالاقتصاد الأمريكى ربطا محكما.

وفى العقد السابع بدأت الحكومة الأمريكية تظهر اهتماما بجزر ساموا Samoa فى جنوبى المحيط الهادى. وفى عام ١٨٨٩م دخلت هذه الجزر فى نوع من الحكم الثلاثى بين الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا، وذلك عندما أرادت ألمانيا الاستيلاء على هذه الجزر. وفى عام ١٩٠٠م، وعلى أثر حرب أهلية نشبت فى الجزر، اقتُسمت بين الولايات المتحدة وألمانيا فقط، وبذلك تم للولايات المتحدة الاستيلاء على ميناء «باجو باجو» المهم فى ساموا.

وفى نفس الوقت، وفى سنة ١٨٨٧م، نالت الولايات المتحدة فى هاواى حق استخدام ميناء بيرل هاربر Pearl Harbor كقاعدة بحرية. وتلى ذلك بعد ١٢ عاما استيلاء الأمريكيين المستوطنين بالجزيرة على مقاليد الحكم، وتحويلها إلى ملْكية الولايات المتحدة.

وفى العقد الثالث، وفى العقد الخامس أيضا، ثم فى الفترة من ١٨٦٨م إلى ١٨٧٨م، ارتفعت الأصوات فى الولايات المتحدة منادية بضم كوبا Cuba، وهو ماتحقق عام ١٨٩٨ كثمرة من ثمار الحرب الأمريكية الأسبانية، التى انتهت بالاستيلاء أيضاً على بويرتو ريكو وجوام والفليبين.

وقد ترتب على انتقال هذه الأمبراطورية إلى الولايات المتحدة دون خسارة تذكر أن أصبحت هذه الدولة من الدول العظمى فى ذلك الحين.

وفى ذلك الحين كانت الولايات المتحدة تعمل على بسط نفوذها وسيطرتها على أمريكا اللاتينية. وقد رأينا فى دراسة سابقة كيف أصدر الرئيس مونرو فى ٢ ديسمبر ١٨٢٣م تصريحه المشهور، الذى أعلن فيه أن أى تدخل من جانب دول أوربا العظمى فى العالم الجديد سوف يعتبر عملا عدائيا نحو الولايات المتحدة تقاومه بالقوة.

وقد تبع هذا التصريح بتصريح آخر، بمناسبة الخلاف مع روسيا حول الشاطئ الغربى، أعلن فيه مونرو «أن القارتين الأمريكيتين بحكم الأحوال المتسمة بالحرية والاستقلال التى وضعناها واحتفظنا بها، لايمكن أن تعتبرا نفسيهما من الآن فصاعدا خاضعتين لأى استعمار فى المستقبل من جانب أية قوة أوروبية».

وفى أواسط العقد الخامس ظهرت عبارة «مبدأ مونرو». وفى العقد السادس، عندما انتهز نابليون الثالث فرصة الحرب الأهلية فى المكسيك لإقامة نظام ملكى فيها تحت إمرة الأمير ماكسمليان Maximilian النمساوى، قاوم الأمريكيون هذه المحاولة باسم «مبدأ مونرو» بمجرد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية، وإن لم يذكر المبدأ بالاسم فى هذا الصدد. ولم يشأ نابليون الثالث الدخول فى الحرب مع الولايات المتحدة، فتراجع، وفشل النظام الملكى الذى أقامه.

وفى السنوات التالية اتسع نطاق مبدأ مونرو، فربط الرئيس هايز Hayes بينه وبين معارضة إنشاء قناة تربط بين المحيطين وتكون تحت رقابة أية دولة أوروبية.

كما أن الرئيس كليفلند Cleveland ذهب إلى أبعد من ذلك فى سنة ١٨٩٥م. فحين وقع النزاع بين بريطانيا وفنزويلا على الحدود بين هذه الجمهورية وجيانا البريطانية، حاولت الولايات المتحدة التوسط، ولما رفضت بريطانيا، وجهت حكومة الرئيس كليفلند مذكرة شديدة اللهجة إلى بريطانيا اتهمتها فيها بمخالفة مبدأ مونرو، ومعلنة حق الولايات المتحدة فى التصميم على الالتجاء إلى التحكيم فى الخلاف، واضطرت بريطانيا عندما اقترب خطر الحرب بين البلدين إلى قبول التحكيم.

وقد مضى الرئيس تيودور روزفلت Theodore Roosevelt خطوة أبعد، حين أكد أن مبدأ مونرو قد يضطر الولايات المتجدة إلى أن تفرض نوعا من قوة البوليس الدولى فى العالم الجديد إزاء الدول المفككة، التى قد يتهددها تدخل القوى الأوروبية إذا لم يفرض هذا النظام البوليسى. وكان ذلك إرهاصا بالدور البوليس الذى تلعبه الآن فى العالم كله!

على كل حال، ففى ذلك الحين، وعلى مدى القرن التاسع عشر كان المجتمع الأمريكى يمر عبر تحولات هائلة على المستويين الاقتصادى والسياسى، حكمتها بصفة رئيسية ظروف الهجرة، واختلاف المناطق الجغرافية، وتنوع أنشطة السكان الاقتصادية. فقد رأينا كيف تركزت الهجرة إلى العالم الجديد فى القسم الشرقى من أمريكا الشمالية، وقد انتشرت هذه الهجرة واقامة المستعمرات من الشمال إلى الجنوب دون ترتيب. ثم انتقلت الهجرة إلى الغرب بعد الاستقلال.

وقد حددت البيئة الجغرافية النشاط الاقتصادى للسكان.

ففى القسم الشمالى، حيث لم تهئ الطبيعة المساحة الكافية من الأراضى الزراعية، اضطر السكان إلى العمل التجارى والصناعى، وتكونت طبقة رأسمالية على جانب كبير من القوة.

وفى الجنوب، حيث كانت توجد المساحات الزراعية الشاسعة تكونت طبقة كبيرة من كبار الملاك.

أما فى الغرب، فقد تكونت طبقة من صغار المزارعين لأسباب تمتزج فيها ظروف الهجرة والبيئة الطبيعية والعوامل السياسية.

وقد ترتب على هذا الاختلاف فى أنشطة السكان الاقتصادية، وارتباطهم بمناطق جغرافية معينة من البلاد، أن التناقضات الطبيعية التى يخلقها عادة اختلاف الأنشطة الإقتصادية، اكتسبت فى الولايات المتحدة صبغة إقليمية خاصة إلى جانب الصبغة الأساسية الاقتصادية، وعلى نحو أدى إلى قيام الحرب الأهلية بين سنتى ١٨٦١ ـ ١٨٦٥م.

فمن ناحية، فإن مصالح الرأسماليين فى الشمال قد أملت عليهم الإلحاح على الكونجرس لإطلاق حرية الهجرة إلى الولايات المتحدة، لكى يتسنى لهم إيجاد عدد كبير من العمال بأجور بخسة، وإقامة الحواجز الجمركية لحماية المصنوعات الناشئة.

كما أضعفت، من جانب آخر، من اهتمامهم باقتناء الرقيق، بل أتاحت لهم النظر إلى مسألة الاسترقاق من زاوية إنسانية، فأصبح

عتق العبيد بصورة تدريجية مبدأ الولايات الشمالية الغربية، ومنع القانون إدخال الاسترقاق فى الجهات التى أصبحت فيما بعد ولايات أوهايوOhio، وانديانا Indiana، وإلينويز Illinois، وميشيجان Michigan، ووسكانسين، Wisconsin .

وفى سنة ١٨٠٨م ألغى الاتجار بالرقيق، وقامت جمعيات لعتق العبيد وإرجاعهم إلى أفريقيا، ونجحت بالفعل فى إعادة بعض الزنوج واستعمارهم ليبريا Liberia فى غرب أفريقيا، وأصبحت ليبريا جمهورية أعلن استقلالها سنة ١٨٤٧.

أما من ناحية كبار الملاك فى الجنوب، فإن مصالحهم قد أملت عليهم معارضة إقرار الحواجز الجمركية، وذلك حتى تتوافر الأسواق التى يمكنهم فيها بيع محصولاتهم بأثمان أعلى، وابتياع حاجاتهم بأسعار أدنى، وقد توافرت هذه الشروط فى أسواق أوروبا، وخاصة إنجلترا.

ومن ناحية أخرى فإن الاسترقاق فى الجنوب كان من الدعائم الأولية فى الاقتصاد - تماماً كما أن العمال فى الشمال كانوا من الدعائم الأولية فى الاقتصاد - ولذلك فقد عارضوا أهل الشمال فى طلبهم منع الاسترقان أيضاً، وأخذت تنمو فى نفوسهم النزعة الانفصالية التى تمثلت فى ذلك الحين فى المدافعة عن حقوق الولايات، ومنع تدخل الحكومة المركزية فى إدارة الشئون الاقتصادية فى البلاد.

وكان من الطبيعى أن يؤيد صغار الملاك فى الغرب مطالب كبار الملاك فى الجنوب، لتماثل الأسباب.

على أنه إلى جانب هذا التناقض بين أهل الشمال من جهة وأهل الجنوب والغرب من جهة أخرى، كان يوجد تناقض آخر بين أهل الغرب من جهة وأهل الشمال والجنوب من جهة أخرى. فعندما أثيرت مسألة الأراضى الغربية وكيفية استيطانها وتوزيعها، أراد صغار المزارعين والصناع الحصول على تلك الأراضى الزراعية دون مقابل. وقد أثار ذلك معارضة كل من أصحاب الصناعات فى الشمال وكبار ملاك الأراضى فى الجنوب، لأن ذلك يؤدى إلى أن يفقد أصحاب الصناعات عمال مصانعهم، ممن يطمعون فى التمليك وانشاء المزارع. كما أنه قد يؤدى - من وجهة نظر كبار ملاك الأراضى - إلى أن يكثر عدد الولايات التى لا تأخذ بمبدأ الاسترقاق، فتصبح السيادة لها، ويفقدون بذلك مكانتهم.

على كل حال فقد كان التناقض الرئيسى هو الذى يتمثل بين الشماليين والجنوبيين، وقد أخذ يتبلور حول مسألة الرقيق. والسبب فى ذلك اقتران هذه المسألة بالقوة الاقتصادية للجنوبيين، وآثارها على امتلاك السلطة السياسية، فبينما أراد الشماليون سلب الجنوبيين مصادر قوتهم الاقتصادية والسياسية. تشبث الشماليون بوجود الرقيق دفاعا عن مصالحهم الاقتصادية، التى كانت تعكس آثارها على نفوذهم السياسى، فقد كان عدد العبيد

فى ذلك الحين يزيد على الأربعة ملايين، وتقدر قيمتهم بعدة ملايين من الدولارات.

فى ذلك الحين كان حزب الويج Whigs يعبر عن مصالح الشماليين، فى حين كان الحزب الديموقراطى يعبر عن مصالح كبار الملاك وصغارهم، وكان الحزب الأخير هو الذى سيطر على الحكومة فى فترة توسع الولايات المتحدة نحو الغرب.

وقد ثار الخلاف حول مشكلة الاسترقاق فى المقاطعات الغربية، فبينما طالب كبار الملاك فى الجنوب بامتداد الاسترقاق إلى الغرب، عارض الشماليون وصغار المزارعين. وعندما عجز حزب الويج عن اتخاذ خط واضح من مشكلة الاسترقاق فى مقاطعتى كانساس Kansas ونبراسكا Nebraska، حين أجاز الكونجرس قانونا لتنظيم الحكومة فى كل منهما، أباح لسكانهما الدخول فى الاتحاد الامريكى بالصيغة التى ترتئيانها مع اتباع الاسترقاق أو العدول عنه - اجتمع فريق مكون من عناصر هذا الحزب ومن عناصر أخرى من الحزب الديموقراطى، التى أنكرت تسلط كبار المزارعين على حزبهم، ومن عناصر أخرى من المزارعين الصغار الذين ساءهم مطالبة الجنوب بامتداد الاسترقاق إلى الغرب - وألفوا فى فبراير ١٨٥٤م الحزب الجمهورى بغرض الحيلولة دون امتداد الاسترقاق إلى المقاطعات الغربية، وكان على رأس هذا الحزب إبراهام لنكولن، فقضى بذلك على حزب الويج.

وسرعان ما مضت الأمور فى طريق الحرب الأهلية، ففى مايو ١٨٦٠م اجتمع الحزب الجمهورى، وتم الاتفاق على ترشيح إبراهام لنكولن Abraham Lincoln للرياسة. ولما كان الديموقراطيون الجنوبيون قد اتفقوا على الانسحاب من الاتحاد الأمريكى إذا تمت الغلبة للنكولين، فحين تحقق ذلك بالفعل أعلنت «ساوث كارولينا»، زعيمة الولايات الجنوبية آنذاك، انسحابها من الاتحاد.

وفى خلال الشهر الأول من السنة التالية ١٨٦١م انسحبت أيضا كل من ولايات المسيسبى وفلوريدا وألاباما Alabama وجورجيا ولويزيانا وتكساس. وفى فبراير ١٨٦١م اجتمع مندوبون عن الولايات السبع واتفقوا على تشكيل الولايات الائتلافية الأمريكية، وانتخبوا جفرسون ديڤيز Jefferson Davis رئيسا مؤقتا.

وفى ١٥ أبريل طلب لنكولن إلى الولايات الموالية تجنيد ٧٥ ألف مقاتل من المتطوعين، فانفصلت على أثر ذلك كل من ولاية فرجينيا ونورث كارولينا وتنيسى Tennessee وأركانساس Arkansas عن الاتحاد، ودخلت فى الائتلاف الجنوبى. وبلغ عدد الولايات الائتلافية عند ابتداء النزاع إحدى عشرة ولاية تقابلها من الشمال ٢٣ ولاية اتحادية. واستمرت الحرب إلى ٩ أبريل ١٨٦٥م وانتهت بانتصار الشمال.

ولقد كان انتصار الشمال الرأسمالى الصناعى إيذانا بسطوة الرأسمالية والاحتكارات الصناعية الأمريكية، فانطلقت الولايات

المتحدة بعد ذلك إلى ماوراء القارة بحثا عن مناطق النفوذ، وبرزت الروح الإمبريالية فى الحرب الأسبانية الأمريكية التى سبق ذكرها، والتى جنت الإمبريالية الأمريكية من ورائها إمبراطورية ضخمة بأقل الخسائر الممكنة، وبها انتقلت الولايات المتحدة إلى مصاف الدول العظمى، وبدأ عهد جديد فى التاريخ الأمريكى.

الفصل الخامس عشر

ظهور اليابان
فى القرن التاسع عشر

اليابـــان
فى القرن التاسع عشر

يمكننا أن نميز ثلاث مراحل فى تاريخ اليابان الحديث: المرحلة الأولى، مرحلة العزلة، وتبدأ منذ طرد البعثات التبشيرية المسيحية فى القرن السابع عشر، حتى منتصف القرن التاسع عشر. وفى هذه المرحلة كانت اليابان فى عزلة عن العالم، عدا مركز تجارى هولندى محدود فى نجازاكى Nagasaki.

أما المرحلة الثانية فتبدأ منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى انقلاب ٣ يناير ١٨٦٨م، وهى مرحلة التعرض للغزو الاستعمارى. وفى أوائل هذه المرحلة كانت الدول الغربية، التى فتحت أبواب الصين بالقوة بعد حرب الأفيون، قد فكرت فى الحصول على ميزات مشابهة فى اليابان، تتمثل فى اتفاقيات تجارية وإمكانية رسو السفن فى الموانى اليابانية.

وكانت دول شمال المحيط الهادى، وهى الولايات المتحدة بعد حربها مع المكسيك، ثم روسيا، على رأس الدول التى أظهرت اهتماما بهذا الموضوع.

وكان الأمريكيون أسبق فى التحرك. ففى ١٨٥٣، ١٨٥٤م زارت السفن الحربية الأمريكية اليابان، وانتزع الكومودور بيرى Perry

فى معاهدة «كانا واجا» فتح ميناء للتجارة الأمريكية، وفى سنة ١٨٥٨م فتحت خمسة موانى جديدة، من بينها يوكوهاما، علاوة على حق الدخول فى علاقات تجارية مباشرة مع الأهالى، وحق التمتع بالامتيازات الأجنبية، والاحتفاظ بتمثيل دبلوماسى لدى الحكومة اليابانية.

ثم حصلت إنجلترا وروسيا وهولندا على اتفاقيات مشابهة. وبذلك انفتحت اليابان للنفوذ الغربى، وتخلت عن سياسة العزلة التى انتهجتها مدة قرنين من الزمان!

وفى الفترة التالية دار الصراع الداخلى فى اليابان بين أنصار العزلة وأنصار الانفتاح. فبينما رأى كبار الإقطاعيين أن الانفتاح يهدد استقلال اليابان، وأن التعامل مع الدول الأجنبية سيحرم الأهالى من المواد الأولية اللازمة لمعيشتهم. كانت حكومة الشوجن Shogun (الحاكم الفعلى ومنصبه وراثى) ترى أن «فن الملاحة والوسائل الحربية والبحرية قد بلغت فى الدول العظمى أقصى نموها، وربما تنتهى حرب ندخلها مع هذه الدول إلى نجاح مؤقت، ولكن حين تهاجم أسلحتها بلادنا، فإننا سوف نخضع للنتائج، التى يسمح لنا بتكهنها المثال الماثل أمامنا فى الصين»!.

على أن جماهير الشعب حسمت الموقف بسبب ما أحست به سريعا من مساوئ فتح الأبواب للأجنبى فى المجال الاقتصادى خاصة، لأن عمليات الشراء التى قام بها الأجانب قللت من توافر المواد الأولية، وأدت إلى اختفاء قطع العملة الذهبية، لأن الأجانب

اشتروا قطع الذهب لتباع فى الولايات المتحدة وأوروبا بربح وصل إلى ٥٠٪.

فارتفعت ــ من ثم ــ صيحة طرد الأجانب ضد حكومة الشوجن أولاً، وتمثلت في حوادث اغتيال الوزراء، ثم اتجهت إلى الأجانب، فوقعت اثنتا عشرة عملية اغتيال فيما بين عامى ١٨٥٩، ١٨٦٢م مع حرق سفارتين.

وأخيرا أعطى الإمبراطور فى ٥ يونيو ١٨٦٣م أمره للشوجن بطرد البرابرة، وحدد للتنفيذ يوم ٢٥ يونيه.

على أن الدول الغربية سارعت بالتدخل، فقام الأسطول الإنجليزى بضرب مدينة «كاجوشيما»، وتوغلت الأساطيل الفرنسية والأمريكية فى مضيق سيمونوسيكى، الذى كان قد منع على السفن التجارية الأجنبية، وقامت بضرب القلاع وتحطيمها.

واضطر الإمبراطور إلى سحب مرسوم طرد الأجانب فى ٣٠ سبتمبر ١٨٦٣م. وعندما رفض التصديق ــ مع ذلك ــ على معاهدات ١٨٥٨م، قامت الأساطيل الغربية بمظاهرة بحرية جديدة أمام «أوساكا Osaka»، فاضطر الإمبراطور إلى التصديق، بل وحتى على قبول إضافات للمعاهدات فى ٢٤ نوفمبر ١٨٦٤م!

على أن الصراع أدى إلى انهيار النظام الشوجنى ليفسح الطريق أمام إعادة السلطة للعرش. وقد حدث ذلك بعد تولى الإمبراطور «موتسوهيتو» Mutsuhito العرش فى ٣٠ يناير ١٨٦٧م،

والذى كان مستشاروه من أنصار الانفتاح يرغبون فى إعادة تنظيم الحكومة والإدارة على أسس حديثة.

ففى ٣ يناير ١٨٦٨م استقال الشوجن فيما يشبه الانقلاب، وتنازل قادة الجيوش الإقطاعيون عن سلطاتهم شبه المستقلة، وألغى نظام الشوجنية، وأعلن عودة الحكم الإمبراطورى المباشر. وبعد الانقلاب مباشرة صدر مرسوم إمبراطورى يأمر الشعب اليابانى بالاعتراف بالحقوق والامتيازات التى منحت للأجانب.

وهنا نلاحظ أن الصراع بين الشوجنية والإمبراطورية لم يكن بين سياسة الإنغلاق والانفتاح، لأن الشوجنية كانت من أنصار الانفتاح، مثلها فى ذلك مثل الإمبراطورية.

ومعنى ذلك أن المسألة كانت صراعا على السلطة لا على المبادئ، وكان الانهيار الذى أصاب نظام الشوجنية بسبب سخط الشعب عليها لسياسة الانفتاح، هو الذى أغرى أنصار السلطة الإمبراطورية على هدمها لصالح الإمبراطورية.

وعلى هذا النحو تكون إحدى النتائج المهمة للتدخل الاستعمارى فى اليابان هو سقوط نظام الشوجنية، الذى ظل فى أسرة توكو جاوا من ١٦٠٠م، وعودة السلطة الفعلية للإمبراطور. وسيكون لذلك بدوره آثار حاسمة فى المرحلة التالية.

فى بداية المرحلة الثالثة لتاريخ اليابان الحديث، وهى التى تبدأ من ٣ يناير ١٨٦٨م، تكون سياسة الانفتاح على الغرب هى السياسة المقررة.

ولكن هناك فارقا مهما بين هذه السياسة وسياسة الانفتاح فى الصين. فبينما كانت هذه السياسة فى الصين تطبق على أساس فتح أبواب البلاد للنفوذ الأجنبى، مع احتفاظ البلاد بحياتها التقليدية، فقد كانت فى اليابان شيئاً آخر - هذا الشئ هو تجديد حياة البلاد ذاتها، وانتهاج أسلوب الحياة الغربية، والأخذ بالنظم الغربية، واستيحاء طرق الغربيين ووسائلهم التقنية، والانتقال من مستوى التخلف إلى التقدم.

وقد أقبلت اليابان على ذلك بمثابرة غربية، وبسرعة فائقة نقلتها فى أقل من ربع قرن من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة كدولة من الدول العظمى، بل ودولة استعمارية كبيرة!

فقد أعيد تنظيم الأسطول اليابانى على نمط الأسطول البريطانى، ودرس قادة الجيش اليابانى الأساليب البروسية وساروا عليها، واقتبس رجال التربية الطرق الأمريكية، وطبقت محاكم القضاء والقوانين اليابانية الإجراءات الفرنسية والألمانية، وأصبحت اليابان فى عام ١٨٨٩م دولة دستورية لها مجلس نواب منتخب ومجلس للأمراء شبيه بالبرلمانات الأوروبية. وأعيد تنظيم الصناعة اليابانية بسرعة فائقة، وأرسلت بعثات من الطلبة إلى الخارج لدراسة الأساليب الفنية الغربية والتمكن منها، ولما عادت أخذت تخطط للسكك الحديدية وترسانات صناعة السفن والمصانع والبنوك والفنادق والمخازن الحكومية والصحف. وقلما شهد التاريخ أمة تكرس نفسها لمثل هذه المثابرة على هذا النحو.

ولم تلبث السياسة الخارجية اليابانية أن أخذت تنهج نفس النهج الاستعماري للدول الاستعمارية التى قاسته على أيديهم! وكان وجود الروس بقربهم فى سيبيريا الشرقية وفى المناطق البحرية قد دفعهم إلى المزيد من الاهتمام بالقوات المسلحة. وقد انصب اهتمامهم على إنشاء جيش وأسطول حديثين، وقد بلغ عدد الجيش فى عام ١٨٩٠م ـ ٢٤٠ ألف جندى فى وقت السلم، وأما البحرية، التى كانت غير موجودة تقريبا فى سنة ١٨٦٩م، فإنها قد أنشئت فى عشرين عاما. وفى سنة ١٨٨٦م أنشأ مهندس فرنسى أحواض صناعة السفن اليابانية.

ثم أخذت اليابان تتجه نحو التوسع تحت حجة دواعى الأمن! ونجحت فى الاستيلاء على الجزر التى يمكن أن تصبح قواعد عمليات ضد الأرخبيل اليابانى فى حالة وقوعها فى أيدى إحدى الدول العظمى. فقامت فى سنة ١٨٧٣م باحتلال جزر أوجا ساوارا Ogasawara التى كانت تحت العلم الأمريكى. وتخلت حكومة واشنطن عن هذا الأرخبيل بدون صعوبة للسيادة اليابانية.

وفى سنة ١٨٧٥م سيطرت على ريوكيو، التى كانت تابعة فى أوائل القرن ١٧ لأحد كبار الإقطاعيين اليابانيين، وأعلنت ضمها بعد أربع سنوات، رغم احتجاجات الحكومة الصينية.

وفى سنة ١٨٧٥م حصلت الحكومة اليابانية عن طريق المفاوضات على جزر كوريل Kuril التى كان للروس عليها بعض

المنشآت، وتخلت الحكومة اليابانية فى نظير ذلك عن كل جزيرة سخالين Sakhalin لروسيا، والتى كانت خاضعة لنظام حكم مشترك روسى - يابانى منذ سنة ١٨٦٧م، كان مصدر مشكلات مختلفة.

وفى كوريا Korea استخدمت اليابان الأساليب التى انتهجها الاستعماريون نحوها منذ عشرين عاما. فحصلت فى فبراير ١٨٧٦م، تحت تهديد مظاهرة بحرية، على معاهدة تجارية مع ملك كوريا، تضمن لليابانيين الوصول إلى موانى كوريا الثلاثة، وتمنحهم نظاما للامتيازات القضائية. وفى يوليو ١٨٩٤م انتهزت اليابان فرصة اضطرابات فى كوريا فى أول أغسطس ١٨٩٤ لكى تقوم بإنزال قواتها فى هذه المملكة الخاضعة للإمبراطورية الصينية. وفى هذه الحرب اليابانية الصينية، ظهر تفوق جيش وبحرية اليابان.

وفى عام ١٨٩٥م، وبعد أن احتل اليابانيون كوريا وكذلك منشوريا الجنوبية ونجحوا فى النزول فى فورموزا Formosa، أخذوا يستعدون للهجوم على بكين Peking فاضطرت الحكومة الصينية فى ١٧ أبريل ١٨٩٥ إلى توقيع معاهدة Shimonoseki مع اليابان التى تخلت فيها عن سيادتها الاسمية على كوريا، وتنازلت عن فرموزا، وشبه جزيرة لياو تونج Liaotung فى منشوريا الجنوبية Monchuria.

على أن وجود اليابان فى شبه جزيرة لياوتونج قد وضعها فى مواجهة المشروعات الروسية. ولذلك فقد فرضت حكومة القيصر، بتأييد فرنسا وألمانيا، أمر إعادة النظر فى المعاهدة، فبقيت شبه الجزيرة مفتوحة للتوسع الروسى.

على أن اصطدام مصالح الدولتين فى منشوريا وكوريا لم يلبث أن أدى إلى قيام الحرب اليابانية ـ الروسية فى ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥م. واستعدادا لهذه الحرب، وخوفا من حصول الروس على تأييد القوات البحرية الفرنسية لوجود علاقات تحالف بينهما، دخلت اليابان فى تحالف مع بريطانيا فى يناير ١٩٠٢م.

ولم تلبث أن قامت بالهجوم على الأسطول الروسى فى بورت آرثر Port Arthur فى ٨ فبراير ١٩٠٤م، فضمنت السيطرة البحرية. وتفوقت الجيوش اليابانية فى العمليات الحربية فى منشوريا، وقضت على الأسطول الروسى الذى كان قد حضر من أوروبا فى ٢٧ مايو ١٩٠٥م فى مضيق كوريا.

ومع أن الجيش الروسى كان فى حالة تسمح له بمواصلة المقاومة، ولكن ثورة ١٩٠٥م أجبرت القيصر على طلب الصلح، الذى تم بوساطة الولايات المتحدة، وبمقتضاه أعطت معاهدة السلام التى عقدت فى «بورتسموث» Portsmouth، اليابان بورت آرثر، والخط الحديدى فى جنوب منشوريا، وكذلك جنوب سخالين، وسمحت لها بإقامة حمايتها على كوريا.

وكان هذا أول انتصار يحصل عليه شعب أصفر على البيض منذ بداية التوسع الأوروبى، وسمح لليابان بأن تضع أقدامها بثبات على القارة الآسيوية.

وفى عام ١٩١٣م كان الأسطول اليابانى يعد رابع أسطول فى العالم، وكان فى نفس مستوى القوات البحرية للولايات المتحدة تقريبا.

الفصل السادس عشر

ظهور التحالفات الأوروبية
قبل الحرب العالمية الأولى

ظهور التحالفات الأوروبية قبل الحرب العالمية الأولى

كان من أثر تحقيق الوحدتين الإيطالية والألمانية فى عام ١٨٧٠م، بروز دولتين عظميين إلى جانب الدول العظمى الاستعمارية القديمة، تطالبان بنصيبهما من المستعمرات، وتشاركان فى التنافس الاستعمارى. وفى الوقت نفسه ازدادت التناقضات الأوروبية القديمة، وازدادت معها أسباب فقدان الثقة والشك بين دول أوروبا.

وفى عصر يسود فيه مبدأ تحكيم القوة بشكل مطلق فى النزاع، أخذت تظهر سياسة الأحلاف الأوروبية الكبرى التى اصطنعها بسمارك، والقائمة على مبدأ توازن القوى، وبمقتضاه إذا نما حلف إلى درجة تهدد الحلف المنافس بالخطر، سارع هذا إلى تكوين حلف مضاد أقوى أو يوازيه فى القوة. وفى الوقت نفسه بدأ سباق التسلح بين التحالفات الكبرى على النحو الذى أدى إلى نشوب الحرب العالمية الأولى.

كانت الدول الكبرى قبل بروز ألمانيا وإيطاليا كقوتين كبيرتين تنقسم آحادا، ولكن خوف بسمارك من انتقام فرنسا لهزيمتها فى

حرب السبعين، دعاه إلى التودد إلى إمبراطورية النمسا والمجر، التى كان قد جاملها مجاملة عظيمة بعد سادوا. كما عقد أواصر الصداقة مع روسيا التى كان لحيادها فى الحروب الأوروبية أكبر الأثر فى تحقيق الوحدة الألمانية.

ومن هنا تكون الوفاق entente الذى عرف باسم «عصبة الأباطرة الثلاثة» Three Emperors' League فى برلين فى ١٢ سبتمبر ١٨٧٢م، وبه تمت عزلة فرنسا.

على أن التنافس الاستعمارى بين دول هذه العصبة لم يلبث أن أدى إلى تفسخها. وبالنسبة لألمانيا فقد كانت تسعى إلى استغلال موارد آسيا الصغرى، ومد خط سكة حديد برلين - بغداد، وإحراز التفوق الدبلوماسى فى القسطنطينية - وهى السياسة التى عرفت باسم: «الاندفاع نحو الشرق» Drang nach Osten. ولكن هذه السياسة كانت تتصادم مع مصالح روسيا التى كانت تسعى إلى السيطرة على بلغاريا والاستيلاء على القسطنطينية وضمها، وتقويض الإمبراطورية العثمانية ما أمكن. فى حين كانت إمبراطورية النمسا والمجر - على العكس من ذلك - ترغب فى اهتضام الصرب وضم سالونيك، لكن مع الاحتفاظ بالإمبراطورية العثمانية ما أمكن.

فلما انتصرت روسيا على الدولة العثمانية فى الحرب الروسية التركية (ابريل ١٨٧٧ - مارس ١٨٧٨م) وقف بسمارك فى وجه السياسة الروسية فى مؤتمر برلين (١٣ يونية ١٨٧٨م) وأرغمها مع

الدول على تضحية مصالحها السلافية، فى حين عزز مطالب النمسا وأيد مطامعها فى البلقان، الأمر الذى أخذ القيصر معه ينسحب من العصبية تدريجيا، حتى انتهى الوفاق فى عام ١٨٨٧م قبل سقوط بسمارك بثلاثة أعوام.

على أن انسحاب روسيا التدريجى من الوفاق أدى ببسمارك إلى تعزيز علاقاته مع النمسا عن طريق إبرام معاهدة التحالف الثنائى بين ألمانيا والنمسا فى ٧ أكتوبر ١٨٧٩م The Austro - German Treaty، وهو التحالف لذى كان من ناحية الشكل حلفا دفاعيا، ولكنه نص على أنه إذا انضمت روسيا إلى فرنسا فإن الدولتين تعملان معا. وقد جدد هذا الحلف فى ١٨٨٣م، وفى فترات متعاقبة بعدها، وبعد عام ١٩٠٢م أصبح يتجدد من تلقاء نفسه فى نهاية كل ثلاث سنوات حتى عام ١٩١٤م.

على أن هذا التحالف الثنائى لم يلبث أن تحول إلى تحالف ثلاثى Triple Alliance Treaty بانضمام إيطاليا إليه فى ٢٠ مايو ١٨٨٢م، بعد أن أعلنت فرنسا حمايتها على تونس سنة ١٨٨١م، وأخذت تعمل للاستيلاء على أفريقيا الشمالية. فقد كان من أثر ذلك أن نشأ تناقض فى المصالح بين فرنسا وإيطاليا التى كانت ترغب فى السيطرة على الشاطئ المواجه لشواطئها وكانت تعتبر تونس مستعمرتها المرتقبة.

ومن هنا، وعلى الرغم من العداء التاريخى بين إيطاليا والنمسا – مما ورد ذكره فى فصل الوحدة الإيطالية ـ وعلى الرغم

من وجود تناقض فى المصالح معها فى شبه جزيرة البلقان، وشرق البحر المتوسط، والأراضى الإيطالية التى كانت ماتزال فى حوزة النمسا، فإن عامل التنافس الاستعمارى بين إيطاليا وفرنسا كان هو الذى تغلب، ودفع إيطاليا إلى الانضمام إلى التحالف الثنائى فى ٢٠ مايو ١٨٨٢م فى فيينا ليصبح حلفا ثلاثيا. وقد نص على أن تساعد النمسا وألمانيا إيطاليا فى حالة هجوم فرنسا عليها، وأن تساعد إيطاليا ألمانيا إذا هاجمتها فرنسا، أما فى حالة هجوم روسيا وفرنسا على واحد أو اثنين من الأطراف الموقعة فيجب أن تدخل كل الدول الموقعة الحرب متحدة.

وعلى هذا النحو ربط بسمارك ألمانيا بمعاهدات تحالف ودفاع ضد كل من روسيا وفرنسا فى نفس الوقت، وأصبح آمنا فى أوروبا.

فى ذلك الحين كانت مصالح روسيا وفرنسا قد أخذت تتقارب على الرغم من اختلاف النظام السياسى فى كل منهما. ففى حين كان هذا النظام فى روسيا ملكياً رجعياً، كان فى فرنسا جمهورياً ديموقراطياً، ولكن حاجة فرنسا إلى حليف ضد ألمانيا دفعها إلى التفكير فى روسيا. وفى نفس الوقت كانت روسيا فى حاجة إلى الأموال الفرنسية لإتمام مد شبكة السكك الحديدية، خصوصا مشروع سكة حديد سيبريا الذى يخترق آسيا إلى المحيط الهادى. وقد أدى هذا الاقتراب إلى إبرام وفاق ودى روسى فرنسى Entente Cordiale فى أغسطس ١٨٩١م.

وفى ٢٧ ديسمبر ١٨٩٣م ألحق بهذا الوفاق ميثاق عسكرى يقضى بمساعدة روسيا لفرنسا إذا هاجمتها ألمانيا، أو إيطاليا بمساعدة ألمانيا، ووعدت فرنسا باستخدام مليون وثلاثمائة ألف جندى، وتستخدم روسيا سبعمائة إلى ثمانمائة ألف جندى، ضد ألمانيا. وبهذا اكتمل الحلف الثنائى The Dual Alliance عمليا، وإن لم يكتشف نهائيا إلا فى عام ١٨٩٥، ليقف فى مواجهة التحالف الثلاثى The Triple Alliance . وهكذا انقسمت أوروبا إلى معسكرين.

وفى السنوات العشر التالية كانت الأحداث فى أوروبا تدفع إلى تحالفات أخرى. ففى أول أغسطس ١٨٩٤م شنت اليابان الحرب على الصين، وانتزعت منها بمعاهدة شيمونوسيكى Shi-monoseki فى ١٧ أبريل ١٨٩٥م جزيرة فورموزا وشبه جزيرة «لياوتونج»، بما فيها بورت آرثر التى كانت روسيا تتحرق طمعا فيها.

وقد أزعج هذا الانتصار كلا من روسيا وفرنسا وألمانيا خشية قيام دولة كبرى فى الشرق الأقصى، فقدمت الدول الثلاث طلبا جماعيا إلى اليابان فى ٢٣ أبريل ١٨٩٥م بالانسحاب من شبه جزيرة «لياوتونج» وبورت آرثر، فانصاعت اليابان، وتقدمت روسيا فاستولت على بورت آرثر، فحصلت على ميناء فى المياه الدافئة، الأمر الذى دفع اليابان إلى محاولة الانتقام منها، واتجه بها إلى إنجلترا لكسب حيادها وتأييدها.

وفى الوقت نفسه كانت العلاقات بين إنجلترا وروسيا تتأثر بموقف روسيا المعادى لإنجلترا فى حرب البوير، التى قامت بين انجلترا وبين جمهوريات البوير فى الترنسفال Transvaal وولاية الأورنج الحرة Orange Free State، حتى فكرت روسيا فى التدخل. فقد أخذت إنجلترا تفتش عمن يستطيع موازنة النفوذ الروسى فى شمال الصين وفى الوقت نفسه يتيح لها فرصة سحب بعض قطع أسطولها من الشرق الأقصى لتعزيز قوات البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى وتعزيز أسطولها فى بحر الشمال لمواجهة ألمانيا.

.. وكان ذلك فى الوقت الذى كانت اليابان تعد نفسها للحرب مع روسيا، عن طريق التحالف مع دولة كبرى.

لكل هذه العوامل وقعت إنجلترا مع اليابان فى ٣٠ يناير ١٩٠٢م معاهدة تحالف إنجليزية يابانية The Anglo-Japanese Alliance يعترف فيها كل من الطرفين بالأمر الواقع فى شرق آسيا، وخاصة فى كوريا والصين، وتتعهد بريطانيا بالتزام الحياد فى حالة وقوع حرب بين روسيا واليابان، وإذا تدخلت دولة أخرى (فرنسا) لمساعدة روسيا، تتدخل انجلترا لمساعدة حليفتها بقوة السلاح.

وقد أتاح هذا التحالف لليابان الانتصار فى الحرب التى شنتها ضد روسيا فى ١٠ فبراير ١٩٠٥م، إذ حال دون إقحام ألمانيا وفرنسا نفسيهما فى الحرب.

وفى ٥ سبتمبر ١٩٠٥م وقعت معاهدة بورتسماوث Portsmouth للصلح بين روسيا واليابان، وبمقتضاها كان على روسيا أن

تسلم بورت آرثر وكوريا ومنشوريا ونصف جزيرة سخالين لليابان. وقد تجدد التحالف الإنجليزى اليابانى لخمس سنوات فى ١٢ أغسطس ١٩٠٥م.

فى الوقت الذى دفعت الظروف الدولية إلى إبرام التحالف الإنجليزى اليابانى، كانت تدفع من جهة أخرى إلى إبرام الوفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا فى ٨ إبريل ١٩٠٤م. وكان العداء بين إنجلترا وفرنسا معروفا بسبب وقوف فرنسا ضد المطامع الاستعمارية الإنجليزية فى مصر من جانب، ووقوف إنجلترا موقف المعارض لجهود فرنسا الاستعمارية فى آسيا وفى أفريقيا من جهة أخرى. وقد بلغ التنافس ذروته فى «حادثة فاشودة» عندما تقدم «كتشنر» على رأس الجيش المصرى إلى أعالى النيل، وتقدم «مارشان» قائد الجيوش الفرنسية من غرب أفريقيا إلى فاشودة، ووقف الفريقان وجها لوجه فى ١٩ سبتمبر ١٨٩٨م، واضطرت فرنسا إلى إخلاء فاشودة، وإلى تحديد مناطق النفوذ البريطانى فى السودان فى ديسمبر ١٨٩٨م.

على أن الخطر الألمانى الناشئ من سياسة ألمانيا البحرية وتقدمها الصناعى والحربى ونزعتها إلى الفتح والاستعمار والتسلط على أسواق العالم، لم يلبث أن أخذ يدفع بإنجلترا إلى تسوية خلافاتها مع فرنسا، وتسوية المشاكل المختلف عليها فى الأرض الجديدة «نيوفوند لاند» New foundland وفى سيام Siam ومدغشقر Madagascar وغيرها، وأيضا تسوية المشاكل المتعلقة

بمصر ومراكش، على أساس اعتراف الدولتين بالحقوق المتبادلة لإنجلترا فى مصر ولفرنسا فى مراكش، فكان من هنا أن عقد الوفاق الودى Entente Cordiale بين إنجلترا وفرنسا فى ٨ أبريل ١٩٠٤م الذى شمل تسوية كل هذه المشاكل.

على هذا النحو أقلعت بريطانيا عن سياسة «العزلة المجيدة» Splended isolation عن دول القارة الأوروبية، بعد أن أحست بخطرها خلال حرب البوير (١٨٩٩ - ١٩٠٢م)، وأدركت أن التنافس مع فرنسا فى شمال أفريقيا ومع روسيا فى وسط آسيا يكلفها غاليا.

وفى ٣١ أغسطس عام ١٩٠٧م كان الوفاق الإنجليزى الفرنسى قد أدى إلى وفاق إنجليزى روسى The Anglo-Russion Entente تم بمقتضاه توزيع النفوذ بين الدولتين فى إيران، واعتراف روسيا بالمصالح البريطانية فى أفغانستان، ووعد كل من الدولتين باحترام وحدة أراضى مقاطعة التبت Tibet الصينية. وبذلك تحول الوفاق الودى الثنائى إلى وفاق ثلاثى يضم إنجلترا وفرنسا وروسيا An-glo-French-Russian Entente.

وبهذا انقسمت أوروبا مرة ثانية بين دول الوفاق الثلاثى الذى يضم إنجلترا وفرنسا وروسيا، ودول الحلف الثلاثى الذى يضم ألمانيا والنمسا وإيطاليا.

على أن روابط إيطاليا بالحلف الثلاثى كانت واهية. فمنذ عام ١٨٩٦م أبلغت إيطاليا حليفتيها بأنها لن تحارب معهما إذا كانت الحرب ضد بريطانيا وفرنسا. وفى عام ١٩٠٢م تعهدت إيطاليا فى معاهدة ألا تشترك فى هجوم على فرنسا. وعندما قررت النمسا فى ٧ أكتوبر عام ١٩٠٨م ضم البوسنة والهرسك العثمانيتين، اللتين كانتا تحت إدارتها بمقتضى معاهدة برلين ١٨٧٨م، مع معارضة الصرب هذا الضم، انتهزت ايطاليا الفرصة لتحقيق مطامعها فى برقة وطرابلس، عن طريق عقد اتفاق سرى مع روسيا ينص على تعاون الدولتين فى منطقة الشرق الأدنى ضد النمسا والمجر، وتأييد إيطاليا مطالب روسيا فى فتح المضايق بالبوسفور والدردنيل أمام السفن الروسية، وتعهدت روسيا بتأييد مطالب إيطاليا فى برقة وطرابلس.

والمهم هو أنه منذ عام ١٩٠٠م أخذ الصراع فى أوروبا يتخذ شكل تكتلات بعد أن كان فى الماضى يتخذ شكلا انفراديا، بمعنى أن الصراع لم يعد بين دول منفردة، وإنما بين تكتل فى مواجهة تكتل، وهو أمر جديد.

ففى الفترة من ١٨٧٠ إلى ١٩٠٦م كان هناك تهديد بالحرب بين دولتين، ولكنه لم يتخذ شكل تهديد بالحرب بين كتلتين، أى شكل تهديد بحرب عالمية. فقد كان هناك تهديد بالحرب بين روسيا والنمسا ١٨٨٦ – ١٨٨٨م، وبين روسيا وبريطانيا فى ١٨٧٧ و

١٨٨٥ و ١٨٩٨م، وبين إنجلترا وفرنسا فى ١٨٩٨م، وبين ألمانيا وفرنسا فى ١٨٧٥ و ١٨٨٧ و ١٩٠٥م ـ ولكن هذا التهديد كان منحصرا فى الدولتين موضع النزاع، وكانت أوروبا متحدة تهدئ عادة من ثائرة الطرفين المتصارعين.

ولكن بعد عام ١٩٠٦م أصبح الصراع بين تحالفين. فقد وقعت منذ ذلك الحين أزمات بانتظام كل عام أو عامين حتى سنة ١٩١٤، وفى كل منها كان الوفاق الإنجليزى الفرنسى الروسى يواجه الحلف الألمانى النمساوى الإيطالى.

وقد كانت أخطر هذه الأزمات فى المغرب والبلقان. ففى المغرب كانت سيطرة الفرنسيين الاقتصادية قد استفزت الإمبراطور وليم الثانى، فتوقف بميناء طنجة فى ربيع ١٩٠٥م، وزار سلطان المغرب، وألقى خطابا دعا فيه إلى حرية التجارة وضمان حقوق متساوية لجميع دول المغرب.

ثم دعت الخارجية الألمانية إلى عقد مؤتمر لجميع الدول، وقد عقد المؤتمر فى الجزيرة الخضراء يوم ١٦ يناير ١٩٠٦م، وحضره مندوبو اثنتى عشرة دولة، وسرعان ما تحول إلى صراع دبلوماسى بين فرنسا وألمانيا، وفى هذا الصراع لقيت فرنسا التأييد الصريح من حليفتها روسيا وصديقتها الجديدة إنجلترا بمقتضى «الوفاق الودى»، وأيدتها من «دول الحلف الألمانى النمساوى الإيطالى» إيطاليا.

وحدث تقارب روسى إنجليزى بسبب تأييد الدولتين لفرنسا، ترتب عليه تحول الوفاق الودى فى أغسطس ١٩٠٧م إلى وفاق ثلاثى. ولم يؤيد ألمانيا سوى حليفتها النمسا، وكفلت فرنسا لنفسها العمل بمفردها فى المستقبل.

وفى هذا المؤتمر ظهر احتمال قيام حرب بين ألمانيا وبين كل من فرنسا وإنجلترا، وبحث العسكريون فى الدولتين الخطط المحتملة لهذه الحرب.

أما الأزمة الثانية فقد وقعت فى البلقان بعد عامين، أى فى عام ١٩٠٨م. وكانت المشروعات القومية فى البلقان تمثل قنبلة موقوتة فى ذلك الحين. فقد كان لكل دولة بلقانية أحلامها القومية. فاليونان كانت تأمل فى الاستيلاء على تراقيا وبعض جزر بحر إيجة وأجزاء من آسيا الصغرى، لتسترجع الإمبراطورية البيزنطية القديمة، وبلغاريا كانت تأمل فى الحصول على مقدونيا وتراقيا لتستكمل حدودها وتحصل على منفذ كاف على بحر إيجة. وأما رومانيا فكانت تطالب بضم ملايين الرومانيين فى ترانسلفانيا Transylvania وأجزاء من بساربيا Bessarabia. والصرب كانت تأمل فى تحرير أبناء جنسها داخل إمبراطورية هابسبرج، كما كانت تطمع فى الحصول على مراكز فى بحر الأدرياتيكى لتنفيذ مشروع الصرب الكبرى. وكانت إمبراطورية النمسا والمجر تقف فى وجه كل هذه الأمانى القومية.

وقد انفجر الموقف عندما قررت إمبراطورية النمسا والمجر ضم البوسنة والهرسك كما ذكرنا، وفى الوقت نفسه حرضت بلغاريا على إعلان استقلالها عن الدولة العثمانية.

فلما كان هذا الإجراء الذى اتخذته النمسا يتعارض مع معاهدة برلين ١٨٧٨م، فقد اقترح الوزير الروسى «إسفولسكى » Isvolsky عقد مؤتمر دولى للنظر فى نتائج ضم المقاطعتين العثمانيتين، اللتين كان سكانهما سلاف. وقام هياج عنيف فى الصرب، إذ لم يكن لضم النمسا البوسنة والهرسك من معنى إلا إبعاد مليون صربى عن وطنهم الأم إبعادا أبديا، وانضمامها إلى الملايين الخمسة من الصربيين الكرواتيين الخاضعين لحكم النمسا والمجر.

وكانت روسيا تأمل من مطالبتها بعقد مؤتمر أوروبى، أن تحصل على موافقة الدول على حرية مرور سفنها فى مضيقى البوسفور والدردنيل، تعويضا عن استيلاء النمسا على البوسنة والهرسك. وفى ديسمبر ١٩٠٨م، أعلنت التعبئة لكى تحتفظ بهيبتها لدى شعوب البلقان.

وعلى هذا النحو بدت الحرب وشيكة الوقوع، وكان وزير خارجية روسيا «إسفولسكى» Isvolsky يأمل فى وقوف حليفتيه إنجلترا وفرنسا إلى جواره، ولكن فرنسا لم تبد تحمسا لدخول الحرب تأييدا لروسيا فى قضية لم يؤخذ رأيها فيها، وفى الوقت

نفسه رفض اللورد جراى Gray فى إنجلترا أن يقطع عهدا لوزير خارجية روسيا بخصوص إعادة النظر فى البنود المتعلقة بالمضايق فى المؤتمر المزمع عقده، ونصح النمسا بإعادة النظر فى موقفها حتى يمكن تجنب عقد المؤتمر، وبالتالى تعويض روسيا.

وهنا قدم إيرنتال Aerenthal وزير خارجية النمسا حلا لإنقاذ ماء وجه الدول التى طلبت عقد المؤتمر، وهو دفع مبلغ مليونين ونصف جنيه تعويضا للسلطان من ممتلكاته الخاصة فى البوسنة، ورتبت بلغاريا الأمر كذلك على أن تدفع لتركيا تعويضا عن فقدانها حق السيادة عليها قدره خمسة ملايين من الجنيهات، وهو نصيبها فى «اكسبرس الشرق». وقد أنقذ هذا الحل ماء وجه روسيا، التى سارع وزير خارجيتها إسفولسكى بعرض تعويض تركيا بإنقاص هذا المبلغ من تعويضات الحرب التى لم تدفعها تركيا لروسيا.

وعلى هذا النحو فقد المؤتمر الأوروبى مبرر عقده، واقترحت الحكومة الألمانية على روسيا فى ١٧ مارس ١٩٠٩م أن يعلن «ايرنتال» قبول تركيا الضم، واقترحت على الدول أن تتبادل مذكرات تعترف فيها بكل ما حدث.

وعندما راوغ اسفولسكى فى قبول الاقتراح، طالبته الحكومة الألمانية برد قاطع، وهو ما يعنى تقديم إنذار نهائى! وأفهم الإمبراطور الألمانى وليم قيصر روسيا يوم ٢٣ مارس ١٩٠٩ أنه إذا كان ينوى أن يخوض حربا فى هذه الأزمة البلقانية، فعليه أن يحسب حساب ألمانيا!

وكان هذا التهديد كافيا، فقد قبل «اسفولسكى» الضم، وأذاعت الحكومة الألمانية فى الدول الكبرى نشرة تطلب فيها اعترافها كما فعلت ألمانيا وروسيا.

وقد قبلت فرنسا وإيطاليا الطلب الألمانى بشىء من الاحتجاج، أما «سير ادوارد جراى» فقد أعلن أن الاعتراف بالضم يجب أن يعقب تسوية الأمور بين النمسا والصرب، لا أن يسبقها، وبذلك توقف الأمر على موقف الصرب.

على أنه لم يكن فى وسع الصرب مقاومة النمسا بعد استسلام إسفولسكى، خصوصا وكان دعاة الحرب فى النمسا وقتذاك يروجون لفكرة أن «هذه إنما هى اللحظة المواتية لمواجهة الأفعى الصربية فى جحرها، وأن الحرب مع الصرب آتية لا محالة ومن الأفضل التعجيل بها»! وقدمت إنذارا نهائيا للصرب.

ولكن إنجلترا أقنعت إيرنتال بتأجيل الإنذار النهائى إلى آخر مارس ١٩٠٩م، وهنا أرسلت الصرب مذكرة إلى «إيرنتال» تقر فيها بأن ضم النمسا للبوسنة ليس فيه أى اعتداء على حقوقها، ووافقت على إنقاص جيشها إلى ما كان عليه فى عام ١٩٠٨م، ووعدت أن تتقبل الوضع القائم، والكف عن الدعاية المثيرة فى أراضى النمسا والمجر.

وبذلك انتهت الأزمة، التى هزت النظام القائم فى أوروبا هزا عنيفا، بانتصار التحالف الألمانى النمساوى على الوفاق الثلاثى

الروسى الفرنسى الإنجليزى، وحق للإمبراطور الألمانى بعد عام أن يزهو بأن النمسا حظيت بالعون من حليف مخلص وقف إلى جانبها ساعة الشدة بكامل عدته وسلاحه.

على أن الطريقة التى هزم بها الوفاق الثلاثى الروسى الفرنسى الإنجليزى، قربت ساحة الحرب بدرجة كبيرة، فقد هُزمت روسيا تحت تهديد السلاح الألمانى، ومنيت بالمهانة، وكان على الوفاق الثلاثى ألا يسمح بحدوث ذلك مرة أخرى، وجاءت أزمة أغادير فى يوليو ١٩١١م لتهيئ الفرصة لذلك.

ففى أبريل عام ١٩١١م انتهزت فرنسا فرصة الوضع الداخلى فى المغرب، فأرسلت حملة حربية إلى فاس لمساعدة السلطان، وقد أثار هذا العمل ألمانيا، التى اتفقت مع أسبانيا على أن عمل فرنسا فى المغرب يعرض قرار الجزيرة الخضراء ووحدة المغرب معه لخطر التمزق، وسارعت فى أول يولية ١٩١١م بإرسال الطراد الألمانى «بانتر» Panther إلى ميناء أغادير فى جنوب المغرب لحماية المصالح والرعايا الألمان هناك، وفسرت عملها بأنها تعتبر الآن قرار الجزيرة الخضراء ميتا، ولا تستطيع أن تقف موقف المتفرج مما يبدو أنه خرق واضح من فرنسا وأسبانيا لهذا القرار.

وقد أحدثت هذه المظاهرة البحرية الألمانية ردّ فعل عاجلاً فى باريس ولندن، فقد كان إرسال الطراد الألمانى للاستيلاء على ثغر على الأطلنطى أحسن وسيلة لإقناع إنجلترا بأن ألمانيا إنما تحاول بالقوة الحصول على قاعدة بحرية، كما فعلت فى «كياوشاو» Kiao-chau من قبل..

وفى يوم ٤ يوليو ١٩١١م أبلغ جراى السفير الألمانى أن عملية أغادير خلقت موقفا جديدا. وأخذت إنجلترا وفرنسا فى تبادل الرأى إزاء ما يحتمل أنه خطر حقيقى، وأعلن لويد جورج، رئيس الوزارة الإنجليزية فى «مانشن هاوس» Mansion House فى ٢١ يوليو أن إنجلترا «لن تحتفظ بمكانها ومكانتها بين الدول الكبرى إذا عوملت وكأنها لاوزن لها فى مجموع الأمم، وأن السلام بهذا الثمن لن يكون إلا مذلة». وأنذر ألمانيا بأنه إذا كان لا محيص من فرض الحرب على فرنسا فلن تقف إنجلترا ساكنة.

وأدرك الجميع أن ألمانيا بعد خطاب «مانشن هاوس» سوف يكون عليها أن تقاتل أو تسلم. وقبل الشعب الألمانى التحدى، فعندما رأى الإمبراطور الألمانى يجتاز أحد الشوارع فى برلين صاح : «اثبت على موقفك ياوليم (أونتر دن ليندين Unter den Lin-den).

على أن الأزمة انتهت، بعد مفاوضات استمرت إلى ٤ نوفمبر ١٩١١م، باتفاقية أصبحت المغرب بمقتضاها فرنسية فيما عدا طنجة والمنطقة الأسبانية، ولم تحتفظ ألمانيا إلا «بالباب المفتوح» للتجارة، وعُوضت بشريطين كبيرين فى الكونغو الفرنسى، وغُلبت ألمانيا على أمرها فى المفاوضات بعد أن وقفت انجلترا بجانب فرنسا بكامل عدتها وسلاحها.

وقد استغلت كل من إيطاليا وبروسيا أزمة أغادير لتحقيق أطماعهما، فبينما كانت المفاوضات دائرة لحل الأزمة، وجهت إيطاليا

إنذارا نهائيا إلى تركيا يوم ٢٦ سبتمبر ١٩١١م، وأعلنت الحرب عليها بعد ثلاثة أيام، واحتلت شواطئ طرابلس وجزر «الدوديكانيز» (١٢ جزيرة فى بحر إيجة، أهمها رودس).

وقد أرغم نشوب الحرب فى البلقان فى أكتوبر ١٩١٢ تركيا على عقد صلح لوزان Lausanne مع إيطاليا، وأن تترك لها ما حصلت عليه من أسلاب فى طرابلس ودرنة وطبرق وبنغازى.

وقد ترك موقف ألمانيا من حرب إيطاليا مع تركيا أثرا سلبيا على وضع إيطاليا فى الحلف الثلاثى الألمانى النمساوى الإيطالى، فقد وقفت ألمانيا إلى جانب تركيا حرصا على صداقتها بها، الأمر الذى ساعد على خروج إيطاليا من الحلف فى أثناء الحرب العالمية الأولى، وإعلانها الحرب على ألمانيا.

أما روسيا فقد انتهزت فرصة النزاع وقدمت طلبا رسميا إلى القسطنطينية فى ديسمبر ١٩١١م بفتح مضيق الدردنيل أمام السفن الحربية الروسية، ولكن إنجلترا وفرنسا رفضتا تأييد المطلب، فرفضت تركيا طلب روسيا.

فى ذلك الوقت كان برنامج التسليح البحرى الألمانى يقوم على أن يكون لألمانيا أسطول بحرى مقاتل يكون أقوى من أى قوة بحرية تملكها أعظم دولة بحرية معادية، وقد وضع هذا المبدأ الجنرال فون تيربيتز» Tirpitz. وعندما قامت أزمة أغادير اقتنعت كل من إنجلترا

وألمانيا بأن الحرب سوف تكون السبيل الوحيد لحل أى خلاف فى المستقبل، وأخذت الدولتان فى التسابق البحرى.

وكان المبدأ الذى تتمسك به إنجلترا لامتلاكها ناصية البحار وحماية إمبراطوريتها الواسعة، هو أن تكون قوة الأسطول الإنجليزى مساوية لمجموع قوات أقوى دولتين بحريتين فى العالم تليان بريطانيا، ومن هنا حين أخذت ألمانيا فى الاهتمام بأسطولها البحرى بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء فى ١٦ يناير ١٩٠٦م، أثار هذا الاهتمام الانزعاج فى بريطانيا، ونصح الأميرال لوردفيشر Fisher الملك إدوارد فى يناير ١٩٠٧م بمهاجمة الأسطول الألمانى فى كوبنهاجن على طريقة نلسن!

وفى خريف ١٩٠٨م عندما علمت الأدميرالية البريطانية بتعجيل ألمانيا ببرنامجها البحرى لعام ١٩٠٩/١٩١٠م، بدأت حركة فى بريطانيا ترمى إلى إضافة ثمانى مدرعات كبيرة، وظهر شعار شعبى يقول : «نريد ثمان، بلاتوان» We Want eight, and we won't wait واستجابت الحكومة الإنجليزية فبنت ثمانى عشرة مدرعة بين ١٩٠٩، ١٩١١م، فى حين بنت ألمانيا تسعا فقط. وافتتح لورد روبرتس Roberts حملة للدعاية للخدمة العسكرية الإجبارية.

وفى ٩ فبراير ١٩١٢م وصف ونستون تشرشل الأسطول الألمانى بأنه «ترف» أما الأسطول الإنجليزى فهو «ضرورة»! وقد اقترحت إنجلترا فى ذلك الوقت أن تكون نسبة قوة الأسطول

الإنجليزى إلى الألمانى ٢ إلى ١، ولكن ألمانيا اقترحت نسبة ١٦ إلى ١٠، ولم يتم اتفاق بين الدولتين.

وقد أدى ذلك إلى أن ركزت إنجلترا أسطولها فى بحر الشمال، وتخلت عن البحر المتوسط لفرنسا، فكانت النتيجة أن ابتعدت إنجلترا عن ألمانيا واقتربت من فرنسا!

وسرعان ما جاءت أزمة البلقان ١٩١٢ / ١٩١٣م لتدفع بأوروبا إلى الحرب العالمية الأولى. لقد فهم البلغار والصرب من حادثة البوسنة أن روسيا ستحاول مساعدتهم فى المستقبل، فتتنصل الصرب من الوعد الذى قطعوه للنمسا بعدم القيام بدعاية للجامعة الصربية والدولة السلافية الكبرى فى داخل النمسا والمجر.

وفى أغسطس ١٩١١م أقنعت اليونان بلغاريا بقيام حلف دفاعى بين البلدين. وبعد شهرين دخلت بلغاريا فى مفاوضات مع الصرب فى أكتوبر ١٩١١م انتهت بتوقيع معاهدة فى مارس ١٩١٢م، تضمنت ملحقا سريا بترتيب العمل المشترك ضد تركيا، واتفق الطرفان على الاحتكام إلى القيصر فى تعيين منطقة الموناستير Monastir المتنازع عليها فى مقدونيا، وهى منطقة عزيزة على قلوب البلغار. ووقع فى أبريل ١٩١٢م اتفاق عسكرى.

وفى ٢٩ مايو ١٩١٢م وقعت بلغاريا مع اليونان حلفا دفاعيا أعقبه اتفاق عسكرى فى سبتمبر من نفس العام، وفى أغسطس

١٩١٢م تم الاتصال بالمملكة الصربية المستقلة الصغيرة فى الجبل الأسود، فوافقت على الانضمام إلى العصبة البلقانية.

وعلى الرغم من تحذير الدول الكبرى لدول عصبة البلقان من أى تمزيق لتركيا، ومعارضتها لتغيير الحالة الراهنة فى البلقان، فإنها لم تأبه لذلك. ففى يوم ٨ أكتوبر ١٩١٢م أعلن الجبل الأسود الحرب على تركيا، فأشعل النار فى البلقان من أقصاه إلى أقصاه.

وما حدث بعد ذلك يعد أعجوبة من عجائب التاريخ - كما يقول المؤرخون! فقد أحرز البلغار على الأتراك انتصاراً كبيراً فى ٢٢ أكتوبر ١٩١٢م فى «قيرق كليسه» Kirk Kilisse.

وفى ٢٦ منه أحرز الصرب النصر فى كومانوفو Kumanovo، ففتحوا الطريق إلى مقدونيا، ثم اتبعوا هذا النصر بنصر آخر فى موناستير.

أما اليونانيون فاشتبكوا مع الأتراك ودخلوا فى يوم ٨ نوفمبر ١٩١٢م مدينة سالونيك محط الأطماع.

ووصل الصرب إلى دورازو Durazo على شاطئ ألبانيا يوم ٢٨ نوفمبر ١٩١٢م. وعقدت فى ٣ ديسمبر ١٩١٢م هدنة بين الأتراك وعصبة البلقان استمرت حتى ٣ فبراير ١٩١٣م.

وفى مارس ١٩١٣م تلخص الموقف على النحو الآتى: استولى البلغار على مقدونية شرقى سالونيك، وكل تراقيا حتى خطوط سطلجة، أما اليونان فاستولت على معظم إيبروس Epirus وجنوبى مقدونيا بما

فيها سالونيك. أما الصرب فقد استولت على منطقة سنجق نوفى بازار Novibazar وأوسكوب Uskub قصبة صربيا القديمة، وموناستير مفتاح مقدونية الوسطى.

وهكذا فى حملة استمرت ستة أسابيع، انتزعت العصبة البلقانية، التى أرسلت إلى ميادين القتال أكثر من ستمائة ألف مقاتل، جميع أراضى تركيا الأوروبية، فيما عدا القسطنطينية.

وكان من الطبيعى أن تثير انتصارات الصرب النمسا. ففى المؤتمر الذى عقد فى لندن من ديسمبر ١٩١٢م إلى أغسطس ١٩١٣م لوضع خريطة جديدة للبلقان، كان أهم غرض للنمسا حرمان الصرب من منفذ مباشر على الأدرياتيك، وأصبحت ولاية ألبانيا مركزا للصراع الدبلوماسى الشديد بين النمسا وروسيا، واقتربت الحرب من أوروبا وأصبحت وشيكة، ولكن المشكلة سويت بإقامة ألبانيا دولة مستقلة تحت حاكم ألمانى.

ولكن بينما كان المؤتمر منعقدا قامت جماعة تركيا الفتاة بزعامة أنور بك بثورة فى تركيا يوم ٢٤ يناير ١٩١٣م، فأنكر الترتيبات التى اتخذها مؤتمر سفراء الدول فى ديسمبر للوصول إلى تسوية، واستأنف الحرب ضد عصبة البلقان، ولكن النصر كان حليف العصبة، فقد استولى اليونانيون على يانينا Janina فى ٧ مارس ١٩١٣م، واستولى الصرب والبلغار على «أدرنة» درة البلقان، وسقطت جزيرة كريت Crete فى يد اليونان. وسقطت المدينة

الألبانية اشقودره Scutari فى يد الجبل الأسود. وفى ٣٠ مايو ١٩١٣م وقعت معاهدة لندن التى بمقتضاها انحصرت أملاك تركيا فى أوروبا فى القسطنطينية وشبه جزيرة غاليبولى Gallipoli.

على أنه لم يكد مداد هذه المعاهدة الخطيرة يجف، حتى نشبت الحرب بين دول العصبة نفسها، أى بين الحليفات الثلاث التى هزمت الأتراك!

فلم يكن البلغار على استعداد لتقبل سقوط مغانم الحرب الكبرى فى يد حليفتيها اليونان والصرب، حيث حصلت اليونان على سالونيك، وحصلت الصرب على مقدونيا الوسطى، التى كان عدد كبير من البلغار يقطنون فيها.

ولذلك أصدر فرديناند ملك بلغاريا أوامره إلى جيشه بمهاجمة الصرب فى مقدونيا، ووجه جيشا آخر إلى سالونيك. ولكن الصرب واليونانيين كانوا على أهبة الاستعداد للقاء الهجوم، وأنزلوا بالبلغار هزيمة ساحقة. وفى مدى ستة أسابيع مات ٥٠ ألفا من الحلفاء!

وفى هذه الأثناء كان أنور بك قد تمكن من استرداد أدرنة، وسلمت تلك المدينة التى كلفت الأتراك والبلغار آلافا من الأرواح، دون قتال. وغزت رومانيا بلغاريا التى كانت فى أشد حالات العجز، واستولت على بعض المراكز الاستراتيجية المهمة، وهددت صوفيا.

وفى ١٠ أغسطس ١٩١٣م وقعت بلغاريا معاهدة بوخارست Bucharest مع الصرب واليونان ورومانيا، وفيها أرغمت على التنازل لرومانيا عن حصن سيليستريا Silistria الذى يتحكم فى الدانوب، وعن الجزء الجنوبى من دوبروجا Dobruja.

واحتفظت الصرب بشمال مقدونيا ومنطقة موناستير المتنازع عليها، على الرغم من أن هواها كان مع البلغار.

واحتفظ اليونان بجنوب مقدونيا، وعلى ميناء قولة – وهو المنفذ الوحيد لبلغاريا على بحر إيجة.

واحتفظت بلغاريا بتراقيا الغربية مع ميناء دده أغاج De-degatceh الصغير لها على بحرايجة.

وأحسن تعليق على حرب البلقان ١٩١٢ – ١٩١٣م أن أيًا من المتحاربين سواء منهم المغلوبين أو الغالبين، لم يؤمن بأن قرارات اقتسام المناطق سوف يكتب لها الدوام! فقد كان الصرب والجبل الأسود يعرفان أنه ليس فى مقدورهما الاحتفاظ بالمناطق الجديدة بدون حرب مع النمسا. وقد عرضت بلغاريا المنهزمة عقد تحالف بينها وبين كل من النمسا وتركيا انتقاما من حلفائها السابقين. وتوقع اليونانيون قيام حرب جديدة، ورأوا أن أية معاهدة تعقد فى ١٩١٣م ستكون قصاصة من ورق.

وكان طبيعيا أن أصبحت روسيا ذات أهمية بالغة بعد حرب البلقان، فقد تحكمت فى الصرب، وازداد نفوذها على رومانيا،

وبلغت تركيا من الضعف والوهن ما جعلها عرضة لتمزيق أوصالها على يد روسيا.

وبالنسبة للنمسا فإنها كانت ترقب بقلق سحق صديقتها بلغاريا، وإضعاف تركيا التي كان قيصر الألمان قد وجد فيها أحدث حلفائه، وازدياد قوة صربيا. ومن هنا أخذت القيادة العسكرية النمساوية تحض حكومتها على تلقين هذه الدولة الصغيرة درسا صارما قبل أن تصبح دولة كبيرة.

وقد سنحت الفرصة أخيرا عندما قام طالب صربي، يعمل لحساب منظمة إرهابية ضد النمسا، باغتيال ولي العهد فرانز فيرديناند Franz Ferdinand وزوجته على جسر سراييفو Sarajevo يوم ٢٨ يونيه ١٩١٤م.

فقد سارعت النمسا باتهام الحكومة الصربية بالاشتراك في الاغتيال، على الرغم من أن الجريمة وقعت في البوسنة التابعة للنمسا! وبأنها من تدبير جميعة اليد السوداء الصربية بتشجيع من الحكومة الصربية.

وفي يوم ٢٣ يولية ١٩١٤م قدمت الحكومة النمساوية إنذارا نهائيا إلى الصرب قصد به أن يقابل بالرفض، إذ كان ينطوي على تقويض استقلال الصرب.

وعلى الرغم من قبول الحكومة الصربية سبعا من النقاط العشر التي حواها البلاغ النهائي النمساوي، فإن الجيش

النمساوى، الذى كان يتعطش لتأديب «أمة القتلة والسفاحين»، رفض إفلات الفرصة، فأعلنت النمسا الحرب على الصرب يوم ٢٨ يوليو ١٩١٤م.

وهنا شعرت روسيا بمسئوليتها عن حماية الصرب، فأعلنت التعبئة العامة يوم ٣٠ يوليو.

وجاء الرد من ألمانيا يوم ٣١ يولية ١٩١٤م فى شكل إنذار يطالب بوقف التعبئة! وعندما رفضت روسيا، أعلنت ألمانيا الحرب عليها يوم أول أغسطس ١٩١٤م.

ولما كانت فرنسا مرتبطة بتحالف مع روسيا، فقد تسلمت إنذارا من ألمانيا يطالبها بالحياد. ولما لم ترد على الإنذار أعلنت ألمانيا الحرب عليها يوم ٣ أغسطس ١٩١٤م، وأخذت فى تنفيذ مشروعها الحربى بغزو فرنسا عن طريق اختراق بلجيكا ولوكسمبورج.

وقد اعتبرت بريطانيا أن خرق حياد بلجيكا بمثابة حالة حرب، فطلبت من ألمانيا فى صباح يوم ٤ أغسطس ١٩١٤م ردا مباشرا فيما يتعلق باحترام حياد بلجيكا، ولكن سرعان ما علمت باختراق الألمان للأراضى البلجيكية، فأعلنت الحرب على ألمانيا عند منتصف الليل، باسم الدفاع عن حياد بلجيكا. وعلى هذا النحو نشبت الحرب العالمية الأولى.

الفصل السابع عشر

الحرب العالميــــة الأولى

الحرب العالمية الأولى

كان الحلفاء فى عام ١٩١٤م يتفوقون على الدول المركزية (ألمانيا والنمسا والمجر) فى القوة العسكرية، فقد كان لديهم ٣٠ مليون محارب، فى مقابل ٢٢ مليون للدول المركزية، وكان للبحرية الإنجليزية السيطرة على البحار.

وعندما أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا، دخلت خطة الكونت فون شليفين Schlieffen الحربية، وهى التى وضعها فى عام ١٩٠٥م، وأقرت رسميا فى ١٩١٢م، فى دور التنفيذ. وتقوم على الهجوم على فرنسا أولا عن طريق اختراق حياد بلجيكا ولوكسمبورج واحتلال باريس، ثم التحول إلى روسيا للهجوم عليها.

وكان معنى هذه الخطة ترك بروسيا الشرقية عارية ومعرضة لضربة من جانب روسيا الرابضة فى الشرق، ولكن الأمل فى نجاح هذه الخطة كان معقودا على صمود إمبراطورية النمسا والمجر أمام روسيا لمدة ستة أسابيع، تكون باريس فيها قد سقطت، ويمكن بعدها إرسال الإمدادات إلى الجبهة الشرقية.

على أن روسيا انتهزت فرصة انشغال القوات الألمانية فى فرنسا، لإنفاذ جيشين كبيرين لتطويق القوات الألمانية فى بروسيا الشرقية، أحدهما بقيادة «سامسونوف Samsonov، والثانى بقيادة رينينكامف Rennenkampf»، الأمر الذى اضطر ألمانيا إلى سحب ثلثى القوات الألمانية من الجهة الغربية لمواجهة هذا الخطر، بعد أن كانت القوات الألمانية على بعد ١٢ ميلا من باريس، وكان على رأس القوات الألمانية هندنبورج ولودندورف Hindenburg & Ludendorff.

وقد هاجمت هذه القوات الألمانية الجيش الروسى بقيادة سامسونوف، وألحقت به الهزيمة فى مستنقعات «تاننبرج» Tan-nenberg فى روسيا الشرقية (فى ٢٦ ـ ٢٩ أغسطس ١٩١٤م)، وفقد سامسونوف حياته مع عدد هائل من الروس.

ثم اتجه هندنبورج إلى الشرق لمقابلة رينينكامف، وأجبره على الانسحاب إلى ماوراء الخطوط الألمانية فى موقعة هائلة عند البحيرات المازورية Masurian Lakes فى بروسيا الشرقية (٦ ـ ١٢ سبتمبر ١٩١٤م)، فقد الروس فيها ما يقرب من ربع مليون جندى قتلى وأسرى.

وارتفع شأن كل من هندنبورج ولودندورف على أثر ذلك وأصبحا من أبطال الأساطير.

على أنه كان بسبب سحب جيشين ألمانيين من الجبهة الفرنسية لمواجهة الروس، أن نزلت بالألمان الهزيمة فى معركة المارن

الأولى The Marne (من ٦ ـ ١٠ سبتمبر ١٩١٤م) وكتب الخلاص لباريس، واضطرت القوات الألمانية إلى التقهقر إلى نهر الآين The Aisne، حيث أقامت المتاريس والخنادق، وحذا الحلفاء حذوها، فتحولت الحرب منذ ذلك الحين إلى حرب خنادق على طول خط القتال من «أوستند» Oostende فى بلجيكا فى الشمال، إلى الحدود السويسرية، فى جبهة طولها ٣٠٠ ميل، وإن بقيت الميزة للألمان، حيث كانوا يحتلون جانبا كبيراً من الأراضى البلجيكية والفرنسية، ويتخذون قواعدهم العسكرية على بعد ٥٥ ميلا من باريس، وعلى بعد ٦٥ ميلا من أقرب الموانئ الإنجليزية.

فى ذلك الحين لم تمنع الهزيمة الساحقة التى نزلت بالقوات الروسية فى تاننبرج والبحيرات المازورية الجيوش الروسية من فتح جبهة أخرى فى النمسا بالهجوم على غاليسيا Galicia، وإلحاق الهزيمة بالقوات النمساوية أمام «لمبرج Lemberg فى أواخر أغسطس ١٩١٤م، كما أحرزوا انتصارا آخر أمام «جروديك» Gro-dek، فدان بذلك ثلث غاليسا للروس. وسقط حصن «برزميسل» Przemysl ووصل الروس إلى ممرات جبال الكربات Carpathians، وأجبروا القوات النمساوية على الإرتداد إلى المدينة البولندية القديمة كراكاو Cracow.

وعلى هذا النحو أصبح الروس فى الوضع الذى يهدد ألمانيا تهديدا خطيرا، فلو تمكنوا من احتلال كراكاو، لأمكنهم تدمير خط

الدفاع على الحدود الألمانية بأسره عند بوزن Pozen وثورن Thorn واحتلال برسلاو Breslau حقول الفحم فى سيليزيا Silesia.

وهنا لم يجد هندنبورج من وسيلة لتخليص كراكاو غير تهديد وارسو فى بولندا الخاضعة للسيادة الروسية، فتحرك فى الأسبوع الثانى من أكتوبر ١٩١٤م نحوها بخمس هجمات تمتد من ثورن فى الشمال إلى كراكاو فى الجنوب، واشتبك الطرفان فى الملاحم المعروفة بمعركة «لودز» Lodz انتهت بحماية الحدود الألمانية وإنقاذ كراكاو وسيليزيا، وبقى حاجز الكربات صامدا. ولكن الخط الذى وقف عنده الروس من بروسيا الشرقية إلى الكربات أصبح خطا للدفاع، وإن أفلح الروس فى تجميد القوات الألمانية والنمساوية المجرية.

وفى ٢٩ أكتوبر ١٩١٤م دخلت تركيا الحرب إلى جانب الدول المركزية ضد روسيا، وقد كافأ الحلفاء تركيا على ذلك بإنفاذ أسطول بريطانى لاقتحام الدردنيل Dardanelles الذى يفصل بين آسيا الصغرى وأوروبا، وجيشا إلى شبه جزيرة غاليبولى Gallipoli التى هى خط الدفاع الاستراتيجى عن القسطنطينية.

وكان الغرض اقتحام المضايق لإنشاء ممر بين البحر المتوسط والبحر الأسود، مع الاستيلاء على العاصمة التركية، لإنقاذ روسيا من عزلتها، وتمكين الدول الغربية من الاتصال بها حتى يمكن تطويق ألمانيا فى كل مكان، وعزل تركيا عن حلفائها.

ولكن هذه الحملة لم تنجح، فقد انهزم الأسطول الإنجليزى هناك فى ١٨ مارس ١٩١٥، وفشلت الحملة البرية فى اقتحام شبه جزيرة غاليبولى، واضطرت إلى الانسحاب النهائى (١٨ ديسمبر ١٩١٦م - ٨ يناير ١٩١٦م)، وعجزت روسيا عن مد يد المساعدة لحلفائها كما كانوا يتوقعون.

وقد كان بعد كارثة غاليبولى أن عمد الحلفاء إلى مهاجمة تركيا فى إمبراطوريتها وفى الشرق الأوسط، فقد استولوا على الجزء الأكبر من العراق، ودخلوا بغداد، واستولوا فى فلسطين على يافا وبيت المقدس.

وفى الوقت نفسه قامت القوات الفرنسية وقوات جنوب أفريقيا باكتساح الممتلكات الألمانية فى أفريقية، فى حين كان اليابانيون، الذين دخلوا الحرب فى سبتمبر ١٩١٤م، والاستراليون، يستولون على الممتلكات الألمانية فى الشرق الأقصى والمحيط الهادى.

وفى ٢٣ مايو ١٩١٥م دخلت إيطاليا الحرب ضد النمسا، بعد أن كانت قد أعلنت حيادها عند نشوب الحرب. فقد أغراها الحلفاء على الانضمام إليهم لتخفيف الضغط عن روسيا بالاشتباك مع النمسا، وعقدت معها كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا فى ٢٦ أبريل ١٩١٥م معاهدة لندن، التى تقضى بإعطاء إيطاليا منطقة الترنتينو Trentino، والتيرول الجنوبى حتى ممر برنر Brenner، وتريستا Trieste، وشبه جزيرة استريا Istria، وشمال دلماشيا،

والجزر المواجهة لها، وميناء فالونا Valona فى ألبانيا، وجزر الدوديكانيز Dodecanese Is فى بحر إيجه Aegean Sea، كما سمح لها بتوسيع ممتلكاتها فى أريتريا والصومال.

لذلك أعلنت إيطاليا الحرب على النمسا فى ٢٣ مايو ١٩١٥م، وأتبعت ذلك بإعلان الحرب على ألمانيا بعد ١٥ أسبوعا. وفى ٥ سبتمبر ١٩١٥م طلب إليها الحلفاء أن توقع ميثاق لندن الذى يمنعها من عقد صلح منفرد مع الأعداء.

على أن إيطاليا لم تقدم للحلفاء ما كانوا يتوقعون منها، فلم ترسل قوات لمساعدة حملة الدردنيل بحجة حاجتها إلى قواتها للدفاع عن الجبهة الإيطالية، ولم تحقق نجاحا يذكر مع النمساويين على خطوط وادى الايسونزو Asonzo.

ولكن عندما خفت وطأة الهجوم النمساوى، الذى بدأ فى ربيع عام ١٩١٦م، على التيرول الجنوبية، بعد تداعى خطوط غاليسيا، انتقل الإيطاليون إلى خطة الهجوم على خطوط الايسونزو من جديد، واستولوا على جوريزيا Gorizia فى أغسطس ١٩١٦م، وأصبحت الإمبراطورية النمساوية فى أحرج المواقف.

وهنا قامت حملة مشتركة من الدول المركزية بقيادة القائد الألمانى العظيم بيلوف Below ضد إيطاليا، وهزمت الإيطاليين هزيمة شنعاء فى كابوريتو Caporetto فى ٢٤ أكتوبر ١٩١٧م،

فانسحبت القوات الإيطالية من خطوطها، وأخذت تتراجع مسرعة بخسائر فادحة حتى نهر البياف Piave، وهنا توقف الألمان، لأن الخط كان قصيرا يسهل الدفاع عنه، ووصلت الإمدادات إلى الإيطاليين من فرنسا، وبذلك نجت إيطاليا من كارثة، وظل ضعف إيطاليا الشغل الشاغل للحلفاء طيلة معظم عام ١٩١٧م.

وعلى كل حال فقد حقق عام ١٩١٥م لألمانيا مزيدا من الانتصارات، ففى ١٤ سبتمبر ١٩١٤م تولى قيادة القوات الألمانية القائد الألمانى العظيم فالكينهاين Falkenhayn، وقد رأى جيوشه تحتل فى فرنسا والفلاندر خنادق صالحة، فوجه هجومه إلى الجيوش الروسية التى كانت ماتزال تهدد كراكاو والإمبراطورية النمساوية، وذلك لردها إلى روسيا وتخفيف الضغط على النمسا، ومساعدتها على تحطيم الصرب، واستمالة بلغاريا لشن الحرب على الحلفاء.

لذلك ففى ٢ مايو ١٩١٥ ألحقت القوات الألمانية بقيادة ماكنزن Mackensen الهزيمة بالقوات الروسية فى غاليسيا فى معركة «جورليس تارناو» Gorlice Tarnau ودفعتها إلى الحدود الروسية، وسقطت على التوالى «لمبرج» عاصمة «غاليسيا»، ووارسو عاصمة بولندا، و«كوفنو» و «فالنا» أكبر مدن لتوانيا.

وفى الشمال اكتسح فون بيلوف مقاطعة كورلند Courland فى لاتفيا، وأسرع إلى ريجا. وما أن طلع شهر سبتمبر ١٩١٥م حتى

كـاد الألمان أن يقطعـوا خطوط الاتصـال بين الجـيـوش الروسـيـة وقواعدها، للقضاء عليها.

على أنهم حـرمـوا من هذا النصـر السـاحق على يد قـائدين روسيين، هما روسكى Rusky فى الشمـال، وإيفانوف Ivanov فى الجنوب، اللذان أحرزا بعض الانتصـارات فى خلال شهر سبتمبر، التى خـفـفت من سـرعـة الألمان، ولكن بعـد أن فـقـد الروس فى هذه المعـارك ٣٢٥ ألف أسيـر، وثلاثة آلاف مـدفع، الأمـر الذى لم يتـمكن الجيش الروسى بعده من استرداد قواه.

على أن نجاح الحملة الألمانية فى الميدان الشرقى ضد القوات الروسية، شجع على إخضاع البلقان. ففى ٧ أكتوبر ١٩١٥م عبرت القوات النمساوية الألمانية نهر الدانوب للهجوم على الصرب.

وفى ١٤ أكتوبر ١٩١٥م أعلنت بلغـاريا الحـرب على الصـرب، مدفوعـة بعامل الرغبـة فى تحرير بلادها من نفوذ روسيـا، وجمع شـمل العنصـر البلغـارى فى البلقـان تحت رايتـهـا، واشـتـركت فى الهـجوم على الصـرب، ثم اخترقت الحدود الشرقية الصـربية. ولم يمض شـهران حتى كانت بلغراد ومعظم المدن الصربية المهمة قد سقطت، وفر الجيش الصربى إلى الجبل الأسود وإلى ألبانيا.

وفى فـبـراير ١٩١٦م هـاجـمت القـوات البلغـارية والنمسـاوية شمـال ألبانيا، واستولت على عاصمتها تيرانا Tirana، وعلى ميناء دورازو Durazzo، واضطرت القـوات الصـربيـة إلى الالتـجـاء إلى جزيرة كورفو Corfu اليونانية لتحتمى بمدفعية الحلفاء.

أما فى الميدان الغربى، فإنه بعد أن أخفق الألمان فى الاستيلاء على باريس، أهملوا، نتيجة سهو غريب، احتلال موانئ القنال الإنجليزى، وحين تقهقروا من المارن إلى الأين، قاد السير جون فرنش John French قائد الفرسان الإنجليزى قوة إنجليزية فى أكتوبر ١٩١٤م نحو القنال الإنجليزى، وقامت باحتلال سواحله.

وقد شن الألمان عدة هجمات على القوات الإنجليزية، دارت حول «ابيرس Ypres من أكتوبر إلى نوفمبر ١٩١٤م، ولكنها منيت بالفشل. ولو تمكن الألمان من ترسيخ أقدامهم فى كاليه وبولونى، لقطعوا أسرع خط من خطوط الاتصال بين فرنسا وإنجلترا، ولاختلت خطة التعاون بينهما اختلالا خطيرا. وقد عاود الألمان الهجوم فى الميدان الغربى فى أبريل ١٩١٥م، واستخدموا الغازات السامة، ولكنهم لم يحققوا أهدافهم.

وفى أواخر سبتمبر ١٩١٥م شن الحلفاء هجمات فى الفلاندر، وفى أرتوا، ولكنهم ردوا على أعقابهم بخسائر كبيرة.

وقد تميز عام ١٩١٦م فى الميدان الغربى بملحمتين نشبتا على أرض فرنسا، طالت إحداهما إلى ستة أشهر، والأخرى إلى٣أشهر، وهما ملحمتا فردان Verdun والسوم Somme.

وبالنسبة لمعركة فردان (من فبراير إلى يولية ١٩١٦م) فقد بدأت بهجوم ألمانى استهدف أمرين: الأمر الأول الاستيلاء على

حصن فردان المنيع، والثانى إضعاف القوات الفرنسية التى كان مقدراً أن تدافع عن الحصن مهما كلفها من خسائر، على أن الأمر انقلب على الألمان، فلم يفشلوا فقط فى الاستيلاء على الحصن، وإنما فقدوا ما بين ٢٤٠ ألف قتيل وجريح، وفقد الفرنسيون ٢٧٥ ألف.

أما المعركة الثانية، وهى معركة السوم، فقد بدأها الحلفاء فى أول يوليو ١٩١٦م ودامت حتى آخر سبتمبر ١٩١٦م، ووضع خطتها الجنرال دوجلاس هيج الإنجليزى ضد القوات الألمانية بقيادة هندنبورج، وقد نجحت هذه المعركة فى رد الألمان مائة ميل مربع، وتحمل الجيش الألمانى فيها خسائر فادحة قضت على الجيش الألمانى القديم الذى كان يعد أكمل قوة حربية شهدها العالم، وأصبح الاعتماد على المجندين من الأحداث. وفى الوقت نفسه فقد الجيش البريطانى ٦٠ ألف قتيل وجريح فى اليوم الأول من معركة السوم.

وقد كان فى ساحة السوم أن ظهرت لأول مرة الدبابة فى ١٥ سبتمبر ١٩١٦م، وإن لم تحدث تأثيرا يذكر، ولكن هذا السلاح كسب المعركة فى عام ١٩١٨م.

وبينما كانت القوات الألمانية تواجه هذه المتاعب فى الميدان الغربى، قام الجيش الروسى بقيادة الجنرال بروسيلوف Brussilov فى ٤ يونية ١٩١٦م باختراق الجبهة النمساوية الألمانية فى

غاليسيا، وفى خلال حملة دامت عشرة أسابيع، أسر بروسيلوف ٤٥٠ ألف أسير من القوات النمساوية المجرية.

وقد شجع هذا النصر رومانيا على الانضمام إلى الحلفاء. وكانت رومانيا قد تعهدت فى فبراير ١٩١٥م بدخول الحرب إذا دخلتها ايطاليا، ولكن بسبب الظروف غير المواتية للحلفاء أحجمت عن دخول الحرب عندما دخلتها إيطاليا فى مايو من نفس العام.

وفى ١٨ أغسطس ١٩١٥م تم توقيع معاهدة بين رومانيا وكل من بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا، كما تم توقيع معاهدة عسكرية بين روسيا ورومانيا فى نفس اليوم، أجاب فيها الحلفاء مطالب رومانيا بمنحها باسارابيا بعد الحرب.

وفى ٢٧ أغسطس شجع النصر الروسى على الإمبراطورية النمساوية المجرية رومانيا على إعلان الحرب على النمسا والمجر، فردت ألمانيا فى اليوم التالى بإعلان الحرب عليها.

على أن القوات الألمانية بقيادة فالكينهاين وماكنزن اكتسحت القوات الرومانية فى ستة أسابيع. فقد زحف الجيش الأول خلال جبال الكربات، والآخر خلال دوبرجه Dobrudja، وانقضا على بوخارست عاصمة البلاد، ودخلاها فى ٦ ديسمبر ١٩١٦م.

فى ذلك الحين كانت تجرى حرب بحرية بين ألمانيا وبريطانيا. فقد أعلنت إنجلترا الحصار البحرى على ألمانيا، واعتبرت بحر

الشمال منطقة حربية. وقد ردت ألمانيا على ذلك باستخدام الطرادات الألمانية، فى إغراق المراكب التجارية الإنجليزية فى عرض البحار، وحقق الأميرال فون شبى Spee نصرا بحريا على الأسطول الإنجليزى فى المحيط الهادى. ولكن فى ٨ ديسمبر ١٩١٤م نشبت معركة عند جزر فوكلاند Falkland النائية فتك فيها الاميرال ستردى Sturdee بقوة من الطرادات Cruisers الألمانية.

وفى ٤ فبراير ١٩١٥م أعلنت أن المياه الإنجليزية تعتبر منطقة حربية، واستخدمت عددا من الغواصات لإغراق سفن الأعداء، وأجابت بريطانيا فى ١١ مارس ١٩١٥م بقرار حرمت فيه تجارة دول الحياد مع ألمانيا.

على أنه فى أبريل ١٩١٥م أغرقت الغواصات الألمانية الباخرة لوزيتانيا Lusitania على مقربة من ساحل أيرلندة وعليها ألف راكب، منهم أكثر من مائة أمريكى، وعندما تحرك الرأى العام ضد ألمانيا أوقفت عمل غواصاتها، ولكنها عادت إلى العمل من أول مارس ١٩١٦م، وفى يوم ٢٤ مارس ١٩١٦م اغرقت الباخرة ساسكس Sussex، ولم يقل هذا الحادث خطورة عن إغراق لوزيتانيا.

وفى مايو ١٩١٦م خرج الأسطول الألمانى من موانيه، لمقاتلة الأسطول الإنجليزى على أمل رفع الحصار، واشتبك الأسطولان فى معركة بحرية مهمة هى معركة «جاتلاند» Jutland فى ٣١ مايو١٩١٦م، تكبد فيها الأسطول البريطانى خسائر ضعف ما تكبده

الأسطول الألمانى فى الرجال والسفن الحربية، وكان النصر حليف الأسطول الألمانى، إلا أن المعركة أقنعت ألمانيا بعدم خروج الأسطول الألمانى مرة أخرى لمنازلة خصمه.

ولكن الألمان لجئوا إلى حرب الغواصات بهدف إغراق أية سفينة تجارية دون سابق إنذار، وذلك لتجويع بريطانيا. ففى الأشهر الأخيرة من عام ١٩١٦م أغرقت الغواصات الألمانية ما حمولته ٣٠٠ ألف طن كل شهر. وفى بداية عام ١٩١٧م كان لدى الألمان نحو ١٢٠ غواصة، ارتفع عددها إلى ١٣٤ فى أكتوبر ١٩١٧م. وفى شهر أبريل ١٩١٧م وحده أغرقت الغواصات الألمانية ما حمولته ٨٧٥ ألف طن، وفى ذلك الشهر كانت الغواصات الألمانية تغرق واحدة من كل أربع سفن تغادر السواحل الإنجليزية.

وقد لجأ الحلفاء فى مقاومة ذلك إلى أسلوب القوافل، حيث كانت السفن التجارية تبحر فى قوافل تحرسها المدمرات الحربية، واستطاعت بذلك إغراق عدد كبير من الغواصات الألمانية، وتقليل الخسائر.

على أن حرب الغواصات استفزت الولايات المتحدة لدخول الحرب يوم ٦ أبريل ١٩١٧م، خصوصا بعد أن وصل إلى علم الحكومة الأمريكية محاولة ألمانيا إغراء المكسيك على مهاجمة الولايات المتحدة فى مقابل ضم ثلاث ولايات أمريكية هى تكساس ونيومكسيكو وأريزونا. فكان هذا العامل سببا مهما فى دفع الولايات المتحدة إلى الحرب.

وكانت الولايات المتحدة قبل هذا القرار تعتنق «مذهب مونرو Monroe Doctrine الذى يقوم على عزلة أمريكا فى سياستها الخارجية عن أوروبا، وعدم السماح لأية دولة أوروبية بالتدخل فى الشئون الأمريكية. على أن الحرب هيأت لها فرصة ذهبية للاستفادة من موقعها المحايد عن طريق بيع كميات هائلة من المواد الخام والذخيرة والمئونة والبضائع الأخرى للحلفاء. فلما عمدت ألمانيا إلى حرب الغواصات ضد السفن التجارية، هدد ذلك التجارة الأمريكية ذاتها، وعرض الأرواح الأمريكية للخطر، فلجأت إلى الحرب ضد ألمانيا.

فى ذلك الحين كانت الحكومة الأمريكية، وعلى رأسها الرئيس وودرو ولسن Woodrow Wilson، ترى أن الدول الأوروبية قد أُنكهت فى الحرب بما يجعل من مصلحة الولايات المتحدة الاستفادة من ذلك عن طريق دخول الحرب والتخلى عن مبدأ مونرو. ذلك أن دخولها الحرب يهيئ لها الفرصة لبناء أوروبا جديدة بعد الانتصار فى الحرب على أسس جديدة تحفظ السلام فى العالم، وتقوم على إنشاء عصبة أمم، وضمان حرية التجارة عبر البحار.

ومع أن القوات الأمريكية لم تقم بدور مهم فى الحرب حتى عام ١٩١٨، إلا أن الحلفاء استفادوا من الإمدادات المادية الأمريكية، التى كانت تقدم على سبيل القروض بعد أن هبطت القوة الشرائية للحلفاء، فكان هؤلاء يقترضون من الحكومة الأمريكية ويسددون للمؤسسات الأمريكية التى يستوردون منها، الأمر الذى أدى إلى انتعاش الاقتصاد الأمريكى انتعاشاً كبيراً.

كذلك فإن اشتراك الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب ألغى فكرة حق الدول المحايدة فى التجارة مع ألمانيا التى كانت تنادى بها أمريكا، فاستطاع الحلفاء تضييق الحصار على ألمانيا على نحو أدى إلى إضعافها إضعافا شديداً فى نهاية عام ١٩١٨م.

كان دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب فى ٦ أبريل ١٩١٧م أحد أهم حدثين ميزا عام ١٩١٧م، أما الحدث الثانى، فهو قيام الثورة الاشتراكية فى روسيا، ونجاح البلاشفة فى الاستيلاء على السلطة فى أكتوبر ١٩١٧م، وعقد هدنة مع ألمانيا، وفتح باب الصلح الذى انتهى بتوقيع لينين معاهدة برست ليتوفسك Brest Li-tovsk فى ٣ مارس ١٩١٨م، التى تخلت روسيا بها عن سيادتها على بولندا وفنلندة واستونيا ولاتفيا وليتوانيا، واعترفت باستقلال اوكرانيا وهكذا خرجت روسيا من الحرب.

فى ذلك الحين لم يكن من خطة لودندورف لعام ١٩١٧ تجديد الهجوم فى الميدان الغربى، فقد تراجع عدة أميال إلى خط حصين عرف عند الألمان بخط سيجفريد Siegfried وعند الإنجليز بخط هندنبورج.

ولكن فى أكتوبر ١٩١٧م قام قائد القوات الفرنسية نيفيل Ni-velle بهجوم كبير على القوات الألمانية، اشتركت فيه القوات الإنجليزية، وذلك فى جبهة تمتد من سواسون Soissons إلى ريمس Rheims، ولكن الهجوم فشل فشلا ذريعا، وتكبد الجيش الفرنسى

خسائر مروعة فى الأرواح سببت تمردا بين صفوفه، وذهبت بثقة المدنيين والمحاربين فى كفاءة قوادهم.

ولكن الموقف عولج، فعين بيتان Petain بطل فردان مكان نيفيل، وعين كليمانصو رئيسا للوزراء ـ وقد أطلق عليه اسم «النمر» ـ وسرت روح جديدة.

ولكن الموقف، مع ذلك، أثار الهواجس فى صدر الحكومة البريطانية إلى الدرجة التى رأت معها ضرورة تحويل اهتمام الألمان إلى الجبهة البريطانية، فأخذ الجيش البريطانى يشق طريقه إلى الساحل البلجيكى.

على أن الأمطار الكثيفة التى سقطت طوال صيف وخريف عام ١٩١٧م أعاقت تقدم القوات البريطانية، فى الوقت الذى كان الألمان فى راحة نسبية نظرا لاحتلالهم المواقع الأكثر ارتفاعا، وكانت مياه الأمطار تغمر الخنادق البريطانية حتى خصور الجند. وفى هذا الجو دارت المعركة المعروفة باسم معركة باشنديل Passchendaele، التى خسر فيها البريطانيون خسائر هائلة بلغت ٣٠٠ ألف قتيل وجريح.

وقد اكتملت خسائر الحلفاء فى ذلك العام بهزيمة القوات الإيطالية فى موقعة «كابوريتو» Caporetto، ومطاردة القوات النمساوية لها تحت القيادة الألمانية على نحو هدد باختراق إيطاليا ووصول الأعداء إلى البندقية.

ولكن الأمطار الغزيرة أنقذت إيطاليا من الخطر، إذ وقفت القوات النمساوية فى الفلاندر عاجزة بعد أن أغرقت الأمطار الأراضى أمامها، وفاضت الأنهار من الألب إلى الأدرياتيك. وفى الوقت نفسه أنقذ ثبات الإيطاليين على ضفاف نهر بياف البندقية من السقوط.

على أنه فى الوقت الذى كانت تنزل النكبات بصفوف الحلفاء فى الجبهات الروسية والفرنسية والإيطالية، كان الجيش البريطانى يحقق نصرا أمام الأتراك، كانت نتيجته سقوط بغداد فى مارس ١٩١٧م، والقدس فى ٩ ديسمبر ١٩١٧م.

وقد قدر لهذا الفتح أن يكون بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الأمة العربية، إذ سبق هذا الفتح إعلان بريطانيا عزمها على إنشاء وطن قومى لليهود، فى خطاب أرسله المستر بيلفور فى ٢ نوفمبر ١٩١٧م إلى اللورد روتشيلد، وكان غرض بريطانيا ضم جماعات اليهود العالمية المسيطرة على أسواق المال، وحملها على مناصرة قضية الحلفاء.

على كل حال، فإن خروج روسيا من الحرب بالثورة الروسية، شجع القيادة الألمانية على الاستفادة بالقوات الألمانية على الجبهة الروسية، وهى نحو أربعين كتيبة أو ٤٠٠ ألف جندى، لتعزيز الميدان الغربى، وتوجيه ضربة قاصمة للجيشين الإنجليزى والفرنسى عند نقطة اتصالهما، ثم دحر كل منهما على حدة.

وقد وقع الهجوم الألمانى يوم ١٠ مارس ١٩١٨م، فحطم الجيش البريطانى الخامس، وأصبحت القوات الألمانية على بعد ٢٠ ميلا من أميان Amiens، وأصبح الخط الحديدى الموصل إلى أميان تحت القصف الألمانى. ولكن أمكن وقف الزحف الألمانى أمام أميان، ولو نجح لانفصلت القوات الفرنسية عن القوات الإنجليزية.

على أن القوات الألمانية لم تواصل هجمتها القاتلة، وإنما استبدلت بهذه الخطة خطة أخرى، فهاجمت البريطانيين أولا فى قطاع «ييرس» Ypres فى ٢٩ أبريل ١٩١٨م وردتهم إثنى عشر ميلا إلى الوراء، وكادت تنفذ إلى الساحل، وتحرم البريطانيين من مواصلاتهم خلال كاليه وبولونى Boulogne.

وفى يوم ٢٧ مايو ١٩١٨م أطبق الألمان على الحلفاء فى شيمان دى دام Chemins des Dames غرب ريمس Rheims وهزموهم هزيمة منكرة، ودفعوا بهم إلى المارن مرة ثانية عند «شاتو تييرى» Chateau Thierry على بعد ٤٠ ميلا من باريس، وكادوا يشطرون الخط الفرنسى إلى قسمين، مما يؤدى إلى سقوط باريس. وقد أصيب الألمان فى هذا الزحف الداهم بخسائر فادحة.

وهنا قرر لودندورف تطبيق الطرف الآخر من خطته، بالهجوم على شرق ريمس Rheims، بغرض شد جزء من احتياطى الحلفاء، ثم الشروع فى شن هجومه النهائى على البريطانيين. على أن هذا الهجوم لم يسفر عن خسائر كثيرة للفرنسيين، وتمكنوا من صده، ولم يكسب الألمان من ورائه إلا القليل من الأرض.

فى ذلك الحين كان الحلفاء قد اختاروا القائد الفرنسى العظيم الماريشال فوش Foch قائدا عاما لقوات الحلفاء، يساعده الجنرال فيجان Weygand. فى حين بقى الجنرال هيج Haig قائدا للقوات البريطانية، وبيتان قائد اللقوات الفرنسية.

وفى يوم ١٨ يولية ١٩١٨م أخذ الحلفاء فى شن هجماتهم العظيمة على الألمان التى أنهت الحرب، والتى عرفت باسم «معركة المارن الثانية».

ففى ذلك اليوم قام الجنرال مانجان Mangin بهجوم مفاجئ على الألمان بثلاثمائة دبابة خفيفة، وأجبرهم على الانسحاب، وأسر منهم ثلاثين ألف أسير، وهو ثلث ما أسره الألمان فى أميان، ونصف ما أسروه عند شيمان دى دام.

وفى يوم ٨ أغسطس ١٩١٨م قام الجنرال هيج قائد القوات البريطانية بهجومه على «أميان»، وأسر من الألمان عشرين ألفا. وقد أطلق لودندورف على يوم ٨ أغسطس ١٩١٨م «اليوم الأسود للجيش الألمانى»، لأن البريطانيين الذين منوا بالهزيمة مرتين انتقلوا من الدفاع إلى الهجوم، ولأن الألمان طردوا من مواقع كانوا يعدونها منيعة. وقد تلت ذلك سلسلة من الهجمات طيلة شهر سبتمبر ١٩١٨م كان النصر فيها حليفا للحلفاء.

وقد كان النصر حليف الحلفاء فى الميادين الأخرى. ففى جبهة سالونيك شن الإنجليز والفرنسيون والصربيون هجومهم على

البلغار فى يوم ١٥ سبتمبر ١٩١٨م، وانتهى فى يوم ٢٩ منه بتسليم بلغاريا وخروجها من الحرب، وكان هذا يعنى انهيار الجبهة الشرقية بأسرها، وانهيار النمسا والمجر كذلك.

وفى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩١٨م كان لودندورف فى مقر قيادته فى شبا Spa يتلقى الأنباء السيئة من كل الجبهات. فقد طهر الأمريكيون الجيب الموجود فى سان ميشيل قرب فردان من الألمان، وكانوا يشتركون مع الفرنسيين فى الهجوم فى منطقة أرجون. وكان البلجيكيون يشنون الهجوم فى بلجيكا نفسها، وحطم البريطانيون خط سيجفريد. وأسر الحلفاء فى هجومهم طيلة الشهور الثلاثة نحو ربع مليون ألمانى. ثم كان ماورد من الجبهة الشرقية من انهيار بلغاريا، وانهيار الجبهة الشرقية.

وهنا طلب لودندورف من حكومته أن تسعى إلى عقد الصلح، فأرسلت ألمانيا أول مذكرة بطلب الصلح إلى الرئيس ولسن فى ٣ أكتوبر ١٩١٨م.

وقبل نهاية الشهر وقعت تركيا الهدنة، وفى نفس الوقت كانت النمسا والمجر قد انسحبت أمام إيطاليا فى هزيمة منكرة فى ڤيتوريو ڤينيتو Vettorio Veneto . وفى أوائل نوفمبر دخلت القوات البريطانية كل خطوط الألمان، ووصلت إلى شمال فرنسا . ووصل الأمريكيون إلى الحدود الفرنسية فى سيدان، فى حين كانت القوات الاحتياطية الفرنسية تهدد اللورين.

وكان الماريشال فوش يعتقد أن الحرب لم تنته بعد فى الغرب، وأنها ستطول لمدة خمسة شهور أخرى، ولذلك كان طلب الصلح مفاجأة!

فقد كان مثيرا للدهشة أن ينهزم هندنبورج ولودندورف فى الميدان الغربى بعد انتصاراتهما السابقة فى روسيا ورومانيا وإيطاليا وفرنسا!

وفى يوم ١١ نوفمبر ١٩١٨م عقدت الهدنة التى أنهت الحرب.

الفصل الثامن عشر

الثورة الروسية ١٩١٧م

الثـــــورة الروســـــية ١٩١٧م

(أولاً) روسيا قبل ثورة ١٩١٧م

١ ـ الأحوال السياسية :

منذ أن نفضت روسيا عن كاهلها فى أواخر القرن الخامس عشر سيطرة التتر، ظل الحكم فيها، ولمدة أربعة قرون بعد ذلك، أوتوقراطيا متطرفا يتمثل فى تركز سلطة الدولة فى يد القيصر الذى لا تحد سيطرته حدود دستورية ولا تقيدها قوانين.

وكان أول عهد روسيا بالنظام السياسى فى ١٨٦٤م عندما سمح القيصر إسكندر الثانى بإنشاء مجالس للإقاليم والمقاطعات فى روسيا الأوروبية وحدها، وكان النفوذ فيها فى يد النبلاء وكبار الملاك، ولم يكن لها اختصاصات محددة، وكانت سلطاتها المالية محدودة جدا. وفى عام ١٨٩٠ أعيد تنظيم هذه المجالس حيث أفسح السبيل فيها أمام كبار ملاك الأراضى للحصول على الأغلبية المطلقة.

على أنه عندما وقعت الحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤م وهزمت فيها روسيا شر هزيمة، قامت ثورة دامية فى ٩ يناير ١٩٠٥م

واستمرت إلى ٣ يونيو ١٩٠٧م، واضطر القيصر فى أكتوبر ١٩٠٥م إلى إنشاء نظام نيابى دستورى يتمثل فى برلمان منتخب Duma ومجلس أعلى يدعى مجلس الإمبراطورية، وأن يكون لمجلس الدوما الحق فى التصديق على التشريعات التى تصدرها الحكومة.

وقد قنع المعتدلون بهذا التغيير الدستورى، فسمى هؤلاء بالأكتوبريين Octobarists، اختصارا لـ «اتحاد السابع عشر من أكتوبر». وكانوا يتألفون فى معظمهم من التجار ورجال الصناعة الأغنياء، وعلى رأسهم الكسندر جوتشكوف Guchkov (شارك فيما بعد فى عملية تنازل نقولا الثانى عن العرش).

وعلى الرغم من أن هذا النظام الدستورى كان يعد أضعف النظم الدستورية فى أوروبا فى ذلك الحين، إذ اقتبست نصوصه من دساتير النمسا وروسيا واليابان، ولم يكن يعترف بالمسئولية الوزارية أمام الدوما، وكان الانتخاب غير مباشر - إلا أن هذا النظام كان بشيرا باعادة تنظيم الحياة السياسية على أسس سليمة.

وكان أعضاء مجلس الدوما ينتمون إلى عدة أحزاب سياسية كلها تعارض الأوتوقراطية الروسية. فالى جانب الأكتوبريين، الذين كانوا يهدفون إلى إقامة حكومة على نمط النظام البروسى، يتعاون فيه البرلمان مع الملك - كان هناك الديموقراطيون الدستوريون، الذين اشتهروا باسم «الكاديت» Cadet اختصارا لاسم الحزب

الديموقـراطى الدسـتورى The Constitutional - Democratic Party (وقد شكلوا أول حكومة قومية بعد ثورة فبراير، ولكنها سقطت فى أبريل)، وكانوا ينادون بأن تكون الحكومة مسئولة أمام مجلس الدوما، وأن يملك القيصر ولا يحكم. وكان زعيمهم مليوكوف Mel-yukov ـ وهو مؤرخ.

وإلى جانب هذين الحزبين، كان هناك أحزاب يسارية ثلاثة هى: حزب الاشتراكيين الشعبيين The Popular Socialist Party، ويطلق عليهم اسم «الترودفيكيين» The Trudoviks وعلى رأسهم كيرنسكى، وحزب الاشتراكيين الديمقراطيين الذى انقسم إلى بلاشفة ومناشفة، وهو حزب ماركسى، وحزب الاشتراكيين الثوريين برئاسة تشيرنوف (ومن بعده كيرنسكى)، وهو حزب يمثل الديمقراطية البورجوازية الصغيرة (كان يسعى لجعل الأرض ملكية اجتماعية ـ أى التمتع الفردى المتساوى بالأرض، الأمر الذى كان يعنى من حيث الجوهر إنشاء أكثر الظروف ملاءمة لتطور الرأسمالية).

وقد اجتمع مجلس الدوما الأول عام ١٩٠٦م، ولكن القيصرية لم تشأ التخلى عن سلطاتها القديمة، فقيدت حقوق واختصاصات المجالس التالية، وهى: مجلس الدوما الثانى ١٩٠٧م، ومجلس الدوما الثالث ١٩٠٧م ـ ١٩١٢م، ثم مجلس الدوما الرابع ١٩١٢م، حتى آمن الشعب باستحالة تحقيق النظام الديمقراطى فى روسيا

بالوسائل الدستورية العادية، ولم ير مفرا من الثورة من جديد ـ وهو ماحدث فى فبراير ١٩١٧م.

٢ - الأحوال الاقتصادية :

هذا على كل حال فيما يتصل بالأحوال السياسية الداخلية فى روسيا، أما فيما يتصل بأحوالها الاقتصادية، فقد كانت هذه الحياة فى القرن السابع عشر تسير على نمط العصور الوسطى، فقد تخلفت روسيا عن الثورة الصناعية الأوروبية حتى عام ١٨٦٠م، كما تأخرت عن تقدم أوروبا الغربية الرأسمالى، فلم يكن فيها من المصانع قبل تلك السنة إلا عدد قليل.

ولكن الصناعة أخذت فى التقدم بعد قانون التحرير عام ١٨٦١م الذى ألغى الاسترقاق والسخرة. ولما قامت النهضة الصناعية فى ألمانيا بعد توحيدها، وظهرت اليابان كدولة حديثة لها خطرها، أخذ الاهتمام فى روسيا يشتد بالتصنيع، فتقدمت الصناعة بخطى واسعة، ولكنها بطبيعة الحال لم تصل إلى مستوى الدول الغربية الأخرى. فبقى الاقتصاد فى أساسه زراعيا.

أما التجارة فكانت متأخرة هى الأخرى بالقياس للدول الغربية، فقبل الحرب العالمية الأولى بعام واحد، أى فى ١٩١٣م، كانت تجارة روسيا الخارجية تعادل $\frac{١}{٢}$ تجارة هولندا التى تبلغ مساحتها $\frac{١}{٣٠٠}$ من مساحة روسيا!

كما أن طبيعة التجارة الروسية أيضا كانت تدل على تأخرها، فقد كانت روسيا تستورد الفحم والمواد الكيماوية والآلات والأسلحة والمنسوجات والمصنوعات المختلفة، أما صادرتها فكانت قاصرة على المحصولات الأولية كالحبوب والكتان والخشب والفرو والجلد ومستخرجات الألبان، وهى نفس المحصولات التى تصدرها المستعمرات والدول الزراعية الصغيرة.

٣ ـ الأحوال الاجتماعية :

فاذا انتقلنا إلى أحوال روسيا الاجتماعية، نجد أن الاسترقاق ظل طابع المجتمع الروسى منذ القرن الـ ١٦م. وقد زاد هذا الاسترقاق بعد المجاعات التى انتشرت فى روسيا فى القرن الـ ١٧م، حيث التحق عدد كبير جدا من الفلاحين بخدمة الملاك كأرقاء يعملون طيلة حياتهم هم وذريتهم فى أرض الملاك مقابل تأمين حصولهم على الطعام والمأوى. وإلى جانب هؤلاء كان يوجد الفلاحون الذين حرمت عليهم الحكومة الانتقال إلى أمكنة غير التى هم فيها، لضمان جبايتها ما تفرضه عليهم من الضرائب، وكذا إمدادها بالجنود للخدمة العسكرية والعمال اللازمين لأعمالها.

وبذلك نشأ نوعان من الفلاحين: فلاحون أرقاء للملاك، وفلاحون عمال لدى الحكومة، وهم فى حكم الأولين.

وقد كانت مقاومة الفلاحين للإسترقاق عظيمة على مر الأجيال، واتخذت طريقين: الأول، الحرب مع سادتهم، والثانى، الانتقاض على الملاك والحكومة. واتخذت ثورات الفلاحين فى بعض الأحيان شكلا خطيرا تحول إلى حروب أهلية دامية، كما حدث فى حروب ١٦٠٦ _ ١٦١٧، ١٦٧٠ - ١٦٧١، ١٧٠٧ _ ١٧٠٨م، وامتاز زعماء هذه الثورات بالبطولة النادرة، وبلغ عدد الاضطرابات التى قام بها الفلاحون فى الفترة من ١٨٤٥ _ ١٨٦٠م وحدها حوالى الأربعمائة.

وقد ترتب على هذا الوضع الاجتماعى أن أصبحت روسيا مركزا للجمعيات السرية، وموطنا هائلا للحركات الثورية. كما أن حالة الفلاحين عموما، والأرقاء خصوصا، أثارت عطف المصلحين والمفكرين وكان لها تأثيرها فى الأدب الروسى فى كتابات جوجول Gogol وبوشكين Pushkin وتشيكوف Chekhov وتولستوى Tolostoy وجوركى Gorky.

وقبل عام ١٨٦١م كان عدد سكان روسيا الأوروبية ٦٠ مليون نسمة، خمسون مليونا منهم فلاحون. وكان أكثر من عشرين مليونا منهم أرقاء للنبلاء وملاك الأرض، وما يقرب من العشرين مليونا الآخرين فلاحون لدى الدولة لا تختلف حالتهم كثيرا عن حالة الأرقاء.

وإزاء الثورات المتوالية، وصيحات المصلحين السياسيين، صدر قانون تحرير الأرقاء عام ١٨٦١، فكان بداية تحول روسيا إلى دولة حديثة، وأحدث ثورة اقتصادية واجتماعية.

فقد استطاع الفلاحون بعد صدور قانون التحرير شراء كثير من أراضى النبلاء والملاك واستئجارها، واستطاعوا بمرور الزمن التخلص من بقايا عهد الاسترقاق، ونشأت تبعا لذلك طبقة كبيرة من الملاك الصغار والمتوسطين والكولاك Kulaks (الأثرياء). وقد بلغت نسبة ما يملكه الأخيرون، وعددهم نصف مليون، نصف مجموع الأراضى الزراعية. وأصبح فى روسيا عام ١٩٠٣م حوالى العشرة ملايين أسرة تشتغل بالزراعة، وغدا الفلاحون أحراراً فى التنقل، فسهل من ثم على الصناعة الحصول على حاجتها من العمال (قانون ربط الفلاحين بالأرض يمنع المصانع من الحصول على العمال).

ويمكن رسم صورة إجمالية للحالة الاجتماعية فى روسيا قبل الثورة كانعكاس للحالة الاقتصادية فيها، على النحو التالى:

كان الاقتصاد الروسى فى الغالبية الساحقة اقتصادا زراعيا، وبالتالى فقد كان خمسة أسداس السكان يعملون فى الأعمال الزراعية. وكانت الفوارق الاقتصادية والاجتماعية عظيمة فى قطاع الزراعة بسبب استيلاء نسبة صغيرة من كبار الملاك لا يتجاوز عددهم ١/٢ مليون على ١/٢ مجموع الأراضى الزراعية، ووجود ملايين عظيمة تعيش عند حد الكفاف فى حالة شبه قنية.

وفى الوقت نفسه، كان تقدم الصناعة فى روسيا قد أسفر عن تزايد العمال بصورة مضطردة، فقد قفز عدد العمال فى روسيا

الأوروبية من ٧٠٠ ألف فى عام ١٨٦١م إلى ١٫٤٠٠٫٠٠٠ فى عام ١٨٩٠م إلى ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ عام ١٩٠٠م. ولكن الأحوال التى كانوا يعملون فيها كانت أحوالا سيئة جداً، إذ تراوحت ساعات العمل بين ١٢ ـ ١٥ ساعة، واستخدمت النساء والأطفال على نطاق واسع، وكان العمال يتقاضون أجورا منخفضة جداً، ولم تصدر الدولة قوانين ولوائح لحمايتهم وتأمين مستقبلهم.

فى هذه الظروف كان من الطبيعى أن تفرخ الاضطرابات، فبدأ العمال فى تكوين نقابات تضم شملهم، وتطالب بحقهم فى الراحة وزيادة الأجور والخدمات الاجتماعية. وبرزت إلى الوجود حركات الاضراب والاعتصام بعد عام ١٩٠٠م، واستطاعت نقابات العمال فى الفترة من ١٩٠٠ – ١٩١٤م الحصول بالتدريج على بعض المطالب، مثل إدخال نظام التأمين ضد الحوادث، والرعاية الطبية، وزيادة الأجور بنسبة ٥٠٪.

وقد لعبت الجماعات الماركسية التى تألفت فى ذلك الحين مع تسرب أفكار غرب أوروبا إلى روسيا، دورا كبيرا فى نضال هؤلاء العمال ضد أصحاب الأعمال الرأسماليين، وفيما بعد فى الانتقال بروسيا من النظام الرأسمالى إلى النظام الإشتراكى بثورة أكتوبر ١٩١٧م، مما يستوجب منا دراسة الحركة الماركسية فى روسيا قبل الثورة.

٤ ـ الحركات الثورية الروسية :

شهد تاريخ روسيا فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ثلاث حركات ثورية رئيسية تحمل كل منها فلسفة ثورية معينة.

الحركة الأولى : هى حركة «الشعبيين» ومنظمتهم «الأرض والحرية» Zemlya i Volya وكانت النظرية الثورية للشعبيين تقوم على أن الرأسمالية لن تتطور فى روسيا كما تطورت فى أوروبا الغربية، وأن روسيا تسير فى طريق خاص يميزها عن البلدان الأخرى، ومن ثم اعتبروا أن الفلاحين، وليس العمال، هم الطبقة الثورية الأساسية، وكانوا يحلمون بالانتقال إلى الاشتراكية عن طريق المشاعة (أو الشيوعية)، وآمنوا بثورة الفلاحين دون ثورة البروليتاريا، وكان المثقفون الثوريون يذهبون للقرية. أو كانوا يقولون آنذاك: إلى الشعب، لاستنهاض همم الفلاحين ضد الحكم المطلق. ومن هنا سموا بالشعبيين.

وقد انقسمت منظمة «الأرض والحرية» إلى منظمتين هما:

الأولى : منظمة التقسيم الأسود، وتتألف من الشعنبيين الثابتين على مبادئهم.

الثانية : منظمة سرية اسمها «نارودنايا ڤوليا» Narodnaya Volya، وتعنى إرادة الشعب، وألفها الشعبيون الإرهابيون الذين رأوا الالتجاء إلى الإرهاب الفردى والاغتيالات لممثلى

السلطة على أمل إجبار القيصرية على تغيير سياستها . وبطبيعة الحال كانت الفكرة خاطئة من جانبهم لأن الاغتيالات الفردية لا تغير نظام الحكم، وإنما يتغير نظام الحكم بتغير البناء التحتى.

وقد قامت هذه المنظمة بخمس محاولات فاشلة لاغتيال القيصر «الإسكندر الثانى Alexander II» . وفى عام ١٨٨١م تمكنت من اغتياله، فتعرضت لمطاردات الحكومة القيصرية المستمرة وأحكام الإعدام، حتى سحقت هذه المنظمة سحقا تاما ـ وبعدها تخلى الشعبيون عن النضال الثورى وأصبح «الصف» الثانى منهم يتزلف للحكم المطلق، وأصبحوا يسمون بالشعبيين الليبراليين.

أما الحركة الثورية الثانية فهى الحركة الماركسية، وقد قامت على يد «بليخانوف Plekhanov»، الذى كان عضوا فى منظمة التقسيم الأسود، ثم انشق عليها فى أواخر السبعينات بسبب الخلاف حول قضية الإرهاب الفردى، وألف عام ١٨٨٣م أول جماعة ماركسية فى سويسرا تحت اسم جماعة «تحرير العمل» The Emancipation of labour.

وكانت نظريته وزملائه، وعلى رأسهم «أكسلرود Axelrod» ، تقوم على تطبيق الفكرة الماركسية، التى تذهب إلى أنه لايمكن قيام الثورة الاشتراكية إلا على يد «البروليتاريا» الصناعية بعد تطور الرأسمالية فى روسيا. وكانت ظروف التوسع الرأسمالى فى روسيا

وبداية الاضطرابات الصناعية مما يعطى أساسا واقعيا لبرنامجهم. وقد ترجم أفراد هذه الجماعة مؤلفات «ماركس» Marx و «إنجلز» Engels للروسية وأرسلوها إلى روسيا.

وفى التسعينيات بدأت تظهر فى روسيا ذاتها جماعات ماركسية، أولا فى بطرسبرج St. Petersburg (لينجراد)، ثم فى المدن الكبيرة الأخرى. وفى خلال عشر سنوات كان عدد هذه الجماعات أكثر من عشر جماعات ماركسية، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم «الاشتراكيين الديمقراطيين»Social - Democratic groups.

وكانت هذه الجماعات تكتفى بترويج أفكار الاشتراكية العلمية بين العمال الطليعيين وبين المثقفين، ولكنها لم تقم بعمل سياسى بين الجماهير، فظلت على هذا النحو مجرد تيار فكرى غير مرتبط بالحركة العمالية، وقائم على الطبقة المثقفة والطليعة العمالية المثقفة، فضلا عن ذلك فانها كانت جماعات مفككة لا رابط بينها.

وبذلك كانت الحاجة ماسة إلى «حزب» يجمع بين مذهب الإشتراكية العلمية والحركة العمالية من جانب، ويوحد الجماعات المتفرقة على أساس من المركزية والانضباط الحزبى من جانب آخر.

وقد تم ذلك على يد «فلاديميرايلتش أوليانوف» Vladimir Ilyich Ulynov المعروف باسم «لينين» (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤م).

ولد «لينين» يوم ١٠ أبريل عام ١٨٧٠م فى عائلة بورجوازية صغيرة. فقد كان ابنا لموظف حكومى صغير، وقد تشرب هو وأخوه الأكبر بالأفكار الثورية، وحين بلغ «السابعة عشرة» أعدم شقيقه الأكبر لاشتراكه فى مؤامرة اغتيال الإسكندر الثانى، ودخل أوليانوف جامعة «كازان» Kazan حيث اعتنق الماركسية، وطرد منها لنشاطه الثورى، ثم نفى إلى إحدى القرى.

وحين عاد من نفيه، التحق بإحدى الجماعات الماركسية، وأخذ يتعلم أن النظام الاجتماعى الذى يحيا فيه الرأسماليون على حساب الكادحين لا يبقى إلى الأبد، وأنه للتخلص من النير الرأسمالى لابد من قوة اجتماعية قادرة على إسقاطه وبناء مجتمع جديد اشتراكى، وهذه القوة هى «البروليتاريا Proletaria» (الطبقة العاملة). كما تعلم أنه لتحقيق ذلك لابد أن يكون هناك «حزب ثورى» «للبروليتاريا». يرأس نضالها من أجل الاشتراكية ويدلها على هدفها الصحيح.

وفى سنة ١٨٩١م حصل لينين من كلية الحقوق جامعة بطرسبورج على شهادتها، وأخذ يمارس المحاماه فى محكمة سمارا Samara. وفى سنة ١٨٩٣م سافر «لينين» إلى بطرسبرج Pe- tersburg عاصمة روسيا، وأصبح زعيما للجماعات الماركسية فيها. وفى ربيع سنة ١٨٩٥م سافر إلى سويسرا مندوباً عن ماركسيى بطرسبرج للاتصال بجماعة تحرير العمل، واتفق مع بليخانوف وأكسلرود على إصدار مجموعة مقالات مشتركة باسم «العامل».

وعـاد إلى بطرسـبـرج فى سـبـتـمـبـر «١٨٩٥» ليـوحـد الـحلقـات الماركسية فى منظمـة سـياسـيـة واحـدة أطلق عليـهـا اسم «إتحـاد النضـال لتحـرير الطبقة العـاملة»، "The League of Struggle for the Emancipation of the working Class". وبذلك أصـبـح هناك لأول مـرة فى روسـيـا منظمـة تجـمع بين أفكار الماركسية والحـركة العمالية، ولكنها كانت على مستوى بطرسبرج وحدها.

وقـد قـاد هذا الاتحـاد إضـراب عـمـال نسـيج بطرسـبرج الشـهير فى صـيف ١٨٩٦م، مما جعل الحكومـة القيصـرية تتتبع نشـاط هذا الاتحـاد، وتنزل به ضـربة شـديدة عن طريق اعتقـال أعضـائه، وعلى رأسهم «لينين».

وقد ظل لينين سـجينا فى سـجن بطرسـبرج «١٤» شهراً، ثم نفى إلى سـيـبـريا Siberia فى فـبـراير ١٨٩٧م حـيث قـضـى هـنـاك ثلاث سنوات حتى يناير سنة ١٩٠٠م.

ويمكن تقسيم نشـاط «لينين» الثورى إلى عدة مراحل هى :

١ ـ المرحلة الأولى : «نفيه من ١٨٩٧ ـ ١٩٠٠م».

٢ ـ المرحلة الثانية : «هجرته الأولى من ١٩٠٠ ـ ١٩٠٥م».

٣ ـ المرحلة الثالثة : «هجرته الثانية من ١٩٠٧ ـ ١٩١٧م».

٤ ـ المرحلة الرابعة : «قيادته لثورة سنة ١٩١٧م».

* تتميز فترة نفى «لينين» الأولى بثلاثة معالم هى:

المعلم الأول : صدور كتابه «تطور الرأسمالية فى روسيا»، الذى يعتبر تتمة مباشرة لكتاب ماركس «رأس المال».

المعلم الثانى : هو نضاله ضد ما أطلق عليه اسم «النضال الاقتصادى» للإشتراكية الديمقراطية، وهم الماركسيون» الذين رأوا التخلى عن فكرة «النضال السياسى» للعمال، للوصول إلى الحكم، والإكتفاء بالنضال الإقتصادى لزيادة الأجور وتخفيض ساعات العمل وتحسين ظروفه.

المعلم الثالث : هو تأليف حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى "The Russian Social - Democratic Labour Party" من ١ - ٣ مارس ١٨٩٨م. وقد عقد أول مؤتمر يمثل المنظمات الماركسية فى بطرسبرج وكييف Kiev وموسكو Moscow وغيرها فى مدينة «مينسك» Minsk من ١ ـ ٣ مارس ١٨٩٨م. ثم صفى على يد الحكومة سريعاً.

ـ أما المرحلة الثانية، فهى هجرته الأولى من ١٩٠٠ : ١٩٠٥:

وتتميز بإصدار جريدة «إسكرا Iskra» أى الشرارة التى صدرت فى «ميونخ» وكان يتم توزيعها فى روسيا سراً، وكتابة «لينين» مقالات بإسمه المستعار وهو «لينين» (نسبة إلى نهر «لينا» السيبيرى). فى حين كان «بليخانوف» يعرف باسم «فولجين» نسبة إلى نهر «فولجا Volga». وتتميز أيضاً بصدور كتابه «ما العمل؟»، الذى وضع فيه نظرية «الحزب الثورى» للطبقة العاملة.

كما تتميز بافتتاح «المؤتمر الثانى لحزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى» فى «بروكسل» فى يوليو ١٩٠٣م، وهو أهم المؤتمرات، إذ انقسم فيه الاشتراكيون الديمقراطيون إلى بلاشفة Bolsheviks (أغلبية) ومناشفة Mensheviks (أقلية). وقد استأنفت جلسات هذا المؤتمر فى «لندن» بسبب مضايقات البوليس البلجيكى، ونوقش فيه برنامج الحزب الثورى الذى أعدته هيئة تحرير اسكرا، وهو أول برنامج حزبى فى العالم اعتبر النضال من أجل ديكتاتورية البرولتاريا مهمة أساسية للحزب البروليتارى. وتتضمن نظرية «لينين» فيه تحالف الطبقة العاملة مع الفلاحين.

وقد أقر المؤتمر هذا البرنامج بأكثرية الأصوات. على أن الخلاف وقع عند مناقشة التنظيم الداخلى للحزب، فقد وضع لينين صيغة قصد بها إقامة الصعاب فى وجه إنضمام العناصر غير البرولتارية للحزب، وإنشاء حزب منظم موحد يسوده الانضباط الحزبى. وكانت هذه الصيغة تشترط لعضوية الحزب أن يعترف العضو ببرنامج الحزب، ويدفع اشتراكات العضوية، ويكون منتسباً لإحدى منظمات الحزب، ومشتركاً فى عمل الحزب.

على أن غالبية المؤتمر أقرت اقتراحاً آخر «لمارتوف» Martov يقضى بالاكتفاء فى شروط العضوية بالاعتراف ببرنامج الحزب، ودفع الاشتراك، دون الالتزام بالانتساب لمنظمة من منظمات الحزب، ودون الخضوع للانضباط الحزبى. وكان هدف هذا الاقتراح فتح

أبواب الحزب أمام أكبر عدد. ولكن «لينين» رأى أن هذا الاقتراح يجعل الحزب مائعا، ويفتح الحزب أمام العناصر البورجوازية والمترددة وغير الثابتة، وأنه ليس بوسع العمال أن ينتصروا على أعدائهم الأقوياء بحزب مبنى على هذه الأسس.

على أنه عند انتخاب اللجنة المركزية لهيئة تحرير «إسكرا»، التى اعُترف بها كجريدة رسمية للحزب الماركسي، تغيرت نسبة الأصوات لصالح «لينين» وأنصاره، ولذلك سموا بالبلاشفة أو «بلشفيك»، وهى كلمة مشتقة من الكلمة الروسية «بولشينستفو» ومعناها الأكثرية، وأطلق على المعارضين اسم، المناشفة، أو «منشفيك»، المشتقة من الكلمة «مينشينستفو» أى الأقلية.

وعلى هذا النحو فإن أهمية «المؤتمر الثانى لحزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى» تتمثل فى أنه أنشأ حزباً بروليتاريا من طراز جديد، هو «الحزب البلشفى اللينينى».

وبعد عامين من هذا المؤتمر الثانى لحزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسي»، أو عام ونصف، قامت ثورة ١٩٠٥م فى روسيا. ففى يوم ٩ يناير سنة ١٩٠٥ أطلق البوليس بأمر القيصر النار على العمال الذين ساروا إليه فى سلام مع زوجاتهم وأولادهم ليشرحوا له مطالبهم. وقد أثار هذا الاعتداء الشعب، فلم يأت المساء حتى كانت المتاريس تقام فى الأحياء العمالية بالمدينة، ورفعت شعارات «الموت أو الحرية».

وقد أدرك «لينين» أن الثورة سوف تتصاعد حتماً، فأراد الاستعداد لها عن طريق عقد مؤتمر للحزب يحدد تكتيك النضال. وفى أبريل ١٩٠٥م عقد المؤتمر فى لندن بالفعل، وكان أول مؤتمر للبلاشفة، لأن المناشفة رفضوا حضوره، وعقدوا لأنفسهم مؤتمرا آخر فى «جنيف».

وقد ناقش المؤتمر البلشفى المسائل الجذرية للثورة الصاعدة، وأعد قرارات أساسية عن الانتفاضة المسلحة، والحكومة الثورية المؤقتة، والموقف من الحركة الفلاحية. واعتبر الحزب الانتفاضة المسلحة هى مهمته الرئيسية والعاجلة، وكلف جميع منظمات الحزب بتسليح البروليتاريا، ووضع خطة الثورة المسلحة، وقيادتها قيادة مباشرة، وأقر الصيغة اللينينية الخاصة بعضوية الحزب.

ولم تلبث أن أخذت الثورة تتصاعد فى ربيع وصيف سنة ١٩٠٥م، حيث حدثت اضطرابات كثيرة فى المراكز الصناعية. وفى الوقت نفسه تصاعدت الموجة الفلاحية، ووقف الجيش أداة القيصرية متردداً.

وفى يونية ١٩٠٥م ثار بحارة البارجة «بوتمكين» Potemkin فى أسطول البحر الأسود. وفى الخريف بلغت الحركة الثورية مداها، وتوقفت عن العمل المصانع والبريد والبرق، وأخمدت كل حياة فى البلد، وظهرت لأول مرة فى التاريخ منظمات سياسية جماهيرية هى «سوفيتات Soviets العمال»، وقد قدرها «لينين» تقديرا عظيماً، ووصفها بأنها مراكز للانتفاضة المسلحة، وجنينا للحكم الشعبى.

ولم تملك الحكومة القيصرية، وقد أرعتبها الحركة، إلا تقديم تنازلات فى ١٧ أكتوبر ١٩٠٥م فأصدر القيصر بيانا وعد فيه الشعب بالحريات الفردية: حرية الكلام، وحرية الصحافة، وحرية الاجتماعات، وغيرها من الحريات المدنية.

وفى ذلك الحين وقع الخلاف فى وجهات النظر بين البلاشفة والمناشفة فى تقدير الثورة وقواها المحركة، وفى النظر إلى مهام الطبقة العاملة والحزب، وتحديد تكتيكهم.

فقد رأى «لينين» والبلاشفة أن الثورة التى بدأت فى روسيا هى ثورة بورجوازية ديمقراطية، مهمتها القضاء على بقايا القنية، وإسقاط القيصرية، ونيل الحريات الديمقراطية.

ومعنى ذلك أنها ليست ثورة بروليتارية هدفها إقامة ديكتاتورية البروليتاريا، وإنما للبروليتاريا مصلحة أساسية فى نجاحها، لأن انتصار البرجوازية التام يقرب نضال البروليتاريا من أجل الاشتراكية، وبالتالى تصبح هى القوة الرئيسية المحركة للثورة وقادتها. وتصبح مهمتها إقامة الديكتاتورية الثورية الديمقراطية، أى حكم البروليتاريا والفلاحين معاً، وتكون هيئتها هى الحكومة الثورية المؤقتة التى تقوم بتحويل الثورة الديمقراطية إلى الاشتراكية فى الوقت المناسب.

وأهمية هذه النظرية أنها تعتبر النظرية الأولى فى تاريخ الماركسية التى تبين خصائص «الثورة البرجوازية الديمقراطية» فى عصر الإمبريالية، وقواها المحركة وآفاقها.

أما المناشفة فكانوا يرون أنه مادامت الثورة برجوازية فقيادتها يجب أن تكون برجوازية. أما مهمة الطبقة العاملة فتقتصر على دعمها فقط. وكان المنشفيك يعارضون تحالف البرولتاريا مع الفلاحين، لأنهم لم يكونوا يثقون بقدرة الفلاحين الثورية، وكانوا يرون أن الثورة الاشتراكية لن تقوم إلا عندما تصبح البرولتاريا هى الأكثرية بين سكان البلد.

كذلك وقع الخلاف حول وسيلة الثورة. فبينما اعترض المنشفيك على الانتفاضة المسلحة، رأى لينين أن الانتفاضة المسلحة هى الوسيلة الحاسمة للقضاء على الحكم القيصرى المطلق. ولذلك حين وقعت الاضطرابات الأولى، انتقد لجنة بطرسبرج النضالية التى نظمت لإعداد الانتفاضة، لتقاعسها وترددها، ورسم خطة محددة لعملها قائلاً : «اتصلوا بالشباب، وأنشئوا على الفور فرقا قتالية من الطلبة والعمال، وليتسلح كل منهم بقدر ما يستطيع. وعلى الفصائل أن تشرع حالاً فى التدريبات الحربية».

وفى الوقت نفسه اتخذ «لينين» التدابير النشطة لشراء الأسلحة من الخارج لإرسالها إلى روسيا. وعندما ثار بحارة البارجة «بوتمكين» Potemkin أرسل إلى روسيا مندوبا عنه لمساعدة ثوار البارجة بالارشادات الثورية.

وفى ذلك الحين تألف «الحزب الدستورى الديمقراطى «الكاديت» فى أكتوبر سنة ١٩٠٥م، من البرجوازيين والملاك العقاريين والمثقفين البورجوازيين. وقد نادى بإنشاء ملكية

دستورية، معارضاً بذلك شعار الجمهورية، ودافع عن ملكية الملاك والإقطاعيين للأرض، واستصوب قمع القيصرية للحركة الثورية. وقد هاجمهم «لينين» فى كتابه : «انتصار الكاديت ومهام حزب العمال»، وفضح تواطؤهم مع القيصرية، وسماهم: «ديدان قبور الثورة»!

وفى الفترة التالية عقد مؤتمران لحزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى:

أولهما: المؤتمر الرابع التوحيدى لحزب العمال الاشتراكى الروسى الديمقراطى، فى استكهولم.

الثانى: المؤتمر الخامس، الذى عقد فى أواخر ابريل سنة ١٩٠٧م.

وفى بداية يونيه ١٩٠٧م عاد «لينين» من لندن إلى روسيا، وأقام فى فنلندة (وهى جزء من الإمبراطورية القيصرية). ولكن نظراً لأن جواسيس القيصر كانوا يتتبعونه حتى أصبح مقامه فى خطر، فقد قرر المركز البلشفى سفر لينين للخارج مرة أخرى.

وقد كانت هذه هى الهجرة الثانية من ١٩٠٧ - ١٩١٧م، وتمثل المرحلة الثالثة من مراحل نضاله.

وفى تلك الأثناء عادت القيصرية إلى السيطرة من جديد، وأرسلت عشرات الآلاف من المناضلين إلى الأشغال الشاقة، وأعدمت الألوف، وسحقت منظمات الحزب حتى اضطرت للعمل فى

الخفاء الشديد. وتراجع المناشفة فى ذعر وخوف، فرأوا تصفية منظمات الحزب والتوقف عن العمل الثورى. ولذلك سماهم «لينين» «بالمصفين» Liquidators، وكانوا يأملون فى الحصول من السلطة على حزب عمالى علناً.

أما البلاشفة، فقد سقط بعضهم فى تذبذبات خطيرة، وحاولوا صرف الحزب عن العمل فى المنظمات العلنية، واقترحوا سحب الكتلة الإشتراكية الديمقراطية من مجلس الدوما. ولذلك سموا بالسحبيين Otzovists – وقد وقف «لينين» فى وجه ذلك كله، فقد هاجم المنشفيك المصفين، متمسكا بوجود الحزب السرى، كما هاجم البلاشفة السحبيين قائلا: «إن التخلى عن العمل العلنى يؤدى بالحزب إلى الانعزال عن الجماهير، ويحوله إلى منظمة منغلقة على نفسها، عاجزة عن أى عمل ثورى جديد». وأطلق على السحبيين اسم «المصفين المقلوبين».

وفى سنة ١٩١٠م بدأ انتعاش الحركة العمالية من جديد فى روسيا، وجرت فى الصيف والخريف فى مصانع بطرسبرج وموسكو وغيرهما إضرابات ومؤتمرات شعبية وغير ذلك من ألوان النضال السياسى، وفى السنين التالية ظلت الحركة الثورية على تصاعدها. وفى خريف سنة ١٩١٢م جرت الانتخابات لمجلس الدوما الرابع، وكان من رأى «لينين» أن الاشتراك فى الحملة الانتخابية يساعد الحزب فى تقوية صلته بالجماهير، وتنشطة المنظمات الحزبية.

وتقدم البلاشفة بثلاث مطالب رئيسية، هى: (١) جمهورية ديمقراطية، (٢) ثمانى ساعات عمل فى اليوم. (٣) مصادرة أملاك الإقطاعيين.

وقد نجح البلاشفة فى جميع المناطق الأساسية الست التى يتركز فيها أربعة أخماس البروليتاريا الروسية. وكانت الكتلة الاشتراكية الديمقراطية فى مجلس الدوما ـ تضم عدا البلاشفة الست ـ سبعة من المنشفيك انتخبوا عن المناطق غير الصناعية.

وكانت مسألة القوميات فى ذلك الحين ذات أهمية، نظراً لأن الدول البرجوازية، فى إعدادها للحرب العالمية، كانت تؤجج العداء القومى، وتسعى لشق الطبقات العاملة. وطرح «لينين» أمام البلاشفة مهمة الذود عن وحدة الحركة العمالية التى هى أساس قوتها. وكان من المهم للغاية فى روسيا، المتعددة القوميات، صهر نضال البروليتاريا الروسية الطبقى. وفى مقالين تحت عنوان : «ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية»، و«حق الأمم فى تقرير مصيرها»، طور «لينين» ودعم بالحجج البرنامج الماركسى فى مسألة القوميات وسياسة الحزب البلشفى تجاه القوميات».

وكانت مطالب الحزب الأساسية فى مسألة القوميات هى: المساواة التامة فى الحقوق بين الشعوب، وحق الأمم فى تقرير مصيرها بنفسها ـ أى الحق فى الانفصال وتكوين دولة – والاتحاد المتين بين جميع عمال الدويلات والقوميات فى منظمات بروليتارية موحدة. وقد انتقد لينين القوميين الأوكرانيين قائلاً: «إن أوكرانيا

الحرة ممكنة بشرط أن يتوحد نضال البرولتاريا الروسية والأوكرانية، وبدون هذه الوحدة لايمكن الحديث عن مثل هذه الحرية».

وفى النصف الأول من سنة ١٩١٤م كانت الحركة الثورية تزداد اتساعاً، وكانت الإضطرابات الاقتصادية تمتزج مع الإضطرابات السياسية، وتسير البلاد نحو ثورة جديدة، حين نشبت الحرب العالمية الإمبريالية الأولى.

(ثانياً) ثــــورة فبرايــــر ١٩١٧م

بدأت الحرب الإمبريالية فى صيف ١٩١٤م، وتصارعت فيها مجموعتان كبيرتان من الدول الإمبرالية: ألمانيا والنمسا والمجر من جانب، وبريطانيا وفرنسا وروسيا من جانب آخر، ثم دخلت الحرب فيما بعد الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وغيرهما من الدول، وأصبحت الحرب عالمية، وكانت نكبة فظيعة على الشعوب ألقى عبؤها على عاتق الكادحين.

وقد اختلف رأى الأحزاب الروسية تجاه الحرب. فقد أيدها الديمــقــراطيــون الدســتــوريون (الكاديت) وعلى رأســهم ميليوكوف Miliukov. وأما المناشفة فقد اختلفوا فيها، فقد انحازت جماعة منهم على رأسها «بليخانوف»، عميد الاشتراكيين الديمقراطيين فى روسيا، إلى جانب الحلفاء، فى حين اتخذت جماعة أخرى على رأسها «مارتوف» موقفا «أممياً»، واعتبرت جميع الدول المتحاربة مذنبة فى جرم امبريالى مشترك.

وكان انحياز «بليخانوف» إلى قضية الحلفاء ضربة قاسية للاشتراكيين الروس، لأنه كان الرائد الكبير العجوز للماركسية الروسية، وكان موضع احترام كبير من منظرى الاشتراكية البارزين، بالإضافة إلى أنه كان «الديمقراطى الاشتراكى» الروسى الذى حظى بأكبر احترام فى «الدولية الثانية»، -The Second Inter

national (١٨٨٩ ــ ١٩١٤م) وكانت له أوثق الاتصالات بالاشتراكية الألمانية، وكان له – بوصفه معلم «لينين» السابق، وأبرز زملائه فى السنوات الأولى من فترة «إسكرا» ـ نفوذ كبير فى الدوائر البلشفية والمنشفية على السواء، وبخاصة بين أولئك الذين كانوا لايزالون يأملون فى رأب صدع الحزب الاشتراكى الديمقراطى.

أما البلاشفة، فقد بقوا دون تحول تحت قيادة «لينين»، واتخذوا موقفا مناهضا للحرب، أطلق عليه اسم «الانهزامية الثورية».

وكان «لينين» قد نبه أكثر من مرة إلى استعداد الرأسماليين للحرب، ودعا إلى النضال ضدها. وصيغ فى المؤتمرين الاشتراكيين العالميين، فى شتوتجارت Stuttgart (١٩٠٧م) وبال Basle (١٩١٢م)، تاكتيك «الاشتراكية الديمقراطية» تجاه الحرب، وتعهد زعماء الأحزاب الاشتراكية الأوروبية الغربية بالنضال ضد الحرب، وبأن يستنهضوا شعوبهم فى حال نشوب الحرب، لإسقاط الرأسمالية.

ولكن عندما بدأت الحرب، خان زعماء هذه الأحزاب مصالح البروليتاريا، ووقفوا جهارا إلى جانب الحكومات البورجوازاية الحاكمة فى بلادهم، وأخذوا يقومون بدعاية شوڤينية (قومية متعصبة) تزعم أن النضال من أجل الاشتراكية والتضامن الطبقى بين عمال العالم قاصر على زمن السلم، أما فى ظروف الحرب فعلى البروليتاريين أن ينسو صراعاتهم مع الحكومات البورجوازية

فى بلادهم، ويخضعوا كل شىء لمطالب الحرب، وأصبح الاشتراكيون الآخذون بمثل هذه الآراء يسمون بالاشتراكيين الشوڤينيين. وفى فرنسا وبريطانيا وبلجيكا اشترك الاشتراكيون فى الحكومة، وفى ألمانيا صوتوا لاعتماد الأموال من أجل الحرب. وقد وقف قسم آخر من الاشتراكيين، على رأسهم كاوتسكى Kautsky فى ألمانيا، وتروتسكى Trotsky فى روسيا، موقفا وسطيا، فأعلنوا عدم اتفاقهم مع الشوفينيين أو خصومهم، ولذلك سموا بالوسطيين.

فى تلك اللحظات التاريخية رفع لينين والبلاشفة شعار «إعلان الحرب على الحرب»! وقابل نداءات «الدفاع عن الوطن» بنداء مضاد هو: «تحويل الحرب الإمبريالية إلى حرب أهلية»، تشنها الطبقة العاملة فى كل البلاد ضد الطبقة البورجوازية فيها، على أساس أن الطبقة العاملة إنما هى وقود الحرب فى هذه البلاد ويجب عدم توجيه السلاح ضدها.

وكان رأى لينين أن الحروب إما أن تكون عادلة، وإما أن تكون غير عادلة، أما الحروب غير العادلة فهى الحروب العدوانية الإمبريالية التى تقوم بها البورجوازية بغرض التوسع ونهب واستبعاد الشعوب الأخرى. أما الحروب العادلة فهى حروب الشعوب الدفاعية ضد الغاصبين الإمبرياليين، وحروب التحرير الوطنى، وحروب البروليتاريا من أجل التحرر من النير الرأسمالى، وحروب الدفاع عن الدول الاشتراكية فى وجه هجمات الإمبريالية.

لذلك ناضل حزب البلاشفة نضالا حازما ضد الحرب، وقام النواب البلاشفة فى مجلس الدوما بعمل ثورى بين العمال، محاولين جمع صفوفهم والنضال ضد القيصرية والبورجوازية.

وكان من الطبيعى أن توجه القيصرية الضربات للبلاشفة. فقد نفى النواب البلاشفة فى مجلس الدوما إلى سيبريا لعملهم الثورى، وتعرضت اللجنة المركزية ولجنة بطرسبرج، التى تغير اسمها الى «لجنة بتروجراد Petrograd بعد تغيير اسم المدينة فى أغسطس ١٩١٤م. وكذلك الكثير من المنظمات الحزبية الأخرى لمداهمات البوليس.

على أن الهزيمة التى منيت بها الجيوش الأوروبية فى ميادين الحرب، والخراب والمجاعة، وتعفن العنصرية وعجزها عن حكم البلاد، واشتداد الاستياء من سياسة القيصرية بين جميع فئات السكان، كل ذلك لم يلبث أن فجر الثورة.

ففى ١٤ فبراير ١٩١٧م أضرب ٦٠ مصنعا كبيرا فى بتروجراد تلبية لنداء وجهه حزب البلاشفة، وقد اشترك فى هذا الاضراب ٢٠٠ ألف عامل. وتحول الإضراب إلى مظاهرة ضخمة، ونزل العمال إلى شوارع العاصمة هاتفين بسقوط الحكم المطلق، ومطالبين بالخبز. وأصدرت اللجنة المركزية بيانا دعا إلى الاشتراك فى النضال ضد الحكم المطلق القيصرى، والعمل لتشكيل حكومة ثورية مؤقتة، وإقامة جمهورية ديموقراطية، وتحديد يوم العمل بثمانى ساعات، ومصادرة أراضى الإقطاعيين، وإنهاء الحرب.

وحاولت الحكومة القيصرية، بمساعدة القوات العسكرية، قمع الثورة، ولكنها عجزت عن ذلك، فقد كان الجنود ينضمون إلى العمال الثائرين ويناضلون ضد القيصرية. وأخذت فرق بتروجراد الواحدة وراء الأخرى ترفض إطاعة الأوامر بتفريق المظاهرات، وأعلنت التمرد، وسلم الكثير منهم سلاحه إلى العمال.

وفى هذه اللحظة أصدر نيقولا الثانى Nicholas II قيصر روسيا أمره فى يوم ٢٧ فبراير ١٩١٧م بتعطيل مجلس الدوما. وقد قبل النواب هذا الأمر، ولكنهم قرروا عقد اجتماع خاص على الفور فى مقر المجلس (قصر توريدا)، واتخذوا قرارا يوم ٢٨ فبراير ١٩١٧م بتشكيل لجنة مؤقتة لأعضاء مجلس الدوما تضم ١٠ أفراد «مهمتها إعادة النظام إلى «بتروجراد» وإقامة العلاقات مع الإدارات والشخصيات.

وهكذا ولدت «اللجنة المؤقتة لمجلس الدوما "The Duma Provisional Committee" برئاسة رودزيانكو Rodzyanko رئيس مجلس الدوما، وفيها عضوان من «الكاديت»، وعضوان من «الأوكتوبريين»، وواحد من المناشفة، وواحد من الترودفيكيين – أى الاشتراكيين الشعبيين (كيرنسكى Kerensky) (انتقل كيرنسكى بعد ذلك إلى صفوف الاشتراكيين الثوريين Socialist - Revolutionaries بعد سقوط القيصرية)، بالإضافة إلى بعض التقدميين.

وفى نفس اليوم كان يقوم جهاز آخر للسلطة، شكلته القوى الثورية الجماهيرية، وهو «سوفيت بتروجراد لممثلى العمال» The Petrograd Soviet of Workers' Deputies.

فقد طلب الزعماء الثوريون، الذين خرجوا من السجن بعد أن حررتهم المظاهرات المسلحة، من عمال بتروجراد أن ينتخبوا ممثليهم لسوفيت بتروجراد. ووجهت الدعوات إلى المراكز العمالية الأساسية فى المدينة، وإلى الأفواج الثائرة. وفى الساعة المحددة من ذلك اليوم ٢٧ فبراير ١٩١٧م، حضر خمسون عاملا وعشرون جنديا كممثلين عن العمال والجنود إلى قصر توريدا Taurida الذى تعقد فيه جلسات الدوما، وجرت الانتخابات، وحصل المنشفيك والاشتراكيون الثوريون على الأغلبية، وترأسوا السوفيت، إذ تألف السوفيت من ١١ عضوا، منهم ٣ نواب من مجلس الدوما، وهم: كيرنسكى، والمنشفيان «تشخيدزة» Chkheidza و«سكوبليف» Scobelev (والأولان أعضاء فى اللجنة المؤقتة لمجلس الدوما) واثنان من البلشفيين وعضو مؤيد للبلاشفة، وثلاثة من الاشتراكيين الثوريين.

وهكذا نشأ ماعرف باسم: «ازدواجية السلطة»!

فسرعان مابدأ «سوڤيت بتروجراد» يستولى على مقاليد الأمور، ومارس عمله كسلطة حكومية، فأخذ على عاتقه مهمة تأمين التموين، كما تحمل المسئولية المالية بأن احتل بنك الإمبراطورية، واستولى على بيوت النقد ودوائر المال.

وفى نفس يوم ٢٨ فبراير قرر هذا «السوفيت» إنشاء «مليشيا» Militia عمالية، فى المصانع أصبحت فيما بعد جنين «الحرس

الأحمر»، وطلب إلى الشعب فى العاصمة الالتفاف حوله، وأن يشكلوا «سوفيتات» الأحياء، وأن يمسكوا بزمام الإدارة المحلية.

وفى اليوم التالى أول مارس ١٩١٧م قرر سوفيت بتروجراد بطلان قرارات «لجنة مجلس الدوما المؤقتة» العسكرية إذا تعارضت مع أوامر السوفيت! وأصدر أمره رقم (١) إلى حامية بتروجراد بأن تخضع فى مجال الأعمال السياسية إلى أوامر «سوفيت بتروجراد»، وألا تنفذ أوامر «لجنة مجلس الدوما المؤقتة» العسكرية إلا إذا كانت لا تتناقض مع قرارات «سوفيت بتروجراد».

وقد أدى هذا الأمر إلى إخضاع كافة الوحدات العسكرية فى بتروجراد بكل سلاحها وعتادها إلى الإدارة السياسية «لسوفيت بتروجراد لممثلى العمال».

وقد تم إكمال هذا السوفيت بممثلين عن الجنود والعمال حتى بلغ عددهم ٣٩ عضوا، من بينهم ١١ بلشفيا ومؤيد للبلاشفة.

على أنه فى نفس اليوم (أول مارس) اجتمع «سوفيت بتروجراد» مع «اللجنة المؤقتة لمجلس الدوما». وطلب إليها استلام السلطة، وهى التى استولى عليها العمال والجنود!

ففى ذلك الحين كان الاشتراكيون الثوريون والمناشفة الذين يؤلفون غالبية سوفيت بتروجراد يعتبرون انتقال السلطة إلى أيدى البورجوازية أمراً طبيعيا، فقد كانوا يرون أن الظروف اللازمة للثورة الاشتراكية لم تتوافر فى روسيا، وبالتالى فلا ينبغى أن تكون

السلطة التى تحل محل القيصرية إلا سلطة بورجوازية، وإلا فإن الثورة تفشل وتضيع.

وكان الأساس الذى بنوا عليه هذا الرأى هو أنه طالما أن الثورة بورجوازية، فان على الاشتراكيين ألا يتورطوا فى استلام السلطة.

ولهذا السبب، ففى مساء أول مارس توجه مبعوثون من سوفيت بتروجراد، وهم: تشخيدزة Chkheidza وسكوبيليف Scobelev وآخرون إلى جلسة «اللجنة المؤقتة لمجلس الدوما» لتسليم السلطة إليهم، ولم يشترطوا أكثر من توفير الحرية للأحزاب اليسارية. وكان مما قالوه للجنة: «استلموا السلطة ولكن لا تقتلونا لتجعلوا منا أدوات للدعاية»!

ولم يكن زعماء البورجوازية يتوقعون مثل هذا التنازل، فقد كانت السلطة فى يد السوفيت بالفعل، حتى إن رئيس مجلس الدوما رد على الوفد: إن السلطة بين أيديكم وبوسعكم اعتقالنا جميعاً.

وقد فوجئ العمال والجنود، الذين منحوا ثقتهم للسوفيت، بأنفسهم - بصورة لم يتوقعوها - وقد تمت تصفيتهم من الناحية السياسية، وسلم «المناشفة» و«الاشتراكيون الثوريون» تفويضا كاملا بالثقة للبورجوازية وممثلى رأس المال الليبراليين، خوفا من أن يضطروا فيما بعد إلى تسليمها إلى المتطرفين من البلاشفة! وبهذا الشكل تشكلت مفارقة ثورة فبراير.

وقد أضيفت إلى هذه المفارقة الرئيسية مفارقة أخرى، هى أن الليبرالين فى «اللجنة المؤقتة لمجلس الدوما» كانوا ينوون بعد استلام السلطة من يد الاشتراكيين تسليمها للقيصرية!

فقد قامت خطة الليبراليين (ميليوكوف Milyukov) على إقصاء نيقولا الثانى، ولكن على أساس تسليم العرش لولى العهد الطفل تحت وصاية شقيق القيصر الأمير ميخائيل Michael، وكانت الحجة أن أسرة رومانوف Romanoff لن تصبح خطرا بعد الآن.

وقد توجه وفد من «لجنة الدوما المؤقتة» يتكون من جوتشكوف Guchkov زعيم الأكتوبريين، وشولجين Shulgin رئيس حزب الكاديت، إلى القيصر نيقولا الثانى، الذى وافق على التنازل عن العرش، يوم ٢ مارس ١٩١٧م، ولكن لا لابنه وإنما إلى أخيه الأمير ميخائيل.

وقد تألفت على الفور «حكومة مؤقتة» Provisional Government برئاسة الأمير لفوف Lvov تمثل ائتلاف الأحزاب البورجوازية المعتدلة. وتولى وزارة الخارجية فى ٢ مارس ١٩١٧م، مليوكوف Miliukov زعيم الحزب الديمقراطى الدستورى، وتولى وزارة الحربية جوتشكوف Guchkov زعيم الأوكتوبريين. (بقى فى السلطة حتى عزله الأمير لفوف فى أزمة أبريل ١٩١٧م) وأصبح كيرنسكى وزيرا للعدل، وبهذا أصبحت الوزارة تمثل العناصر البورجوازية، ففيها ممثلو كبار ملاك الأراضى والرأسماليين وأصحاب الأعمال وأرباب المهن. ومهمتها تأسيس دولة دستورية ديمقراطية برلمانية.

على أن الجماهير الشعبية لم تلبث أن قلبت الموقف! فحين قرأ جوتشكوف وثيقة التنازل عن العرش على عمال ورش السكك الحديدية وأنهاها صائحا: «عاش الأمير ميخائيل»، اعتقله العمال، ولم يتيسر تخليصه منهم إلا بمساعدة سرية!

وإزاء ذلك عدلّت «اللجنة المؤقتة لمجلس الدوما» موقفها فى جلستها التى انعقدت فى صباح ٣ مارس، وانحازت إلى الرأى القائل بضرورة تنازل شقيق الملك.

فقد أكد البعض، ومنهم كيرنسكى ورودزيانكو Rodzyanko رئيس مجلس الدوما أن اعتلاء قيصر جديد سيثير المشاعر الثورية، وأنه من الضرورى لذلك إرجاء البت فى مسألة الملكية إلى حين انعقاد المجلس التأسيسى (الجديد). وحين عرف الأمير ميخائيل ذلك تنازل عن العرش فى ٣ مارس ١٩١٧م.

وعلى هذا النحو أطاحت ثورة فبراير ١٩١٧م بالقيصرية والحكم المطلق، وأقامت جمهورية بورجوازية ديموقراطية يتمتع فيها المواطنون بحرية الكلام والنشر والاجتماع والدين والعمل السياسى، وخرجت إلى النشاط العلنى كافة الأحزاب التى كانت غير مشروعة.

على أنه من الناحية الأخرى ظهر فى روسيا نظام جديد لم يكن له ـ من الناحية الدستورية ـ شكل الجمهورية أو الملكية. فقد ظلت السلطة السياسية من مارس إلى أكتوبر ١٩١٧م موزعة بين الحكومة المؤقتة وسوفيتات العمال والجنود الثورية. ولاشك أن هذه

الازدواجية فى السلطة Dualpower التى حملت الطابع الانتقالى تعد حالة لم يسبق لها مثيل.

وفى الفترة التالية أخذ حزبا «الكاديت» و«الأوكتوبريين» اللذان استلما الحكم، يحاولان تثبيت سلطتهما، وإخضاع السوفيتات لهما، ووقف الثورة الاشتراكية، ومواصلة الحرب تحت حجة أن الحرب بعد إسقاط القيصرية قد أصبحت عادلة، وأن من الواجب مواصلتها حتى يجتمع مجلس تأسيسى يقرر جميع الأمور.

وكان المناشفة «والاشتراكيون الثوريون» يساعدون الحكومة البورجوازية فى ذلك بالقول بأن سلطة البورجوازية يجب أن تبقى طويلا فى البلاد بعد إسقاط القيصرية، لأن الظروف اللازمة للثورة الاشتراكية لم تتوافر فى روسيا، ولأن العمال ليسوا على استعداد لتسلم الحكم وتصريف أمور البلاد.

وفى مؤتمر السوفيتات الذى عقد فى أبريل ١٩١٧م من ممثلى المناشفة والاشتراكيين الثوريين، قرر المؤتمر المطالبة بأن تتخلى الحكومة الروسية عن الروح الاستعمارية، والعمل من أجل حق تقرر المصير، وعقد صلح عادل لا يرمى لضم أراض جديدة، كما قرر تأييد الحكومة المؤقتة إذا سارت وفق قرارات المؤتمر.

فى ذلك الحين كانت الثورة من الناحية الفعلية قد أوجدت وضعا جديدا فى البلاد، فقد زال الحكم المطلق، وأعلنت الحريات السياسية: حرية الكلام والصحافة والاجتماعات وغيرها. وفى هذا

المناخ الليبرالى أخذت القوى الجماهيرية تنظم نفسها فى جميع أنحاء البلاد، فقد تألفت السوفيتات من ممثلى العمال فى المناطق الصناعية، كما تألفت السوفيتات من ممثلى الفلاحين فى المناطق الزراعية، كما تأسست سوفيتات الجنود فى جميع القطاعات العسكرية.

وفى الوقت نفسه، ومنذ الأيام الأولى لثورة فبراير، خرج الحزب البلشفى من السرية، وأخذ يجمع قواه، وعاد من السجون والنفى عدد كبير من زعمائه البارزين، كما عادت جريدة «البراقدا» إلى الصدور، وصدر العدد الأول فى ٥ مارس ١٩١٧م. وقد قام البلاشفة بنشاط كبير بين الجماهير.

على أن بعض اللجان البلشفية وعددا من الأعضاء البارزين فى الحزب وقفوا موقفا خاطئاً، فلم يواصلوا النضال من أجل انتقال السلطة كلها إلى السوفيتات، بل اقتصروا على الدعوة لاقامة رقابة الجماهير على نشاط «الحكومة المؤقتة» عن طريق تنظيم المظاهرات والاجتماعات واصدار البيانات، وكان ذلك خطأ تكتيكيا، لأنه كان يحدث عند الجماهير إحساسا كاذبا بأن الحكومة المؤقتة البورجوازية تستطيع التخلى عن السياسة الإمبريالية وإنهاء الحرب وإعطاء الشعب السلام والخبز والارض.

وقد أيد ستالين، الذى كان منفيا فى سيبريا ثم عاد، سياسة الضغط على الحكومة المؤقتة للدخول فورا فى مفاوضات الصلح.

وهكذا كانت الثورة تذهب بخطوات ثابتة إلى جيب البورجوازيين، لولا وصول لينين إلى بتروغراد يوم ٣ أبريل ١٩١٧م، ليغير الموقف كله.

(ثالثاً) ثــورة أكتــوبر ١٩١٧م

كان لينين فى منفاه بسويسرا عندما وقعت الأحداث الثورية فى روسيا. وما أن عرف بانتصار ثورة فبراير حتى أخذ يحاول العودة إلى روسيا، وفى الوقت نفسه طالب المناشفة بضرورة موافقة سوفيت مندوبى العمال. وعندما طلب لينين معرفة رأى مكتب اللجنة المركزية للحزب البلشفى، أعطى المكتب التعليمات التالية: «على أوليانوف العودة إلى البلاد فوراً». واقترح الزعيم المنشفيكى مارتوف على لينين العودة عن طريق ألمانيا!

وبدأت المفاوضات عن طريق الاشتراكيين السويسريين مع موظفى السفارة الألمانية فى بيرن Bern. ووافقت السلطات الألمانية على السماح بسفر ٣٢ لاجئاً روسيا شيوعيا فى قطار مغلق عبر أراضيها، فى مقابل الوعد بالسعى لتسليم عدد من الأسرى الألمان والنمساويين الموجودين فى روسيا.

ولما كان لينين يعرف أن هذه الرحلة عبر ألمانيا يمكن أن تخلق متاعب له وللشيوعيين العائدين فى روسيا، وتعرضهم للتشهير، نظراً لأن ألمانيا كانت فى حالة حرب مع روسيا، فقد طلب من اشتراكيى بعض البلدان أن ينشروا بيانا يكون بمثابة رد سياسى مسبق على جميع هجمات التشهير التى يمكن أن يتعرض لها بسبب اختيار هذا الطريق للوصول إلى روسيا.

وقد ورد فى البيان الذى نشره هؤلاء قولهم: إنهم «بعد اطلاعهم على العراقيل التى أقامتها حكومات الحلفاء فى وجه سفر الأمميين الروس، وبعد اطلاعهم على الشروط التى وضعتها الحكومة الألمانية قبل سماحها بسفرهم، وبعد اقتناعهم التام بأن الحكومة الألمانية لم تسمح بسفر الأمميين الروس إلا لرغبتها فى تقوية الميول المعادية للحرب فى روسيا، يعلنون أنه من حق رفاقنا الروس، بل من واجبهم، أن يستفيدوا من هذه الفرصة السانحة للعودة إلى بلاهم. ونحن نتمنى لهم أطيب التمنيات بالنجاح فى صراعهم ضد السياسة الإمبريالية التى تنتهجها البورجوازية الروسية، فليس صراعهم هذا سوى جزء من الصراع المشترك للطبقة العمالية فى سبيل الثورة الاجتماعية». وقد وقع على هذا البيان ممثلون عن ألمانيا وفرنسا وبولندا وسويسرا والسويد والنرويج.

وقد وصل لينين إلى روسيا يوم ٣ أبريل، وسط استقبال حافل عنى البلاشفة بإعداده إعدادا تاما، نظرا لمعرفتهم بأن لينين عاد إلى روسيا عن طريق ألمانيا وبإذن خاص من حكومة العدو، وأن البورجوازية لن تتردد فى استغلال اهتمام ألمانيا بالزعيم البلشفى لمحاولة الطعن عليه.

وفى اليوم التالى حضر لينين اجتماع البلاشفة الأعضاء فى مؤتمر مندوبى سوفيتات العمال والجنود فى كل أنحاء روسيا، فى غرفة بالطابق الأعلى من قصر توريدا Taurida الذى كانت تعقد فيه جلسات الدوما، فى حين كان المناشفة يعقدون اجتماعهم فى نفس

القصر فى الطابق الأسفل. ثم طلب المناشفة ضم الاجتماعين لمعرفة رأى لينين. وقد طرح لينين آراءه وسط غضب المناشفة، ودهشة بعض بلاشفة بيتروجراد أنفسهم!

وقد دخلت هذه الأفكار التاريخ تحت اسم «أفكار أبريل»April Theses وهى أفكار لقيت هجوم بليخانوف الذى وصفها فى صحيفة «الأونيون» بأنها «منافية للعقل» absurd، بل لقد هاجمتها «البرافدا» Pravda صحيفة الحزب البلشفى المركزية الرسمية، وعلق عليها «كامنيف» Kamenev باسم هيئة تحرير الصحيفة قائلاً: «أما فيما يتعلق بالمخطط العام للرفيق لنين، فهو يبدو لنا غير مقبول لأنه يعتبر الثورة البورجوازية الديموقراطية انتهت، ويطالب بتحويل هذه الثورة فورا إلى ثورة اشتراكية»!.

فما هى هذه الأفكار؟. لقد قامت هذه الأفكار على أساس واحد، هو أن الثورة البورجوازية الديموقراطية قد انتهت، وأن من الضرورى الاستعداد لنقل هذه الثورة من السلطة البورجوازية إلى سلطة العمال والفلاحين. أما بناء هذه الأفكار فيتلخص فى الآتى، حسب النص الذى نشره لنين باسمه الشخصى فى البرافدا صحيفة الحزب البلشفى يوم ٧ أبريل:

١ ـ اعتبار الحرب الدائرة التى تخوضها روسيا فى ظل حكومة البرنس لفوف حرباً إمبريالية، نظرا للطبيعة الرأسمالية لهذه الحكومة.

٢ ـ لاتستطيع البروليتاريا الواعية الموافقة على شن حرب ثورية تبرر استمرار الحرب إلى نهايتها الثورية، الا بشرط انتقال السلطة إلى البروليتاريا والعناصر الفلاحية القريبة من البروليتاريا. ورفض كل عمليات الإلحاق والضم فعلا لا قولا، وقطع الصلات مع المصالح الرأسمالية بشكل نهائى. وتوعية الجماهير المخدوعة فى البورجوازية بالروابط المتينة بين رأس المال والحرب الإمبريالية، ونشر هذه التوعية داخل الجيش المقاتل على أوسع نطاق.

٣ ـ ضرورة تنظيم البروليتاريا، للانتقال من المهمة الأولى للثورة، التى أعطت السلطة للبورجوازية، إلى المرحلة الثانية التى تضع السلطة فى أيدى البروليتاريا والفلاحين الفقراء. «على أن يتم ذلك فى جو من الشرعية، وبعيدا عن الضغط المسلط على الجماهير».

٤ ـ عدم تقديم أى دعم للحكومة المؤقتة، وكشف كذب كل وعودها، بدلا من مطالبتها بأن تكون حكومة غير إمبريالية (أى دون المطالبة باستقالتها).

٥ ـ الاعتراف بأن الحزب البلشفى هو حزب أقلية، وأنه يمثل الأقلية فى معظم سوفيتات مندوبى العمال، وأن الأكثرية هى بين العناصر البورجوازية الصغيرة التى يمتد تأثيرها على البروليتاريا «الاشتراكيين الشعبيين» و«الاشتراكيين الثوريين»

وغيرهم، وضرورة توعية الجماهير بأن سوفيتات مندوبى العمال هى الشكل الوحيد الممكن للحكومة الثورية، ومن الضرورى انتقال السلطة كلها إلى يد سوفيتات مندوبى العمال.

٦ ـ رفض الجمهورية البرلمانية (البورجوازية)، لأنها تشكل خطوة إلى الوراء بعد سوفيتات مندوبى العمال. وتأييد قيام جمهورية سوفيتات مندوبى العمال بما فى ذلك العمال الزراعيين والفلاحين. على أن تشمل البلاد كلها من شمالها إلى جنوبها.

٧ ـ إلغاء الشرطة والجيش وطبقات الموظفين، وأن يستبدل بالجيش الدائم المحترف الشعب المسلح، وإمكان انتخاب وعزل الموظفين فى جميع الأوقات، على ألا يتجاوز متوسط رواتبهم أجر العامل الجيد.

٨ ـ مصادرة جميع أراضى كبار الملاك الزراعيين، وتأميم الأرض كلها فى جميع أرجاء البلاد، ووضعها تحت تصرف السوفيتات المحلية لمندوبى العمال الزراعيين، وتشكيل سوفيتات مندوبى الفلاحين الفقراء، وتحويل جميع المزارع الكبيرة (من ١٠٠ هكتار إلى ٣٠٠ هكتار حسب الظروف المحلية ورأى السلطات المحلية) إلى مزارع نموذجية تخضع لمراقبة سوفيت مندوبى العمال الزراعيين، وتعمل للمصلحة الجماعية.

٩ ـ إدماج جميع مصارف البلاد فى مصرف وطنى واحد كبير، يخضع لمراقبة سوفيتات مندوبى العمال.

١٠ ـ ليست مهمتنا العمل على إدخال الاشتراكية حاليا، بل على الانتقال فورا إلى مراقبة الانتاج الاجتماعى، وتوزيع الإنتاج من قبل سوفيتات مندوبى العمال.

١١ ـ مهام الحزب البلشفى هى الدعوة فورا إلى عقد مؤتمر للحزب، وتعديل برنامجه، والمطالبة «بدولة ـ كوميونة Com-mune» (على صورة كوميونة باريس)، وتعديل اسم الحزب إلى الحزب الشيوعى، بدلا من الحزب الاشتراكى الديمقراطى Social Democratic».

١٢ ـ البدء بإنشاء «دولية شيوعية ثالثة» تقف ضد الوسطية. Third Communist International. نظرا لأن زعماء «الدولية الثانية» من الاشتراكيين الديموقراطيين خانوا الطبقة العاملة، وانزلقوا إلى منزلق الانتهازية والشوفينية Cahuvinism (القومية المتعصبة).

وما أن نشرت هذه الأفكار حتى غدت محور معركة حامية الوطيس. ففى ذلك الحين كان المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب البلشفى يرى أن من الضرورى السير إلى نهاية الثورة البورجوازية الديمقراطية، المتمثلة فى انتقال السلطة من أيدى القيصر وكبار الملاك الزراعيين إلى أيدى البورجوازيين. كما كان يرى بأن هذه المرحلة لم تنته بعد.

ومن هنا جاءت مواقف المكتب إزاء الحكومة المؤقتة، والأساليب اللازمة لإنهاء الحرب. ومن هنا أيضا كانت لجنة تحرير «برافدا»، التى تضم ستالين ومولوتوف بالإضافة إلى كامينيف، تقوم بحذف الأجزاء من رسائل لنين التى ارسل بها من سويسرا إلى الجريدة، والتى يهاجم فيها كل أشكال الدعم للحكومة المؤقتة. وهكذا وقف كامنيف فى مواقع قريبة من المناشفة المؤيدين لدعم الحكومة المؤقتة بشكل مشروط. وكان يعتقد أن الزمن اللازم للوصول إلى الاشتراكية بقدر بعشرات السنين.

أما ستالين، فلم يكن يدرك دور السوفيتات وعملها الضرورى للاستيلاء على السلطة، كما أنه كان من أنصار تقديم الدعم المشروط للحكومة المؤقتة التى يرى فيها «الدعامة الثورية لمكتسبات الشعب»، ويرى من الممكن إعادة توحيد الحزبين البلشفى والمنشفى.

وهكذا كان الخلاف على خطين أساسيين:

الأول ، خط الذين يرمون إلى دفع الثورة إلى الأمام مع دعم الحكومة المؤقتة، رغم أن هذه الحكومة لاتخفى نواياها لمواصلة الحرب.

والثانى، وهو خط لنين، يرى أن على الثورة، إذا أرادت السير قدما إلى الأمام، أن ترفض تقديم أى دعم للحكومة المؤقتة، وأن تستعد للانتقال من المرحلة الأولى (السلطة البورجوازية

الديموقراطية)، إلى المرحلة الثانية (سلطة البروليتاريا والفلاحين الفقراء).

وفى الحقيقة أن الماركسيين كانوا قد تبنوا حتى ذلك الوقت فكرة أن العمال والفلاحين عاجزون عن تحقيق سيطرتهم قبل أن تنهى البورجوازية ثورتها. ولكن الوضع التاريخى الذى كانت تعيشه روسيا فى ربيع عام ١٩١٧م، كان وضعا مركبا خاصا، تتداخل فيه سيطرة البروليتاريا والبورجوازية بشكل لم تعرفه البشرية من قبل (الحكومة المؤقتة والسوفيتات) وقد استطاع لنين أن يرى بثاقب نظره أهمية هذا الوضع الجديد، والآفاق التى يمكن أن يفتحها.

لذلك طرح فكرته التى ترى أن شن الصراع الطبقى بحيوية وعنف، سيؤدى حتما إلى انتصار الثورة. فكان عمله هذا على الصعيد النظرى يعتبر خطوتين إلى الأمام:

الأولى : أنه من الممكن تجاوز مرحلة تاريخية كاملة، هى مرحلة سيطرة البورجوازية.

والثانية : نقص الفكرة التى تمسك بها الماركسيون فى ذلك الوقت، والقائلة بعدم قدرة الاشتراكية على الانتصار فى بلد واحد، إذ رأى عدم انتظار ثورة البلاد الغربية الصناعية التى اعتقد ماركس أن الثورة ستنتصر فيها قبل أى مكان آخر.

- وقد جرت الحوادث بعد ذلك على النحو الآتى :

١ - أحداث ٢٠ - ٢١ أبريل ١٩١٧م:

ففى ١٤ أبريل استطاع لنين أن يضم اليه ستالين وزعماء آخرين ممن عارضوا أفكاره، ولم يبق فى صف المعارضة غير كامنيف.

وفى ١٨ أبريل وجه وزير الخارجية ميليوكوف Milyukov ورئيس الكاديت مذكرة إلى الحلفاء، أكد فيها أن الحكومة «مستعدة للتمسك بالتعهدات التى قدمتها إلى حلفائنا، وأنها قررت متابعة الحرب حتى النصر النهائى».

ومن هذا بدأت أزمة حادة، إذ كان معنى ذلك أن الثورة لم تبدّل شيئاً، وأن أهداف روسيا فى الحرب لاتزال كما كانت فى عهد القيصرية. ووجد اليسار أن هذا العمل تصفية كاملة للمحتوى الثورى للسياسة الخارجية، وضربة مسددة للسلم.

لذا طالب باستقالة ميليوكوف خلال ٢٤ ساعة، واندلعت مظاهرات خطيرة للجنود والعمال يوم ٢٠ أبريل ضّد الحكومة، وأخذت تحاصر قصر مارييِنسكى Mariinsky Palace، الذى تجتمع فيه «الحكومة المؤقتة»، وهى ترفع شعارات «كل السلطة للسوفيتات»، وحدث تبادل إطلاق النار. لكن لجنة سوفيت بيتروجراد سيطرت على الموقف، وظهر عجز الحكومة أمام العالم.

وكانت هذه الأزمة أكبر أزمة شهدتها البلاد منذ فبراير ١٩١٧م بين الحكومة المؤقتة والرأى العام السائد فى الثكنات والضواحى العمالية.

وانتهت الأزمة باستقالة كل من ميليوكوف وزير الخارجية، وجوتشكوف وزير الحربية، وشكل البرنس لفوف أول حكومة ائتلافية فى ٥ مايو، التى شارك فيها المناشفة و«الاشتراكيون الثوريون». وتولى كيرينسكى Kerensky وزارة الحربية.

وفى أثناء الأزمة حدث أن طرحت لجنة بيتروجراد البلشفية شعار «سقوط الحكومة المؤقتة»، ولكن وقف لينين فى وجه هذا الشعار، واعتبره خطأ فادحاً، نظراً لأن معظم السوفيتات فى جميع أرجاء البلاد كانت لاتزال خاضعة للمناشفة و«الاشتراكيين الثوريين».

وفضلا عن ذلك فقد رأى أنه لايمكن حل الأزمة بالعنف أو بمحاولة بلانكية Blanqui (منفصلة عن الشعب والقواعد الشعبية) للاستيلاء على السلطة واعتقال الحكومة المؤقتة، وإنما بطريق «التطور الثورى»، وهو الطريق المبنى على النقد، والدعاية. والاكتساب السياسى للسلطة، وإعادة انتخاب المندوبين بغية الوصول إلى الأغلبية، وقد بنى ذلك على أن الرأسماليين لا يتصرفون بعنف، وأن القوة المسلحة فى هذه المرحلة الانتقالية بيد الجنود.

كما رأى أنه على السوفيتات أن تلجأ إلى تأميم الملكية الإقطاعية، وإن كان ذلك لا يعنى الاشتراكية، فقد ذكر أنه «ليس بوسعنا الادعاء بقدرتنا على بناء الاشتراكية، لان مثل هذا الادعاء يشكل فى الوقت الحاضر حماقة مؤكدة، لأن غالبية الشعب الروسى تتألف من الفلاحين وصغار المستغلين الذين لا يطيقون سماع الحديث عن الاشتراكية. ولكنه طالب بتأميم الأرض على أساس أن هذا التأميم سيسدد ضربة قوية إلى الملكية الإقطاعية للأرض، وسيحرم الإقطاعيين النبلاء من قواعدهم المادية.

وقد استطاع فى الاجتماع السابع للحزب البلشفى، المنعقد فى ٢٤ أبريل ١٩١٧م، الحصول على تأييد المؤتمر لآرائه، وقرر المجتمعون إعادة النظر فى برنامج الحزب، وتكليف اللجنة المركزية الجديدة المنتخبة برئاسة لنين بدراسة إنشاء «دولية ثالثة» Third International تضم جميع الاشتراكيين فى العالم المؤيدين لإسقاط الحرب الإمبريالية.

وعلى هذا النحو تحول ما اعتبره البلاشفة القدماء قبل شهر واحد سخفا وحماقة، إنجيلا رسميا لحزب تزداد سيطرته على البروليتاريا.

وفى الأيام التالية أخذ لنين يكتسب المصانع والجماهير من المناشفة و«الاشتراكيين الثوريين». ولكن فى الريف، حيث كان معظم الفلاحين يسيرون وراء «الاشتراكيين الثوريين»، كان الأمر باعثا على قلق لنين.

لذلك استغل فرصة انعقاد مؤتمر مندوبى الفلاحين فى بيتروجراد بين ٤، ٢٨ مايو ١٩١٧م، وطالب فى المؤتمر بقيام السوفيتات بتنظيم عملية استيلاء اللجان الفلاحية على ممتلكات النبلاء الإقطاعيين قبيل اجتماع المجلس التأسيسى، وأن تقوم بمصادرة الأراضى، وتجميع العمال الزراعيين والفلاحيين الفقراء فى تنظيمات مستقلة، والاستفادة من الاقطاعيات الكبيرة فى خلق مزارع نموذجية تحت إشراف سوفيتات العمال الزراعيين. ومع أن لنين تجرأ على طرح فكرة «العمل الجماعى فى الأرض بمساعدة الآلات»، إلا أنه لقى تأييدا قوياً. وقد تلى ذلك احتلال المزارع فى عدة مناطق!

ومع ذلك، فعندما انعقد «المؤتمر الأول لسوفيتات جميع أنحاء روسيا» The First All - Russia Congress of Soviets of Workers' and Soldiers' Deputies فى ٣ يونيه، كانت الغالبية العظمى للمنشفيك والاشتراكيين الثوريين. وقد طلب لنين فى هذا المؤتمر انتقال السلطة إلى البروليتاريا الثورية المدعومة بالفلاحين الفقراء، باعتبار ذلك أفضل الأشكال للانتقال إلى النضال الثورى من أجل السلم، وأكثرها ضمانة وأقلها ضررا فى تاريخ الإنسانية. ولكن المؤتمر قرر تأييد الحكومة الائتلافية المؤلفة فى ٥ مايو، ورفض فكرة تسليم السلطة للسوفيتات.

ومنذ هذه اللحظة اختفى الأمل فى الانتقال إلى الاشتراكية بالطريق السلمى، بسبب موقف المناشفة و«الاشتراكيين الثوريين»

الذين كانوا يملكون الأغلبية الساحقة فى المؤتمر الأول للسوفيتات وفى سوفيت بيتروجراد، على الرغم من أنه كان فى وسعهم الاستيلاء على السلطة بإشارة واحدة دون إراقة نقطة دم واحدة!

٢ ـ أحداث ٣ ـ ٥ يوليو ١٩١٧م:

ولم يلبث هذا الموقف أن شجع الحكومة الأئتلافية على محاولة التخلص من نتائج ثورة فبراير. فخططت لهجوم عام فى الجبهة الألمانية يوم ١٨ يونيه ١٩١٧م، وفى تفكيرها أن نجاح الهجوم سوف يؤدى إلى تقوية سلطة الحكومة، والتخلص من ازدواجية السلطة، وأما فى حالة فشله فإنه سيسمح بإلقاء التبعية على البلاشفة بحجة أنهم فتتوا وحدة الجيش، وأفقدوه نظامه، ثم الانتقال من ذلك إلى عمليات قمع واسعة ضدهم.

ولكن الهجوم فشل، وفقد الجيش الروسى فيه أكثر من ٦٠ ألفا من جنوده، وعندما عرف الجنود بضحايا الحرب الجديدة، نزلوا فى ٣ يوليو ١٩١٧م إلى شوارع بيتروجراد، مطالبين بتسليم السلطة للسوفيتات، واتجهوا إلى مقر سوفيت بتروجراد لإجباره على استلام السلطة، وقرر العمال من جانبهم الاشتراك فى مظاهرة الجنود.

وقد حاول البلاشفة احتواء الحركة، إذ لم يكونوا يرغبون فى الاشتراك فى عمل عسكرى لم يستعدوا له أيديولوجيا، حيث كانت أفكارهم حتى ذلك الحين تقوم على الانتقال السلمى من الثورة

الديمقراطية إلى الثورة الاشتراكية. كما لم يستعدوا له عمليا إذ أنهم لم يقوموا بأى إعداد مادى لهذا الغرض، وكانوا يعرفون أن الانتفاضة العسكرية لا تتم بين عشية وضحاها.

ولكنهم لم يلبثوا أن عدلوا موقفهم، وقرروا استلام قيادة الحركة لتوجيهها وإعطائها طابعا آخر، فأصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى منشورا إلى عمال وجنود بيتروجراد يقول «لقد وقفت البورجوازية المعادية للثورة بوضوح ضد ثورتنا، لذا كان على سوفيت مندوبى العمال والفلاحين أن يتسلم السلطة كلها».

وفى اليوم التالى بلغت المظاهرات ذروتها، واعتصمت الحكومة بقصر مارييينسكى Mariinsky. ولكنها بموافقة سوفيتات الاشتراكيين الثوريين والمنشفيك انقضت على المظاهرات بالقوة المسلحة بعد ان استدعت بعض قطاعات الجيش من الجبهة، بما فيها وحدات القوزاق Cossack.

ومع أن اللجنة المركزية البلشفية كانت قد اجتمعت ليلة ٤ يولية وقررت «ضرورة إنهاء العمل»، كما قررت أن من الواجب إيقاف كل المظاهرات، إلا أن الحكومة أعلنت أن البلاشفة حزب مضاد للثورة.

وتلا ذلك تعرض حزب البلاشفة والمنظمات العمالية للمطاردات، فقد زج بالكثير من البلاشفة فى السجون، وفى يوم ٥ يوليو حطمت مجموعات من طلبة المدرسة الحربية مقر صحيفة البرافدا، ثم هاجموا مقر اللجنة المركزية للحزب البلشفى.

وبدأت الصحف تهاجم البلاشفة ولنين، وتتهمهم بالعمالة لإمبراطور ألمانيا، وقام الطلاب والضباط بإعدام عدد من مناضلى الحزب فى مكان اعتقالهم، وبدأت عملية قمع وحشى باركتها اللجنة التنفيذية المركزية للسوفيتات (وهى جهاز انبثق فى نهاية أعمال المؤتمر الأول للسوفيتات، وحل محل سوفيت بتروجراد)، واللجنة التنفيذية لسوفيت الفلاحين.

وفى ٧ يوليو ١٩١٧م استندت الحكومة الائتلافية المؤقتة إلى دعم المناشفة و«الاشتراكيين» الثوريين داخل اللجنة التنفيذية للسوفيت، وأصدرت قرارا باعتقال لنين ومحاكمته بتهمة الخيانة العظمى، والاشتراك فى تنظيم انتفاضة مسلحة. واضطر لينين إلى الاختفاء والعمل فى سرية شديدة أكثر من ثلاثة أشهر ونصف.

وفى هذا الوقت بالذات انضم تروتسكى Trotsky (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠م) الذى وصل إلى بيتروجراد من أمريكا فى ٥ مايو إلى لينين، وأرسل إلى الحكومة المؤقتة التى تألفت أثناء الأزمة برئاسة كيرنسكى Kerensky بعد استقالة لفوف، يطلب إليه عدم استثنائه من قرار الاعتقال الصادر ضد كل من لينين وكامنيف وزينوفييف Zinoviev. فألقت الحكومة المؤقتة القبض عليه، ووجهت إليه تهمة التجسس لحساب ألمانيا.

واندفع كيرنسكى فى طريق القمع، وأخذ الوضع الخاص الذى انبثق عن ثورة فبراير من ازدواج السلطة فى الاختفاء، إذ أخذ دور

السوفيت فى التقلص، بعد أن غطى بسلطته كافة التدابير المضادة للثورة التى اتخذها كيرنسكى. وأخذت السوفيتات، التى يملك المناشفة والاشتراكيون الثوريون الغالبية فيها، تتخلى عن سلطتها.

كانت أحداث يولية نقطة فاصلة فى تاريخ الثورة، أو هى خط فاصل بين ثورة فبراير وثورة أكتوبر. فحتى ذلك الحين كان شعار البلاشفة الأساسى هو: كل السلطة للسوفيتات، شريطة أن يتم ذلك بالطريق السلمى. ثم جاءت الأحداث لتثبت أن هذا الشعار لم يعد ملائماً، لأن الحفاظ عليه معناه دعم المناشفة و«الاشتراكيين الثوريين» فى اللجنة التنفيذية المركزية، الذين منحوا تأيدهم لكيرنسكى وللقمع. ولذلك طلب لينين من مكان اختفائه فى «رازليف Razliv على خليج فنلندا، إلغاء هذا الشعار، وتوعية الجماهير العمالية والفلاحية الواسعة بأنه لم يعد من المحكمة قلب دكتاتورية البورجوازية الا بانتفاضة مسلحة.

وفى المؤتمر السادس لحزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى، الذى عقد فى بتروجراد من ٢٦ يولية إلى ٣ أغسطس ١٩١٧ بصفة نصف سرية، دار النقاش حول هذه المسألة، وكان عدد من الحاضرين من أمثال «نوجين» Nogin يؤكدون أن روسيا لم تنضج بعد للقيام بثورة اشتراكية، وأن الفلاحين قوة رجعية لايمكن الاعتماد عليها لإنهاء الحرب والسير فى طريق الاشتراكية.

ولكن لينين لم يكن يفكر إطلاقا فى إمكان قيام الاشتراكية بإشارة من عصا سحرية، وإنما كان يرمى إلى اقامة سلطة شعبية

تعد لهذا الانتقال فى المستقبل. كما أنه رأى أنه لايمكن اعتبار الفلاحين طبقة واحدة، إذ لايمكن أن تتطابق وجهة نظر الكولاك (١٥٪) مع وجهة نظر الفلاحين الفقراء (٦٥٪).

وفى هذا المؤتمر انضم إلى الحزب البلشفى بصورة رسمية مجموعة «الأنتر ـ ديستريكت»، وعلى رأسها تروتسكى. وكانت هذه الجماعة تضم المناشفة اليساريين وعددا من قدماء البلاشفة الذين رفضوا فى بداية الحرب شعار لينين تحويل الحرب الإمبريالية إلى حرب أهلية. وقد لعب الجميع فى الأيام التالية دورا من الطراز الأول فى تنظيم ثورة أكتوبر. وقد أقر المؤتمر كل مقترحات لينين الذى كان يدير المؤتمر من مكانه السرى، وكانت الموافقة بإجماع الآراء مما لم يحدث فى تاريخ الحرب البلشفى.

كذلك جرى فى هذا المؤتمر انتخاب اللجنة المركزية للحزب الشيوعى من ٢١ عضوا، على رأسهم: لينين، وزينوفييف، وكامينيف، وتروتسكى، وستالين، وبوخارين، وبوبنوف، وأوريتسكى.

٣ ـ محاولة كورنيلوف الانقلابية ٢٧ أغسطس ١٩١٧م:

على كل حال ففى هذا المناخ المضاد للثورة تحرك اليمين ممثلا فى الجنرال كورنيلوف Kornilov، الذى حاول القيام بانقلاب والاستيلاء على السلطة يوم ٢٧ أغسطس. وكان الجنرال كورنيلوف

قد عين قائدا عاما للقوات المسلحة بعد شهر من هجوم ١٨ يونية الذى منى بالهزيمة.

وقد قام بالزحف على العاصمة الجنرال كريموف Krymov على رأس قوات كبيرة، من بينها متطوعو القوقاز. وكانت تعليماته تقضى بتجريد الوحدات من سلاحها، وحل مجالس السوفيتات، وتوقيف أعضائها، وإعلان الأحكام العرفية حينما يتم الدخول إلى المدينة.

وقد سارع كيرنسكى إلى طلب دعم اللجنة التنفيذية للسوفيت، وأخذ يحاول تنظيم الدفاع عن بيتروجراد، بدعوة كل الذين يريدون «الدفاع عن الثورة المهددة بانقلاب كورنيلوف» ـ ومعنى ذلك دعوة البلاشفة.

وقد أدرك البلاشفة أن التخلى عن كيرنسكى، الذى كان قد أقسم على تصفيتهم، سوف يوقعهم فى قبضة كورنيلوف الذى يخطط لإقامة دكتاتورية عسكرية، ولذلك قبلوا الانضمام إلى «لجنة الكفاح الشعبى ضد الثورة المضادة»، التى أنشأتها مؤخرا اللجنة التنفيذية المركزية لسوفيتات روسيا. وكان انضمامهم معلقا بشرطين: (١) ضرورة تسليح الشعب (٢) إخلاء سبيل السجناء السياسيين منذ أول يوليو. وبعد تحقيق هذين الشرطين اندفعوا فورا إلى المعركة.

وقد أظهر البلاشفة أنهم يشكلون الرافعة الوحيدة القادرة على تحريك جنود بيتروجراد وعمال المصانع الكبرى، وتسللوا بسرعة

إلى اللجان الثورية فى الجبهة، وفى المدن، وفى كل مراكز السكك الحديدية، وتزايد عدد مقاتلى الحرس الأحمر The Red Guards المشكل من عمال المصانع المسلحين.

وفى بضعة أيام تم تسليح مايقرب من ٤٠ ألف عامل، وكان المتطوعون أكثر من الأسلحة. وقام عمال السكك الحديدية بفك خطوط السكك الحديدية فى الأماكن التى اتجهت إليها وحدات كورنيلوف إلى بيتروجراد، وقطعت وحدات المشاة والخيالة والمدفعية، التى يشرف عليها الثوريون، الطرق المؤدية إلى العاصمة، فلم تستطع القوات المهاجمة الوصول إليها. وفى الوقت نفسه أخذت عناصر البلاشفة والسوفيت تختلط بجنود كورنيلوف فى المواقع التى توقفت فيها هذه القوات، لتوعيتهم.

وفى ٢٩ أغسطس توقفت القوات المتمردة توقفا عاما ومفاجئاً بعد أن أدرك الجنود خداع قادتهم لهم الذين صوروا لهم، أنهم ذاهبون للقضاء على عصيان بلشفى!

وهكذا سحقت مؤامرة كورنيلوف فى مهدها، وكانت النتيجة الرئيسية لهذا الفشل إضعاف معسكر الثورة المضادة إلى أكبر حد ممكن، وأصبحت السوفيتات من جديد، كما كانت فى فبراير، منظمات قتال تجمع كل القوى المرتبطة بالثورة، وعادت البروليتاريا التى كان قد نزع جزء من سلاحها منذ أيام يوليو، تشكل قوة نارية كبيرة، وتسلمت مختلف أنواع الأسلحة الموجودة فى المخازن.

٤ ـ الثورة الاشتراكية :

وقد أيقنت البروليتاريا بعد قمع الفتنة أن الحزب البلشفى وعلى رأسه لينين هو وحده الذى يدافع حقا عن مصالحهم الجذرية، فانقلبت الجماهير الشعبية بسرعة نحو البلاشفة، وسرعان ما أحرز هؤلاء الأغلبية فى سوفيتى بيتروجراد وموسكو عند إعادة انتخابات السوفيتات فى أغسطس - سبتمبر، ونمت قوة السوفيتات، وأصبحت لها قوة كبيرة.

وعندئذ، وبعد أن أصبحت السوفيتات بلشفية فى أكبر المراكز الصناعية، عاد الحزب فرفع شعار «كل السلطة للسوفيتات»، هذا الشعار الذى أصبح الآن يعنى الدعوة إلى الثورة المسلحة على الحكومة البورجوازية، وإقامة دكتاتورية البروليتاريا. وقد أيد أكثر من ٢٥٠ سوفيتا هذا الشعار. وفى الحقيقة أنه بعد أن أفلتت السوفيتات المنشفية الفرصة لاستلام الحكم بالطريق السلمى، لم يعد مفر من الاستيلاء على السلطة بطريق الانتفاضة المسلحة.

وفى الفترة من أواسط سبتمبر إلى ٢٤ أكتوبر كان لينين يعد خطة الاستيلاء على السلطة بكل أصول الفن الحربى، وكانت الخطة تقوم على البدء فورا بتنظيم مركز لقيادة كتائب الثوار، وتوزيع القوى، وحشد أهم القوى فى أخطر المواقع، وتطويق المبانى الحكومية، والاستيلاء على محطة التليفون والبرق، وإنشاء كتائب قتالية قوية قادرة على منع القوات المعادية للثورة من الوصول إلى

بيتروجراد، وتأمين الدفاع عن المدينة. وطالب بإرسال الشيوعيين إلى المصانع والثكنات، والى حيث تعمل الجماهير وتعيش، لإعدادها للثورة.

وفى رسالته التى وجهها إلى اللجنة المركزية ولجنتى موسكو وبتروجراد والى البلاشفة أعضاء سوفيتى بيتروجراد وموسكو، فى أول اكتوبر، أكد أن التمهل فى الانتفاضة لايجوز، بل «يجب الاقدام على الانتفاضة فى الحال»، وأنه أشبه بالموت»!

وفى ١٠ أكتوبر بحثت مسألة الانتفاضة المسلحة فى جلسة اللجنة المركزية للحزب، وأثبت لينين فى الاجتماع أن اللحظة مواتية لكى تستلم البروليتاريا وفقراء الفلاحين السلطة، فاتخذت لجنة الحزب المركزية قرارا تاريخيا بتنظيم الانتفاضة المسلحة. ولم يشذ عن هذا الجمع سوى كامنيف وزينوفييف Zinoviev، أما تروتسكى فلم يصوت ضد هذا القرار، ولكنه رأى إرجاء الانتفاضة إلى حين انعقاد المؤتمر الثانى للسوفيتات.

وفى هذه الجلسة انتخب مكتب سياسى برئاسة لينين لقيادة الانتفاضة سياسيا. وفى ١٦ أكتوبر انتخبت اللجنة المركزية، مع ممثلى المنظمات العمالية، مجلسا عسكريا ثوريا لقيادة الانتفاضة، مكونا من بوبنوف Bubnov، وسفرد لوف Sverdlov وستالين وأوريتسكى Uritsky ودزيرچينسكى Dzerzhinsky.

على أن كامنيف وزينوفييف، اللذين اعترضا على القرار، مالبثا أن ارتكبا خيانة كبيرة، إذ نشرا فى جريدة «نوفايا چيزنNovaya

Zhizen» شبه المنشفيكية بيانا يحتجان فيه على قرار اللجنة المركزية فى الانتفاضة المسلحة، وأفشيا بذلك للأعداء قرار الحزب السرى، مما جعل الحكومة المؤقتة تشرع فى اتخاذ تدابير عاجلة للحيلولة دون الانتفاضة المسلحة.

ولكن بينما كانت الحكومة تحاول إغلاق جريدة الحزب المركزية «رابوتشى بوت» Rabochy Put أى (طريق العمال) يوم ٢٤ أكتوبر، بدأت الانتفاضة المسلحة. فقد استلم الحرس الأحمر والجنود بأمر من المجلس العسكرى الثورى، مهمة الدفاع عن مقر هيئة تحرير الجريدة ومقر قيادة الانتفاضة فى قصر سمولنى Smolny، حيث استلم لينين القيادة.

وبدأت كتائب الحرس الأحمر تحتل النقاط المرسومة، فى حين أخذ بحارة أسطول البلطيق والقطاعات الثورية فى حراسة مداخل المدينة، وكانت المصانع يحرسها رجال الحرس الأحمر. ولم يأت صباح ٢٥ أكتوبر حتى كانت محطة التليفون ومبنى البرق ومحطات السكك الحديدية وأهم المواقع فى العاصمة فى قبضة العمال والجنود والبحارة الثوريين.

وفى الساعة العاشرة صباحا أصدرت اللجنة العسكرية الثورية لسوفيت بيتروجراد، بلاغا لنواب العمال والجنود، بأن الحكومة المؤقتة قد أسقطت، وأن السلطة انتلقت إلى السوفيتات.

وفى الساعة الحادية عشرة افتتحت الجلسة التاريخية لسوفيت بيتروجراد، حيث أعلن لينين أنه «منذ الآن بدأ عهد جديد فى تاريخ

روسيا، وعلى هذه الثورة الروسية الثالثة أن تؤدى فى آخر المطاف إلى انتصار الاشتراكية».

وفى يوم ٢٥ ـ ٢٦ أكتوبر أصدر لينين تعليماته بالاستيلاء فورا على القصر الشتوى Winter Palace الذى كان مقراً للحكومة المؤقتة، وكانت الطلقة التاريخية من مدفع الطراد «أورورا Aurora» إشارة بدء الهجوم على القصر، واستولت القطاعات الثورية على القصر الشتوى عنوة، وسقط آخر معقل للحكومة البورجوازية.

وعلى هذا النحو قضى على النظام البورجوازى فى روسيا، وأقيمت لأول مرة فى تاريخ البشرية، دكتاتورية البروليتاريا، وأنشئت دولة العمال والفلاحين.

(رابعاً) : روسيا بعد ثورة أكتوبـــر ١٩١٧م

لم تكن ثورة أكتوبر مجرد استبدال سلطة سياسية بأخرى، وإنما كانت تعنى انقلابا عميقا فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

ففى اليوم التالى ٢٥ أكتوبر (٧ نوفمبر)، عقد المؤتمر الثانى للسوفيتات، حيث أعلن لينين إلغاء الملكية الإقطاعية للأرض، ومنح الأرض للشعب. فانتقل إلى أيدى الفلاحين مايزيد على ١٥٠ مليون هكتار. كما أعلن إلغاء الملكية الخاصة للأرض، وإحلال ملكية الشعب لها وملكية الدولة، الأمر الذى يسر فيما بعد اعادة تنظيم الزراعة على أسس اشتراكية.

وفى هذا المؤتمر تم انتخاب اللجنة التنفيذية المركزية لسوفيتات العمال والجنود فى روسيا، وتشكيل حكومة مؤقتة جديدة أطلق عليها اسم «مجلس مفوضى الشعب» Soviet of the People's Commissars وانتخب لينين رئيسا لمجلس مفوضى الشعب، وتروتسكى وزيرا للخارجية. وأوكل الشعب أمور قيادة البلاد لحزب البلاشفة.

وفى الفترة التالية مباشرة أجريت تغيرات سياسية واقتصادية جذرية. فقد أقرت الحكومة السوفيتية منذ الأيام الأولى مشروع قرار بفرض إشراف العمال على الإنتاج والتوزيع، وحصل ممثلو العمال، والمستخدمون الفنيون، على الحق فى مراقبة جميع شئون

المؤسسة، والحيلولة دون حدوث توقف فى أعمالها. وخطت الطبقة العامة بذلك أول خطوة نحو استلام إدارة الإنتاج.

كذلك اتخذت مراسيم بتسريح الجيش القديم، وإلغاء الطبقات، وامتيازات الطبقات الثرية. وانتقلت ملكية الخطوط الحديدية والأسطول التجارى والمصارف إلى الشعب، وجعلت كل التجارة الخارجية فى يد الدولة. وبعد قليل صودرت المصانع من الرأسماليين الكبار، وأصبحت هى الأخرى ملكا للشعب.

وأصدر لينين «إعلان حقوق الشعب العامل والمستغَل»، الذى كان أساسا لأول دستور سوفيتى، وأعلنت فيه المساواة التامة فى الحقوق بين جميع شعوب روسيا، وكفل لجميع الأمم الحق فى تقرير مصيرها بنفسها، بما فى ذلك الانفصال وتكوين دولة مستقلة.

وفى ذلك الحين ابتدأت المفاوضات فى برست ليتوفسك Brest - Litovsk مع ممثلى السلطات الألمانية - النمساوية. فكان تروتسكى على رأس الوفد السوفيتى على اعتبار أنه مفوض الشعب للخارجية. وكان الأساس الذى طلب الوفد عليه الصلح، هو حقوق الشعوب فى تقرير مصيرها.

وكانت أهم المشكلات هى مصير البلاد التى احتلتها القوات الألمانية والنمساوية، فقد طالب السوفيت بجلاء هذه القوات عن بولندة وكورلاند Courland (لاتفيا Latvia) ولتوانيا Lithuania، على

أن يستفتى أهل هذه البلاد فى الحكم الذى يريدونه. ولكن ألمانيا رفضت ذلك. واشترطت فصل بولندا وفنلندا ودول البلطيق عن روسيا، وأن تنفصل عنها مناطق زراعة القمح فى أوكرانيا.

وقد وقع الخلاف داخل اللجنة المركزية للحزب السوفيتى حول قبول الصلح. فبينما رأى لينين عقد الصلح، على أساس أن متابعة روسيا الحرب أمر مستحيل، نظرا لافتقارها إلى الوسائل التقنية الضرورية لمتابعتها، ومع الوضع السيئ للوحدات العسكرية، ولأن الاستمرار فى الحرب سوف يؤدى على المدى القصير إلى القضاء على السلطة الثورية، فقد رأت جماعة الشيوعيين اليساريين بقيادة بوخارين Bukharin وبوبنوف قطع المفاوضات وشن الحرب الثورية، فى حين اقترح تروتسكى إعلا حالة إنهاء الحرب، وإنهاء التبعية العامة، ورفض توقيع معاهدة الصلح، وطرح شعار «لاحرب ولا سلم»، وبذلك تكون روسيا قد رفضت التوقيع على الصلح مع توقفها عن الحرب، وتكون قد تحدت ألمانيا فى أن تغزو بلدا كل ما فيه ثورة.

وقد انتهى الخلاف بانتصار وجهة نظر لينين، فى الوقت الذى كان الألمان يكررون هجومهم، ويتقدمون نحو بيتروجراد.

ويقضى هذا الصلح الذى وقع فى برست ليتوفسك يوم ٣ مارس ١٩١٨م بموافقة روسيا على التنازل عن بولندا ولتوانيا، وترك مصير تلك البلاد للبت فيه بين ألمانيا والنمسا وبين أهالى تلك

البلاد. كما يقضى بجلاء روسيا عن استونيا Estonia وليفونيا Li-vonia وفنلندا، ثم جلائها عن أوكرانيا (شمال البحر الأسود) والاعتراف بالمعاهدة التى أبرمتها جمهورية الشعب الأوكرانى مع دول الوسط (ألمانيا والنمسا). كذلك التنازل لتركيا عن أردهان وكارز وباطوم، والامتناع عن نشر الدعاية البلشفية فى الأراضى التى تسيطر عليها دول الوسط.

وقد كلف هذا الصلح روسيا البلشفية انتزاع أرض منها تبلغ مساحتها مساحة النمسا والمجر وتركيا معا، ويسكنها حوالى ٦٦ مليون نسمة – أى ٢٦٪ من سكانها، ٧٥٪ من فحمها، و ٧٣٪ من حديدها، وأكثر من خمسة الآف مصنع ومؤسسة صناعية. وقد وصف مؤرخ بريطانى هذا الصلح بأنه: «إذلال لا مثيل له فى التاريخ الحديث».

على أن فترة التقاط الأنفاس لم تستمر طويلا، فلم يشأ الإمبرياليون والبرجوازيون والإقطاعيون الروس الذين أطيح بهم، التسليم بانتصار العمال والفلاحين فى روسيا، وكانوا يدركون أنه قد نشأت ثورة يمكن أن يمتد لهيبها إلى البلدان الأخرى. ولم يشأ رأسماليو بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة أن يفقدوا مليارات الدولارات التى أقرضوها للقيصر الروسى والإقطاعيين والبورجوازيين، والتخلى عن الأرباح الطائلة التى كانوا ينالونها من استغلال ثروات روسيا.

وقد اتخذ تدخل الحلفاء والإمبرياليين مظهرين:

الأول : مساعدة الأحزاب الروسية البورجوازية التى تؤيد مواصلة الحرب بالرجال والمال والذخيرة.

ثانياً : الغزو، لحرمان الألمان والبلشفيك من المواد الحربية الضخمة التى سبق لهم أن أرسلوها إلى «مورمانسك Murmansk وأركانجل Archangal».

ففى ربيع ١٩١٨م استولت القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية على مدينة مورمانسك، ونزل الجنود اليابانيون والبريطانيون، ومن بعدهم الأمريكيون أيضا فى فلاديفوستوك، ومدوا دائرة الحصار نحو الحدود الروسية. وهكذا بدأ الإمبرياليون الحرب لخنق الدولة الاشتراكية الفتية.

وعندما تحطم الجيش التركى، وانسحبت تركيا من الحرب، ضرب الفرنسيون «أوديسا» بالقنابل، واستولوا عليها، على حين احتلت بعض الفرق البريطانية بعض أراضى القوقاز، واستولت على باكو.

كذلك انتهزت جماعات من الوطنين فى استونيا ولاتفيا ولتوانيا وفنلندا والقوقاز تلك الفرصة لاعلان استقلال تلك الولايات. وتشجعت رومانيا، واخترقت بعض قواتها إقليم بسارابيا.

وقد قامت العناصر الروسية المعارضة (الروس البيض) التى نظمت قواتها بمساعدة الفرق الإمبريالية، بإقامة حكومات بيضاء.

فتأسست حول مورمانسك وأركانجل «حكومة روسيا الشمالية المؤقتة».

كما قام الأميرال إسكندر كولشاك Kolchak القائد السابق لأسطول البحر الأسود، بتأسيس حكومة روسية أخرى فى أومسك Omsk بسيبريا، بمعاونة الحلفاء والجنود التشيكيين. وقام غيره من القواد الروس المعارضين بتأسيس حكومات أخرى فى جنوب روسيا، وجنوب أوكرانيا، والقرم.

وقد استمرت الحرب الأهلية ثلاث سنوات، ولكن تمكن البلاشفة فيها من طرد الحكومات المعادية التى تألفت فى أوكرانيا وروسيا البيضاء. وقبضوا على زمام السلطة فى ولايات القوقاز وأزربيجان وأرمينيا وجورجيا، حيث تألفت حكومات اتبعت النظام السوفيتى الجديد.

واضطر الحلفاء إلى سحب قواتهم فى أواخر عام ١٩١٩م. وفى العام التالى رفعوا الحصار عن روسيا، ولم يبق إلا مدينة «فلاديفوستك» على المحيط الهادى، التى بقيت فترة من الوقت تحتلها القوات اليابانية، التى انتهزت فرضة تسليم روسيا للألمان لاقتناص الممتلكات الروسية النائية.

وأما سيبريا، فقد استطاعت القوات الحمراء أن تستولى على أومسك وتومسك Tomsk وايركوتسك Irkutsk والمنطقة التى تقع غرب بحيرة بيكال Baikal. وفى نوفمبر ١٩٢٢م قررت الجمعية

التأسيسية التى تكونت فى تلك الجمهورية الانضمام إلى جمهورية الاتحاد السوفيتى الاشتراكى الروسى.

وليس هناك من يقرأ تاريخ الحرب الأهلية والتدخل الإمبريالى فى الاتحاد السوفيتى، دون أن يتأثر بما حققه البلاشفة من إنجازات فى جميع الميادين. فقد كان عليهم أن يرتجلوا أداة إدارية، وأن يبنوا جيشا وينظموه، وأن يعالجوا مجاعة وأمراضا انتشرت فى كل مكان. وكل ذلك حينما كانت وسائل الاتصال نفسها قد انهارت فى مناطق واسعة من أقاليمهم، واختفت التجارة الخارجية إلى حد بعيد، فى حين فرض على الدولة حصار قاس. وكانت بعض الأقاليم فى يد الحلفاء السابقين. ولابد أن القدرة على الاحتفاظ بالسلطة فى تلك السنوات الأولى للنظام قد بدت فى أضعف حالاتها، ومع ذلك نجحوا.

وقد نجح البلاشفة لثلاثة أسباب:

الأول : أنهم حملوا إلى الجماهير الروسية أول شعاع من الأمل : بعد قرون من سوء الحكم والتسلط على حياتهم.

ثانيا : التدخل الأجنبى من جانب البورجوازيين الإمبرياليين لانهاء أول ثورة اشتراكية فى العالم، فإن هذا التدخل كان عونا للبلاشفة وليس عونا عليهم.

أما العامل الثالث : فهو أن المجتمع البورجوازى القيصرى المنهار لم يستطيع أن يضع فى مواجهة عبقرية لينين وزملائه سوى

مجموعة من المغامرين السيئين الذين ليس لديهم أى برنامج لإعادة النظام.

وينقسم تاريخ الثورة الروسية بعد انتهاء الحرب الأهلية إلى ثلاث فترات:

الفترة الأولى: هى التى إنتهت ١٩٢٤م بموت لينين، وهى الفترة التى هيأ فيها لينين للثورة وسائل تماسكها.

والفترة الثانية من ١٩٢٤ ـ ١٩٢٧م، وهى الفترة التى توقف فيها كل تقدم فعال، بينما عانى منها البلشفيون آثار الانقسام فى النزاع على السلطة بين ستالين وتروتسكى.

أما الفترة الثالثة فهى من عام ١٩٢٧م، وهى التى شرع فيها الاتحاد السوفيتى، بعد أن تركزت جميع مقاليد السلطة فى يد ستالين، فى تنفيذ برنامج ضخم من التنظيم الجماعى والتصنيع بسرعة، وعلى نطاق لم يسبق له مثيل فى أى مجتمع آخر من قبل، فإن معدل التقدم فى هذه السنوات لم يعرف له مثيل فى الواقع باستثناء الفترة التى شهدت بداية استغلال المصادر الهائلة فى قارة أمريكا الشمالية.

وفى الفترة الأولى، وبسبب الدمار الذى خلقته الحرب الأهلية، وبسبب التذمر والاستياء الذى أخذ يبديه الفلاحون من نظام مصادرة فائض الحبوب، ومطالبتهم بالسلع الصناعية الضرورية، واستغلال أعداء الثورة هذا الاستياء فى تشجيع الفلاحين على

الثورة والفتن، فقد استن لينين سياسة اقتصادية تعتبر باعتراف المؤرخين السوفيت تراجعا إلى حد ما عن الاشتراكية، لأنها سمحت بالتجارة الخاصة، واستئجار القوى العاملة، مما أدى إلى انبعاث الرأسمالية جزئياً.

وتعرف هذه السياسة باسم «النيب» .N.E.P. وقد قامت هذه السياسة الاقتصادية على تشجيع المشروعات الزراعية والتجارية وازدهارها، كخير سبيل لإقالة روسيا من عثرتها، ورأب ما صدعته الحرب. وقدر لينين أن من الأفضل إعطاء بعض الامتيازات المغرية للرأسمالية، فبدأ بإلغاء الإشراف العمالي فى المصانع، وإلغاء تحديد العمل اليومى بثمانى ساعات، وأعيدت الحرية إلى التجارة الصغيرة وإلى الصناعة الصغيرة التى تشغل أقل من عشرين عاملا. كما ألغيت المصادرة التى كانت تخمد همة الفلاحين للانتاج، واستبدل بها ضريبة عينية قدرها ١٠٪ من المحصول الخام، (أثناء الحرب الأهلية طبق نظام مصادرة الحبوب الذى بمقتضاه كان على الفلاحين تقديم فائض الحبوب للدولة لتموين الجيش والعمال، ويعترف المؤرخون السوفيت بأن هذه التدابير كانت قاسية جداً فرضتها ظروف الحرب).

وفى الوقت نفسه، ولبناء الاقتصاد الروسى وبناء الصناعة الروسية، منح لينين الرأسماليين الأجانب امتيازات من مختلف الأنواع (بعضها كان يعطى للشركات الأجنبية الحق فى الاحتفاظ

بكل الأرباح مع دفع الضرائب) على ألا يكون لصاحب الامتياز الحق فى امتلاك المشروع أو بيعه أو تأجيره، وإسهام الدولة السوفيتية فى إدارة المشروع الذى تقيمه الشركة الأجنبية وفى أرباحه.

وقد برر لينين هذه الإجراءات بقوله : «إن الرأسمالية شر بالمقارنة مع الاشتراكية، ولكن الرأسمالية خير إذا ما قورنت بأحوال القرون الوسطى. وإن الرأسمالية ستظل لا مفر منها مادمنا عاجزين عن تحقيق الانتقال المباشر منها إلى الاشتراكية». ثم قرر أنه لا يخشى البورجوازية ونهوض الرأسمالى الصغير، ولكنه يخاف من المجاعة والبؤس، وهو لهذا يعترف بالمزارعين المتوسطى الثراء، وتشجيعهم على النهوض بمزارعهم، وبضرورة حفز همة المزارع الصغير. وكان مطمئنا إلى أن ذلك لن يؤثر تأثيرا ضارا على المسيرة الاشتراكية، «مادام أن السلطة فى يد العمال والفلاحين، ومادام أن الصناعة والأرض والمصارف والخطوط الحديدية ووسائل النقل المائية والبحرية فى يد الدولة».

أما الفترة الثانية: فقد نشأت بعد وفاة لينين فى يناير ١٩٢٤م. فقد خلفه ريكوف RIKOV، والى جواره ستالين الأمين العام للحزب الشيوعى، الذى أصبح السيد الحقيقى للحزب والدولة.

وقد قامت خطة ستالين على إعطاء امتيازات جديدة تشجع الروح الرأسمالية، ولكن عارضه تروتسكى، الذى كان يتمتع بشعبية كبيرة بسبب دوره فى الحرب الأهلية، وكان يؤيده زينوفييف

وكامنيف. فقد هاجم تروتسكى ما أسماهم بـ «التيرميدوريين» Thermidorians[1] فى السياسة الاقتصادية الجديدة، وبين خطورة هذه السياسة على كيان الاشتراكية، ودعا إلى القضاء على طبقة الكولاك ونشر المزارعة المشتركة، والإسراع فى إنشاء المصانع لزيادة عدد البروليتياريا.

وفى النهاية انتصر الانضباط الحزبى، وأكره تروتسكى على الاستقالة عام ١٩٢٥م، ثم طرد من الحزب فى ١٥ نوفمبر ١٩٢٦م، ونفى إلى سيبريا عام ١٩٢٨م، ثم طرد نهائيا فى بداية عام ١٩٢٩ مع حوالى ثلثمائة آخرين، فالتجأ تروتسكى إلى تركيا، البلد الوحيد الذى قبل إيواءه.

أما الفترة الثالثة : فتبدأ بعد تركز السلطة فى يد ستالين بعد التخلص من معارضيه. فبعد أن نجحت السياسة الاقتصادية الجديدة (N.E.P.) فى ايتاء ثمراتها، وعاد الإنتاج الروسى إلى مايقرب من مستواه قبل الحرب، عاد ستالين فى عام ١٩٢٩م فأخذ بآراء المعارضين، فقضى على الكولاك، وفرض المزارعة المشتركة على البلاد، وبرر ذلك بقوله: «إن الظروف وقت الأخذ بالسياسة الاقتصادية الجديدة (N.E.P.) لم تكن مواتية لاعتناق آراء المعارضين». واعتبر التفكير فى تطبيقها فى ذلك الوقت كارثة وخيانة وطنية.

---

(١) أنظر فصل «الثورة الفرنسية».

وفى عـام ١٩٢٨م بدأ تنفيذ مشـروع الخمس السنوات الأول، الذى هدف أولاً وقبل كل شئ إلى التعجيل بتقدم البلاد الصناعى. وفى ذلك قال ستالين: «يجب علينا، حتى لا نزول، أن نسبق الدول الرأسمالية، إننا متأخرون عنها بنحو قرن أو نصف قرن، ويجب علينا أن نعمل لهذا وإلا تحطمنا».

ولهذا عبأ الأمة لهذا المشروع تعبئة لا نظير لها فى التاريخ، لتحقيق الانتقال الصناعى، الذى بدونه - كما ذكر أقطاب السوفيت - لن تقوم للاشتراكية فى روسيا قائمة. وفى عام ١٩٣٧م كان عدد العمال الروس قد بلغ أكثر من ٢٥ مليون عامل بعد أن كان فى عام ١٩٢٨م ١١.٥ مليون عامل.

وهكذا استطاع الحزب الشيوعى أن يحيل الاقتصاد الروسى إلى اقتصاد تتحكم الدولة فى كافة نواحيه. وفى عام ١٩٣٥م نوه ستالين بنصر الدولة السوفيتية قائلا: «إن طبقة البروليتاريا فى الاتحاد السوفيتى قد ألغت نظام الإنتاج الرأسمالى، وأنشأت التملك الاشتراكى لأدوات ووسائل الإنتاج، وهى التى توجه المجتمع الشيوعى فى طريق الشيوعية».

على كل حال فإن انتصار الثورة البلشفية فى روسيا كان مثالا لما يمكن أن تحتذيه الأحزاب الشيوعية فى البلاد الصناعية المتقدمة. فلم تكد تنتهى الحرب، حتى اندلعت الثورات الشيوعية فى أماكن أخرى من أوروبا. فقد نشبت فى ألمانيا ثورة شيوعية بقيادة كارل ليبنخت وروزا لوكسمبرج، ونشبت ثورة شيوعية أخرى فى

النمسا، وأصبحت المجر جمهورية سوفيتية لوقت قصير تحت قيادة بلاكون Belakun.

كما قامت حركات أخرى فى إيطاليا وأسبانيا والصين. ولكن أخمدت هذه الثورات والحركات الشيوعية. وفى عام ١٩٢٨م تجددت هذه الحركات، وانتشرت من اليابان فى أقصى الشرق إلى فرنسا وبريطانيا فى أقصى الغرب، وفى فترة واحدة تقريبا، واتخذت مظهر العنف فى ليتوانيا وفنلندا والنمسا والمجر، ومظهر الدعوة القوية فى بريطانيا واليابان.

وترجع بعض هذه الحركات لتأثيرات الكومنترن من جهة، كما ترجع لأسباب داخلية من جهة أخرى، كما هو الحال بالنسبة للحركات التى نشبت بعد الحرب الأولى خاصة.

وكان الكومنترن Comintern (الدولية الشيوعية الثالثة) قد تأسس فى عام ١٩١٩م، بعد نداء أصدرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الروسى وجهه إلى الشيوعيين فى كافة أنحاء العالم، لتأسيس هيئة النضال المشترك، التى ستكون رابطة موحدة ومتسقة تقود الحركة إلى «الدولية الشيوعية» التى تُخضع مصالح الحركة الشيوعية داخل كل قطر للمصالح المشتركة للثورة على نطاق دولى.

وقد انعقد أول مؤتمر للكومنترن فى ٧ـ ٩ مارس ١٩١٩م، وحضره مندبون من الأحزاب الشيوعية فى بلاد كثيرة، ونص دستوره على أن تكون هيئته العليا مكونة من مندوبى الأحزاب

الشيوعية فى العالم. وقد وضع لينين المبادئ الأساسية للكومنترن فى نقاطه الواحدة والعشرين، التى تُخضع الأحزاب الشيوعية فى العالم لإشراف الكومنترن، وتقضى بضرورة موافقته على برامج هذه الأحزاب، وإشرافه على صحافتها، والانضباط الحزبى الكامل، وضرورة اشتراك العضو فى الخلية الشيوعية فى المصنع، التى تبذل الجهد فى سبيل تحويل العمال إلى الشيوعية، والسيطرة على نقابات العمال، وإثارة القلاقل والاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية تمهيداً لثورة البروليتاريا.

على أن الكومنترن فشل فى إحداث الثورة الشيوعية العمالية، وفى الوقت نفسه كان رد الفعل فى بعض البلاد قيام الحركات اليمينية المتطرفة، ممثلة فى الفاشية التى قامت فى ألمانيا وإيطاليا ثم أسبانيا. كما لقى الكومنترن العداء والخصومة الشديدة من الدول الرأسمالية.

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية، وتقربا من جانب ستالين لحلفائه، قرر إلغاء الكومنترن فى ٢٢ مايو ١٩٤٣م. ولكن الكومنفورم (Cominform) (مكتب الاستعلامات الشيوعى) قام مكانه فى أكتوبر ١٩٤٧م فى ظروف الحرب الباردة بين المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى، ولكنه نشأ بهدف دفاعى لا هجومى، ولم يكتسب طابعا عالميا مثل الكومنترن، وإنما اكتسب طابعا أوروبياً فى دول أوروبا الشرقية.

الفصل التاسع عشر

العالم بعد الحرب العالمية الأولى

العالم بعد الحرب العالمية الأولى

١ ـ التغيرات الاقتصادية والاجتماعية :

أسدل الستار على الحرب العالمية الأولى عندما وقعت ألمانيا الهدنة مع الحلفاء يوم ١١ نوفمبر ١٩١٨م، وانتهت بذلك أكبر حرب عالمية إلى ذلك الحين، فقد اشتركت فيها ثلاثون دولة، واستمرت أربع سنوات ونصف.

ولسنا فى سبيل استقصاء أسباب هذه الحرب العظمى، فقد تشعبت الآراء وتفرقت: بعضها ينسب قيامها إلى نظام المحالفات ومبدأ توازن القوى، وبعضها ينسبها إلى المسألة البلقانية (السبب المباشر للحرب)، والبعض الثالث ينسبها إلى المنافسة البحرية الألمانية البريطانية، كما ينسبها البعض الرابع إلى رغبة فرنسا فى استرداد الألزاس واللورين، وينسبها البعض الخامس إلى التنافس الاستعمارى بين الدول الكبرى فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر من أجل السيطرة على آسيا وأفريقيا. وإن كان الرأى الأصوب أن هذه الأسباب مجتمعة قد أدت إلى قيام الحرب

فالحدث التاريخي لا يصنعه سبب واحد مهما عظم شأنه، والمنظور التاريخي الواحد لا وجود له، ومن هنا يقع الخلاف والاختلاف في الآراء، وهذا الخلاف وهذا الاختلاف ضروريان للتقدم، فالحركة يصنعها التناقض، والجدل أساس التطور.

وعندما ارتفع الستار على العالم مابعد الحرب، كان قد تغير كل شئ اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا. فالحرب نار تخرب وتعمر، تهدم وتبني، وكل ذلك يعني التغيير والتحول.

ومن الناحية الاقتصادية، فقد تهدم نظام الاقتصاد الأوروبي الذي كان له دور مسيطر في حياة العالم الاقتصادية قبل الحرب.

ففيما يختص بالقوى المنتجة الأوروبية، فإن النظام الاقتصادي الأوروبي فقد في الحرب ثمانية ملايين ونصف ممن تتراوح أعمارهم بين ٢٠ ، ٤٠ سنة، أي ممن يمثلون القوى العاملة الأساسية.

وفيما يختص بوسائل الإنتاج، فقد دمرت الحرب المصانع والآلات، وحتى الأرض أيضاً. ففي بعض المناطق الفرنسية، التي دام فيها القتال عدة أشهر، قلبت المدفعية الأرض، وأصبح من المستحيل استخدامها في الزراعة قبل تنظيفها تماماً. وفي بعض الحالات قدر أن تنظيف الأرض تتجاوز نفقاته قيمة الأرض ذاتها!

أما من ناحية الإنتاج، فقد رصدت الدول المحاربة مواردها وجميع موادها الخام لحاجات الحرب التي استمرت أربع سنوات

ونصف، وعندما انتهت الحرب كان الطلب على المواد الأولية والغذائية والمصنوعات الاستهلاكية يتجاوز العرض بكثير. وقد ظل القسم الأكبر من أوروبا يعانى من هذا العجز حتى منتصف عام ١٩٢٠م تقريبا. وبالإضافة إلى ذلك فان الحرب قد دمرت معظم الخطوط الحديدية فضلا عن وسائل النقل البرية والبحرية.

أما من الناحية المالية، ففى الوقت الذى كانت أوروبا فى حاجة ماسة إلى المال لتعمير ماخرب، كانت تعانى من انخفاض قيمة النقد فيها، بسبب التضخم الناتج عن إصدار الأوراق المالية بكثرة لمواجهة النفقات العامة، وتناقص احتياطيها الذهبى نتيجة استخدامه فى دفع مشترياتها من الخارج.

وبطبيعة الحال فلم يكن نصيب جميع الدول الأوروبية من هذا الدمار متساويا. فبالنسبة لبريطانيا فإنها فقدت ١٠٪ فقط من رجالها العاملين، وبقيت غالبية آلاتها سليمة، ولكن المشكلة المالية فيها كانت مستفحلة بسبب استدانتها مبالغ جسيمة من الولايات المتحدة تقرب من ٦ آلاف مليون دولار.

أما فرنسا فكانت خسائرها جسيمة، لأنها كانت مسرحا للحرب، فقد فقدت ٢٠٪ من قوتها العاملة (مليون و ٣٥٠ ألف) وتعطل فيها مايقرب من ٤ ملايين هكتار (الهكتار ٢.٥ فدان) من الأرض، وأصبحت بحاجة إلى إصلاح لتعود صالحة للزراعة. كما فقدت تسعة أعشار قطيعها من الأبقار.

أما روسيا فقد بلغت خسائرها فى القوى البشرية عدة ملايين، وتوقف كثير من مصانعها، وتوقف تصدير الحاصلات الزراعية، وأصابها شلل فى النقل.

أما ألمانيا فقد فقدت مايقرب من ١٥٪ من قوتها العاملة (مليون، ٧٠٠ ألف)، واستنفدت أثناء الحرب مخزونها من المواد الأولية، وفقدت أسطولها التجارى الذى صادره الحلفاء، كما أفقدتها معاهدة الصلح بعض أراضيها المهمة لحياتها الاقتصادية وهى: السار، وقسم من سيليزيا العليا. كما كان عليها أن تدفع ديون التعويضات التى فرضها الحلفاء. ولكنها من الناحية المالية كانت أفضل من الدول المنتصرة، لأن الحصار البحرى عليها حال دون شرائها من الخارج، وبالتالى فلم تعقد ديونا خارجية.

كما أن الحرب لم تجتحها إلا فى بداية سبتمبر ١٩١٤م فى جزء صغير من بروسيا الشرقية. وبالتالى فقد بقيت مصانعها سليمة، بل إنها كانت تستحوذ فى نهاية الحرب على أجهزة تفوق ماكانت تملك عام ١٩١٤، بفضل ما أنتجت من صناعات حديثة، كصناعة البترول التركيبى، والحرير الصناعى.

وعلى العكس مما حدث من تدمير فى أوروبا بسبب الحرب، فإن نفس الحرب كانت بالنسبة للدول الكبرى الصناعية خارج أوروبا عامل بناء وتعمير.

فبالنسبة للولايات المتحدة، فقد كانت المستفيد الأول من الحرب، بسبب حاجة المحاربين والمحايدين إليها، مما جعلها أكبر تاجر فى العالم فى ذلك الحين، وبسبب دخولها الحرب متأخرة، وابتعاد أراضيها عن مسرح الحرب.

فقد تضاعف إنتاجها الزراعى والصناعى والتعدينى، وقفزت صادراتها بين ١٩١٣ و ١٩١٨م من ٣ آلاف مليون دولار إلى ٦ آلاف مليون تقريبا، وبلغ فائض الصادرات عن الواردات فى الأربع سنوات ٧.٥ آلاف مليون دولار. وفى عام ١٩١٩م كان فى يد الولايات المتحدة نصف الذهب العالمى، وكانت دائنة للدول الحليفة بـ ١٠ آلاف مليون دولار، فى حين بلغت الاستثمارات الخارجية ٨ آلاف مليون دولار، وأصبحت أمريكا الجنوبية خاضعة لسيطرة رأس المال الأمريكى، بعد أن كانت خاضعة لرأس المال الأوروبى.

أما اليابان، التى كانت رغم نهضتها الصناعية متأخرة عن أوروبا فى عام ١٩١٤م، فبعد زوال المنافسة الأوروبية فى أثناء الحرب، استطاعت أن تغزو اقتصاديا ميدان الشرق الأقصى. أما فى أمريكا الجنوبية فقد حلت منتجاتها الصناعية محل المنتجات الألمانية فى شيلى وبيرو، اللتين كانتا قبل الحرب تتعاملان مع الصناعة الألمانية. كما صدرت الأسلحة إلى روسيا، وصدرت فى عام ١٩١٨م المنتجات الصناعية إلى الولايات المتحدة. وبعد أن كان ميزانها التجارى قبل الحرب فى حالة عجز دائم، انقلب ليصبح فائضا، وبلغ هذا الفائض فى خلال أربع سنوات ١٤٠٠ مليون ين.

وفى الوقت نفسه فإن كثيرا من دول العالم الصغرى، بسبب توقف ورود البضائع الأوروبية، الذى كان بمثابة حماية لمصنوعاتها الوطنية من المنافسة، قد استطاعت إنهاض هذه الصناعات والاعتماد على نفسها، كما حدث فى بلاد أمريكا اللاتينية التى صنعت منسوجاتها بعد أن كانت تشترى المنسوجات الانجليزية، ومصر التى انتعشت بعض صناعاتها.

هذا فيما يتصل بالتغيرات الاقتصادية، أما فيما يختص بالتغيرات الاجتماعية، وهى التى ترتبت عليها، فان التضخم النقدى قد ضرب أصحاب الدخل المحدود والملاك الصغار والموظفين والعمال ضربة شديدة، فى حين حقق البورجوازيون الكبار والمتوسطون من المنتجين والوسطاء ثروات ضخمة.

وبارتفاع نفوذ البورجوازيين الكبار، وضعف شأن كبار الملاك الزراعيين فى البلاد المتأخرة صناعياً، خصوصا فى شرق أوروبا، ومع الخوف من الثورة الاجتماعية، اضطر كبار الملاك إلى إرضاء الطبقات الفلاحية فى البلاد المجاورة للاتحاد السوفيتى، فقد وضع حد أقصى للملكية الزراعية فى رومانيا وبولندا وفنلندا واستونيا وليتوانيا، ووزعت الأراضى الفائضة على الفلاحين، مما أسفر عن تكوين طبقة من صغار المزارعين، تسد الفجوة بين كبار الملاك والعمال الزراعيين.

أما فى البلاد المستعمرة وشبه المستعمرة، فإن احتياجات الحرب قد شددت من قبضة الدول الأوروبية المستعمرة عليها، وأدت إلى استحلابها على نحو أضر بالمصالح الاقتصادية للطبقات الاجتماعية فيها، بما فيها الطبقة البورجوازية، مما أسفر عن غضب وسخط عام أدى إلى تحرك هذه البلاد بكل طبقاتها، مطالبة بالاستقلال والتحرر بعد الحرب.

٢ ـ التغيرات السياسية فى أوروبا :

هذا على كل حال فيما يتعلق بالتغيرات الاقتصادية والاجتماعية. أما فيما يتعلق بالتغيرات السياسية، فقد شهد انتهاء الحرب تغير المسرح السياسى تغيراً جذريا عما كان عليه قبل الحرب العالمية الأولى، وذلك باختفاء الأسرات العسكرية الحاكمة فى أربع إمبراطوريات، هى: أسرة الهابسبيرج Habsburg فى النمسا والمجر، والهوهنزلرن Hohenzollern فى ألمانيا، ورومانوف Romanoff فى روسيا، وآل عثمان فى تركيا.

كما شهد انتهاء الحرب تحول روسيا القيصرية إلى الشيوعية، ونفضها أيديها من تراب العصر الاستعمارى، بإذاعتها نصوص المعاهدات والاتفاقات الاستعمارية التى عقدتها بريطانيا وفرنسا مع الحكومة القيصرية قبل ثورة أكتوبر ١٩١٧م.

٣ ـ تسوية مؤتمر فرساى :

وبناء على معاهدات الصلح، وهى: معاهدة فرساى Versailles مع ألمانيا فى ٢٨ يونية ١٩١٩، ومعاهدة سان جرمان St. Germain مع النمسا فى ١٠ سبتمبر ١٩١٩م، ومعاهدة نوييى Neully مع بلغاريا فى ٢٧ نوفمبر ١٩١٩م، ومعاهدة تريانون Trianon مع المجرفى ٤ يونية ١٩٢٠م، ومعاهدة سيفر Sèvre مع تركيا فى ١٠ أغسطس ١٩٢٠م - بعثت دولة إلى الحياة، وهى بولندا، واصطنعت أخرى، وهى تشيكوسلوفاكيا، وتحولت دولتان صغيرتان إلى دولتين كبيرتين، وهما:

يوغوسلافيا، التى كانت مملكة الصرب القديمة، فتضاعفت مساحتها إلى ثلاثة أمثالها، وتضاعف سكانها إلى ثلاثة أمثالهم أيضا، بعد أن أضيف إليها الجبل الأسود ودلماشيا والبوسنة وسلافونيا Slavonia، وذلك على حساب دولة النمسا والمجر.

كذلك رومانيا، التى تضخمت مساحتها تضخما كبيرا، فاستردت ترانسلفانيا Transylvania من المجر، وبوكوفينا Bu-kovina من النمسا، ومقاطعة بساربيا Bassarabia من الروسيا، وبذلك تضاعفت مساحتها، كما تضاعف سكانها، حتى انضم إليها أكثر من ثمانية ملايين، نصفهم من الرومانيين.

كذلك فقد شطرت دولة النمسا والمجر إلى شطرين، فانفصلت كل منهما عن الأخرى، وأصبحتا دولتين منفصلتين مستقلتين.

ولم يكتف الحلفاء بذلك بل أنقصت معاهدة سان جرمان عدد سكان النمسا إلى نصفها القديم، وكان هذا العدد يبلغ ٢٢ مليونا، كما تقلصت مساحتها إلى نصف حجم مساحتها السابقة. فقد سلمت المعاهدة ٧.٥ ملايين من السلاف فى غاليسيا Galicia إلى دولة بولندا الجديدة، كما سلمتها أكثر من مليون آخر من غير الألمان.

واقتطعت من النمسا بوهيميا ومورافيا اللتان بلغ عدد سكانهما عشرة ملايين، أغلبيتهم الساحقة من التشيك، ليتكون منهم ومن المليونين من السلوفاك ومليون آخر من المجريين والروتينيين دولة تشيكوسلوفاكيا الجديدة.

كذلك تخلت النمسا لإيطاليا عن التيرول الجنوبى، ومنطقة ترنتينو Trentino وتريستا Trieste وشبه جزيرة استريا Istria وبعض الجزر على ساحل دلماشيا.

وبذلك تحولت النمسا، التى ظلت تملأ الحياة السياسية فى أوروبا طوال ثلاثة قرون، إلى دولة صغيرة فقيرة.

كذلك تقلصت مساحة المجر بموجب معاهدة تريانون، فوزعت حدودها القديمة على يوغوسلافيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا، وانضم جزء منها إلى النمسا ذاتها، وحرمت من الميناء الذى كانت تنفذ منه إلى البحر وهو ميناء فيوم Fiume، فأصبحت دولة مغلقة، وانكمشت مساحتها من ١٢٥ ألف ميل مربع إلى ٣٥ ألف فقط.

كذلك تقلصت مساحة بلغاريا بموجب معاهدة نويبي، بعد أن فقدت تراقيا الغربية Thrace التي كانت قد انتزعتها من تركيا في حروب عام ١٩١٣، وكانت تعتز بها لأنها منفذها إلى بحرايجة Aegean Sea، وقد ضمت هذه المنطقة إلى اليونان. كما سلمت ثلاث مناطق صغيرة في حدودها الغربية إلى يوغوسلافيا.

وهكذا اصبحت بلغاريا، التي كانت تتطلع لزعامة دول البلقان في عام ١٩١٢ ـ ١٩١٣م، من أصغر الدول في تلك المنطقة!

وأخيراً فقد تقلصت مساحة ألمانيا بمقتضى معاهدة فرساي. فقد تنازلت لبلجيكا عن مدينتي يوبين Eupen ومالميدي Malmédy، وأعادت شمال شلزفيج للدنمارك، وأجبرت على رد الألزاس واللورين لفرنسا، بحجة أن عواطف سكانها مع الفرنسيين وإن كانوا يتكلمون الألمانية! كما أعطت دولة بولندا الجديدة رقعة كبيرة من الأرض تتمثل في بروسيا الغربية وبوزن Posen، كما أعطتها أيضا ممرا إلى البحر ينتهي عند دانزج Danzig ويفصل مابين بروسيا الشرقية وألمانيا. كما أعطتها جزءاً كبيراً من سيليزيا العليا بما فيه من نصيب وافر من الثروة المعدنية.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد فقدت ألمانيا مستعمراتها.

كما اشترط لضمان الأمن في أوروبا ألا يتم اتحاد سياسي بينهاوبين النمسا Anschluss دون موافقة عصبة الأمم. وفرض على

ألمانيا نزع سلاح المنطقة الواقعة شرق الراين إلى مسافة خمسين كيلومترا على الدوام. هذا فضلا عن إخلاء ريتانيا (غرب الراين) من كل حصن عسكرى، ومن كل منظمة عسكرية. وفيما عدا ذلك فقد تركت معاهدة فرساى الرايخ سليما إلى حد كبير من الناحيتين الجغرافية والاقتصادية، وحفظت له وحدته السياسية وقوته وإمكاناته كدولة عظمى.

ولقد شملت أراضى بولندا: بولندا الروسية، وبولندا النمسوية، وبولندا الروسية القديمة. وامتدت نحو الشرق، غير أن معاهدة فرساى لم تعين حدود بولندا فى هذه الجهة، ولم تلبث أن تحددت هذه الحدود فى معاهدة ريجا Riga ١٩٢٠م بعد الحرب البولندية الروسية.

هذا على كل حال فيما يتصل بالتغييرات السياسية فى أوروبا، أما خارج أوروبا فقد أعيد توزيع المستعمرات الألمانية على الدول المنتصرة تحت اسم الانتداب، فاستولت فرنسا على الكمرون ونصف توجو، واستولت بريطانيا على تنجانيقا عدا رواندا وأوروندى، كما استولت على النصف الآخر من توجو، وأفريقية الجنوبية الغربية الألمانية. واستولت بلجيكا علي رواندا وأوروندى، وضمت إلى الكنغو البلجيكى، وأعطيت اليابان جزر الهادى الألمانية وهما : مارشال Marshall وكارولينا Carolina (عدا جوام)، وماريانا Mariana وكذا كياتشاو Kiaochow فى شبه جزيرة شان

تونج. وأعطيت استراليا غينيا الجديدة، وأعطيت نيوزيلاندا الجزر الألمانية الموجودة فى محيط غينيا الجديدة New Guinea ـ كما أعطيت إنجلترا ناورو Nauru فى المحيط الهادى.

أما فى الشرق الأوسط، فبمقتضى معاهدة سيفر، لم يبق للأتراك إلا مدينة القسطنطينية مع ركن صغير من الأرض الأوروبية خلفها، والقسم الأعظم من آسيا الصغرى، أى الأناضول، أما بقية أراضى الإمبراطورية العثمانية فقد سلخت منها.

فقد اعترفت تركيا بالاستقلال الذاتى لكردستان، وأقرت بأن أرمينيا دولة حرة مستقلة، ووضعت منطقة إزمير Izmir والأراضى المجاورة بصورة مؤقتة تحت إدارة اليونان، مع بقائها إسميا تحت السيادة التركية، ووضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى، وفلسطين وشرق الأردن والعراق تحت الانتداب البريطانى. واستولت إيطاليا على جزيرة رودس وجزر الدوديكانيز Do-decanese، وأعطيت جزر بحر إيجة إلى اليونان، ووضع مضيقا البوسفور والدردنيل تحت رقابة لجنه دولية، فلايجوز حصارهما ولا إدخالهما ضمن منطقة حرب إلا تنفيذا لقرار مجلس عصبة الأمم.

واعترفت تركيا بالحالة السياسية الجديدة التى نشأت عن الحرب فى مصر والسودان وقبرص وبحر إيجة، وبالحماية الفرنسية على المغرب وتونس، وتنازلت عن كل حقوقها فى بلاد

العرب وسوريا وفلسطين والعراق. وقد اتفق على منح فرنسا منطقة نفوذ فى الأناضول تمتد إلى شمال سوريا، وعلى منح إيطاليا منطقة نفوذ أخرى جنوب وشرق إزمير.

على أن الشعب التركى تمرد على المعاهدة، وخاض بقيادة مصطفى كمال (أتاتورك) المعارك مع اليونانيين، وأحرز الانتصار عليهم، فأعيد النظر فى المعاهدة فى مؤتمر لوزان ١٩٢٣م، وبموجبها وافقت تركيا على التخلى عن سيادتها على البلاد العربية، كما وافقت على حياد المضايق وحرية الملاحة فيها. وفى مقابل ذلك أعيد إلى تركيا تراقيا الشرقية، وإزمير، وأضاليا، وكيليكيا.

٤ - إنشاء عصبة الأمم **League of Nations** :

وقد تمخضت الحرب عن تنظيم دولى لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية، وهو إنشاء عصبة الأمم. وقد أحدث إنشاء هذه العصبة عدة تغيرات جوهرية فى العلاقات الدولية، أولها: أنه استبدل بنظام توازن القوى، الذى كان سائدا منذ القرن السادس عشر، نظام أمن جماعى تكون كل دولة فيه ملزمة بمساعدة أية دولة تتعرض للعدوان من قبل دولة أخرى.

ثانياً: أن العصبة لم تُنشئ فقط «مجلسا» تنعقد فيه الدول الكبرى، كما كانت تنعقد فى أحوال كثيرة من قبل، وإنما أنشأت

العصبة «جمعية عمومية» تجتمع فيها كل الدول كبيرها وصغيرها على قدم المساواة، ويمكنها أن تناقش فيها الشئون الدولية. ولم يكن هذا موجودا من قبل فى العلاقات الدولية.

ثالثاً : إنشاء لجنة دائمة للانتدابات. وكانت الدول المنتصرة، وفقا للأسلوب التقليدى السابق، تضم إليها عادة مستعمرات وأملاك الدول المنهزمة فيما وراء البحار، ولكن النظام الجديد جعل هذه الدول تقوم بالوصاية على المستعمرات نيابة عن المجتمع الدولى، والإشراف عليها من خلال لجنة الانتدابات. أما مهمة هذه الدول فهى تحقيق الرفاهية والتنمية لهذه الدول الواقعة تحت الانتداب.

وصحيح أن الانتداب الذى ابتدعته المنظمة الدولية الخاضعة لسلطة الدول العظمى كان وجها ثانيا للاستعمار، ولكن المحاولة مع ذلك قد كشفت وعيا وإدراكا بأن الشعوب خارج القارة الأوروبية قد امتلأت بالرغبة فى الاستقلال والتحرر، ولم يعد من المتيسر معاملتها على نحو سافر كجزء من لعبة توازن القوى الأوروبى. وعلى كل حال فقد اقتصرت الانتدابات ـ كما رأينا ـ على البلاد التى خسرتها دول الوسط وتركيا، ولم يستقل من هذه الدول بالفعل إلا العراق فقط.

رابعاً : إنشاء محكمة العدل الدولية التابعة لعصبة الأمم. وذلك للفصل فى المنازعات الدولية التى يمكن الفصل فيها بالطرق

الدوليـة، وقـد جـعل مـقـر هذه المحكمـة فى «لاهاى» The Hague بهولندا.

وكان من حق الدول أن تلجأ إلى هذه المحكمة فيما ينشأ بينها من منازعـات ترى حلهـا بواسطة تحكيم القـانون، وفـى هذه الحـالة تتفق الدول المتنازعة على قبول قرار المحكمة دون جدال.

خامساً : إدخال مبدأ العدالة الاجتماعية فى العلاقات الدولية، والاهتمام عـالميا بمشـاكل العـمال لأول مـرة، باعـتبـار أن تحقـيق العدالة الاجتماعية لهؤلاء العمال من عوامل استقرار السـلام فى العالم، الذى هو من أغراض العصبة.

ولذلك فقد تفرعت من العصبة منظمة دولية أطلق عليها اسم مكتب العمل الدولى»، من واجباتها عقد المؤتمرات التى تمثل فيها الدول المختلفة، لبحث سـاعات العمل، والشروط التى يخضع لها أصـحاب الأعمال والعمال على السواء، ومشكلة البطالة، وتعويض العـمـال، والتـأمين الصـحى، وتشـغيل الأطفال والنسـاء، والعـمل الليلى، وعقد اتفاقيات دولية تضمن القرارات المتفق عليها.

وكـان هذا المكتب الدائم يجتـمع فى جنيف Geneva مـرة على الأقل كل ثلاثة أشـهـر، ويتـألف من ٣٢ عـضـوا، ٨ منهم يمـثلون العـمـال، و ٨ يمـثلون أصـحـاب الأعـمـال، و ١٦ مندوبا يمـثلون الحكومـات المختلفة. وواضح أن هذا الاهتمـام كـان بإيحـاء الثورة السـوفـيـتـيـة التى قـامت فى أكـتـوبر ١٩١٧، ومـحـاولة من الدول البورجوازية الرأسمالية لتأخير الثورة البروليتارية.

سادساً : الاهتمام عالميا بحماية حقوق الأقليات، لمنع اضطهادها فى الدول التى عرفت بالتعصب ضد الأقليات الجنسية أو اللغوية أو الدينية، وكان لكل عضو الحق فى إثارة أية مشكلة تتعلق بالظلم الذى يقع على الأقليات فى أية دولة من دول العصبة.

سابعاً : الاهتمام بنزع سلاح الدول المنضمة إلى العصبة تدريجيا. فقد نص فى معاهدات الصلح على نزع سلاح كل الدول المنهزمة، وإلزامها بتخفيض مواردها الحربية إلى الحد الذى يكفى لحفظ النظام الداخلى فقط. وعهد إلى العصبة أن تشرف فيما بعد على تنفيذ نزع سلاح الدول المنتصرة.

وقد تمثل اهتمام مؤتمر الصلح بالعصبة ـ تحت تأثير الدكتور ولسن رئيس الولايات المتحدة ـ فى قراره بأن يكون دستور العصبة وميثاقها جزءا لا يتجزأ من معاهدات الصلح. ولذلك اشتملت كل معاهدة من المعاهدات الخمس الكبرى على المواد الست والعشرين التى تألف منها ميثاق العصبة.

٥ ـ ظهور الدول القومية الجديدة

على كل حال، إذا كان انشاء عصبة الأمم من أهم التغييرات التى ظهرت على المسرح السياسى العالمى بعد الحرب، فإن إرضاء المشاعر القومية لشعوب أوروبا الوسطى والشرقية ممالم يسبق له مثيل، يعتبر من أهم التغييرات التى شهدها هذا المسرح أيضا.

وهذه الظاهرة تمثل أهم فارق بين مؤتمر ڤيينا سنة ١٨١٥م ومؤتمر الصلح عام ١٩١٩م. ومن المعلوم أن تجاهل المشاعر القومية وإغفال إرادة الشعوب في مؤتمر ڤيينا قد ظل يحرك الأحداث في أوروبا بالحركات القومية والدستورية طوال القرن التاسع عشر.

ويرجع الفضل في اقرار مبدأ القوميات في مؤتمر الصلح عام ١٩١٩م إلى نضال القوميات الطويل على طول القرن التاسع عشر من أجل تحقيق وحدتها وحريتها، كما يرجع، من جانب آخر، إلى شعار تقرير المصير الذى رفع لواءه الرئيس ولسن في أثناء الحرب.

وبناء على الأخذ بمبدأ الحقوق في تسويات الصلح، يسرت المعاهدات لأمتين، هما: رومانيا ويوغوسلافيا، أن تصبحا دولتين كبيرتين، وأن تجمع شمل شعبيهما مع ذوى قرباهما الذين طال بهم الفراق والانفصال. واستردت أربع دول حريتها، وهي : استونيا ولاتفيا ولتوانيا وفنلندا، وبعثت بولندا إلى الوجود من جديد.

ولقد كانت عودة بولندا إلى الحياة تبدو مستحيلة قبل الحرب، إذ كانت هذه العودة تتطلب سقوط الإمبراطوريات الثلاث التى كانت تقتسم أراضيها، وهي : روسيا، وألمانيا، والنمسا.

وكانت بولندا قد تعرضت لتقسيمات في أعوام ١٧٧٢، ١٧٩٣، ١٧٩٥م، ثم بعثت من جديد في أثناء الحروب النابوليونية تحت اسم

دوقية وارسو الكبرى ، ثم ألغاها مؤتمر ڤيينا عام ١٨١٥م، وقسم أراضيها بين روسيا وبروسيا والنمسا. ولما حدثت هذه المعجزة التى كان ينتظرها البولنديون، أصبحت دولتهم من أقوى الدول الأوروبية من حيث المساحة وعدد السكان الذين بلغوا ثلاثين مليون نسمة.

أما يوغوسلافيا، التى تكونت من دولة الصرب القديمة، والجبل الأسود، ودالماشيا، والبوسنة، وسلاڤونيا Slavonia، فكانت تضم عناصر ثلاثة، هى: الصرب فى الوسط، والكروات فى الجنوب، والسلوڤونيون فى الشمال، وكان سكانها كلهم تقريبا من اليوغوسلاف الذين تجرى فى عروقهم دماء شبيهة بالدم الصربى، ويتكلمون لغة شبيهة بلغة الصرب. فقد كان الكروات والصرب يتكلمون نفس اللغة، وكان أهالى سلاڤونيا ينطقونها بلهجة مختلفة.

وكانت هذه أول مرة فى التاريخ تظهر فيها مملكة تضم كل اليوغوسلافيين. ولذلك فإن إنشاء هذه الدولة كان عسيرا بسبب الاختلاف فى المذهب والثقافة والوعى السياسى. فقد كان الصرب يعتنقون المذهب الأرثوذكسى، وهم متأخرون فى ثقافتهم واقتصادياتهم، على حين كان الكروات والسلاڤونيون يعتنقون المذهب الكاثوليكى، وهم أكثر تقدما. أضف إلى ذلك وجود أكثر من مليون مسلم يسكنون إقليم البوسنة. ولذلك ظلت يوغوسلافيا تعانى من الخلافات والمنازعات الداخلية حتى نشوب الحرب العالمية الثانية، وتجددت هذه المنازعات بعد سقوط الإتحاد السوفيتى.

كذلك الحال بالنسبة لمملكة رومانيا الجديدة، التى تضاعفت مساحتها، كما تضاعف عدد سكانها بانضمام أكثر من ثمانية ملايين، نصفهم من الرومانيين ـ كما ذكرنا.

على أن المملكة الجديدة لم تكن مملكة مثالية، لأن الحزازات التاريخية كانت عنيفة، ولم تكن بوخارست فى موقع حسن يؤهلها لتكون العاصمة.

وتعتبر تشيكوسلوفاكيا Czechoslovakia الحالة الوحيدة التى شُكلت فيها عمداً ـ وفقا لقرارات مؤتمر الصلح ـ دولة على أساس تعدد القوميات.

فقد انضوى تحت لوائها أكثر من ستة ملايين من التشيك Czechs، وقرابة مليونين من السلوفاك Slovaks، وثلاثة ملايين ونصف من الألمان، ونحو مليون من المجريين Magyars، حتى إنها كانت تطبع عملتها النقدية بسبع لغات! وكانت الأقلية الألمانية التى تضمها تشيكوسلوفاكيا تتطلع إلى الانضمام إلى ألمانيا، ولكن الرئيس مازاريك Masaryk استطاع بحكمته أن يصون الوحدة القومية طوال عشرين عاماً، ويكّون من تشيكوسلوفاكيا دولة ليبرالية صناعية.

أما بالنسبة لفنلندا Finland وإستونيا Estonia ولاتفيا Latvia وليتوانيا Lithuania، فقد كانت هذه البلاد فى الماضى أرض المعارك بين السويد وروسيا وبولندا وألمانيا، ثم أصبحت ولايات تتبع روسيا، وقد اشتركت فى الحرب العالمية الأولى، ولعبت دورا

مهما. وبعد الحرب واتتها الفرصة، وحصلت على استقلالها، وبذلك حالت بين روسيا وبحر البلطيق.

ولقد كان سكان فنلندا واستونيا من أصل آسيوى، أما شعب لاتفيا فكان شعبا سلافيا، ولكن ليتوانيا لم تتوافر فيها وحدة الأصل.

مع ذلك، فعلى الرغم من محاولة مؤتمر الصلح إرضاء القوميات الأوروبية، وتأسيس دول جديدة تضم شتات الشعوب التى خضعت للامبراطوريات الكبيرة قرونا طويلة، فإن هذه الدول لم تسلم من الشوائب القومية، فلم تكن قوميات خالية من العناصر الغريبة.

فقد ضمت بولندا مليون ألمانى، وثلاثة ملايين من السكان السلاف فى روتينيا، وهى جزء من أوكرانيا. وضمت يوغوسلافيا أقليات ألمانية ومجرية وبلغارية. وضمت رومانيا أقليات مجرية فى ترانسلفانيا، وكذلك أقليات ألمانية. وفى المناطق التى ضمتها إيطاليا نجد فى استيريا سكانًا من السلوفينيين Slovinians. وفى القسم الشمالى من التيرول الجنوبى نجد أقليات ألمانية.

إلا أنه مع هذه العيوب، فإن تسويات الصلح قد استطاعت تحرير البولنديين من روسيا والنمسا والمجر، وحررت التشيكيين واليوغوسلافيين من النمسا والمجر، والألزاسيين واللورينيين والدنماركيين فى شمال شلزفيج، من ألمانيا ـ ولقد كان عدد الأقليات فى أوروبا فى عام ١٩١٤م يبلغ نحو ٦٠ مليون نسمة، يخضعون لدول أجنبية، وبعد الحرب هبط عدد الأقليات إلى ٣٠ مليون.

٦ ـ تغير أنظمة الحكم :

على كل حال، فكما شهد المسرح السياسى بعد الحرب ظهور الدول القومية الجديدة فى أوروبا، فقد شهر تغيرات كبيرة فى أنظمة الحكم فى أوروبا.

فقبيل الحرب كان النظام الملكى سائدا فى كل أوروبا، فيما عدا الجمهوريات الكبيرة فى فرنسا وسويسرا، ولكن بعد انتهاء الحرب أصبح فى أوروبا خمس عشرة جمهورية، هى: ألمانيا، وفرنسا، وسويسرا، والنمسا، وبولندا، وتشيكوسلوفاكينا ، وفنلندا، واستونيا، ولاتفيا، وليتوانيا، وتركيا، والاتحاد السوفيتى، وأسبانيا، والبرتغال وأيرلندا.

أما الملكيات فهى : بلغاريا، ورومانيا، وألبانيا، وإيطاليا، ويوغوسلافيا، واليونان، والمجر، وبريطانيا، وهولندا، والسويد، والنرويج. ومن جهة أخرى قد شهد المسرح السياسى بعد الحرب ظهور أيديولوجيات جديدة بظهور الفاشية فى إيطاليا والنازية فى ألمانيا والشيوعية فى الاتحاد السوفيتى.

٧ ـ تصدع النظام الاستعمارى :

(أ) عوامل تفسخ النظام الاستعمارى

على أن أهم ما شهده المسرح السياسى العالمى بعد الحرب، هو تصدع النظام الاستعمارى الأوروبى فى آسيا وأفريقيا والبلاد

العربية، وظهور حركات التحرر الوطنى فى هذه البلاد. وكان النظام الاستعمارى الأوروبى فى مستهل القرن العشرين قد بلغ درجة من القوة والاستقرار كان يلوح فيها أنه سيدوم إلى الابد، على أن هذا النظام لم يلبث أن أخذ يتلقى الضربات من الدول الاستعمارية الجديدة المنافسة، وهى ألمانيا واليابان والولايات المتحدة.

وبالنسبة لألمانيا واليابان فقد كانتا قبل الحرب ترغبان فى وضع أيديهما على مناطق جديدة من الأرض، فى حين كانت أمريكا، التى كانت تنكر كل مصلحة توسعية أرضية، تسعى للحصول على أعظم الغنم من الامتيازات (وخصوصا فى الصين). وقد انتهى التنافس الاستعمارى بالحرب العالمية الأولى، فكانت نتيجتها المباشرة حدوث صدع لاسبيل إلى رأبه فى تماسك الدول الغربية فى البلاد المستعمرة والتابعة فى تلك المناطق.

وبفضل هذا الصدع استطاعت اليابان، بتحالفها مع بريطانيا، طرد دولة أوروبية عظمى من الصين، هى ألمانيا، وإبعادها إبعادا نهائيا عن كل نفوذ فى الشئون الآسيوية. ومن المعروف أن دخولها الحرب إلى جانب الحلفاء كان بغرض بسط نفوذها على الصين.

كذلك استطاعت الصين، بتحريض بريطانيا وفرنسا، القضاء نهائيا على النفوذ الألمانى فى بلادها، وبذلك تأسست للصين، وغيرها من البلاد الواقعة تحت النفوذ الاستعمارى، سابقة لها قيمتها النضالية فى المستقبل للتخلص من الاستعمار.

وقد كانت لمساهمة الشعوب الآسيوية والعربية فى الحرب آثار بعيدة المدى. فقد أيقظت فى هذه الشعوب أملاً قويا فى الحصول على الاستقلال والحرية والتخلص من الظلم والاستبداد. ذلك أن دعوة هذه الشعوب للاشتراك فى الحرب للدفاع عن الديموقراطية، كانت تتضمن بالضرورة دعوة بمنح هذه الشعوب الديموقراطية.

وفى الوقت نفسه، فإن اشتراك الشعوب فى القتال جنبا إلى جنب مع الجنود الأوروبيين الاستعماريين، قد جعلهم يعودون إلى بلادهم بأفكار عن الديموقراطية والمبادئ الجمهورية لم يعتنقونها من قبل، كما كشفت هؤلاء الجنود أمام أعينهم فى صورة بعيدة عن الدعاية الرسمية التى تلقنوها على مدى أجيال متعاقبة.

ومن الناحية السياسية، حلّ بالنظام الاستعمارى للرأسمالية ضعف آخر، عندما أعلن الرئيس ولسن يوم ٨ يناير ١٩١٨م نقاطه الأربع عشرة Fourteen Points كأساس للسلام، فقد تضمنت هذه المبادئ نبذ الدبلوماسية السرية، وضرورة أن تكون المعاهدات علنية، وضمان حرية البحار فى السلم والحرب على السواء، وإزالة الحواجز الاقتصادية بين الشعوب، وخفض التسليح، وتسوية المشاكل الاقتصادية تسوية عادلة دون محاباة، والتعاون مع روسيا فى تنظيم سياستها القومية، وتقرير النظم التى ترغب هى ذاتها فيها، وتعديل الحدود الأوروبية بما يتفق مع مبدأ حق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها، وإنشاء عصبة أمم.

وقد كان لمبدأ حق تقرير المصير عند إعلانه دوى كأنما هبط من السماء، وقد هلل له الناس فى البلاد المستعمرة والتابعة بوصفه مبدأ للتحرر والخلاص. ولما كانت كل دولة من دول الحلفاء الاستعمارية قد أعلنت إيمانها ظاهريا بمبادئ ولسن، فلم يكن فى وسعها أن تعارض جهارا أمانى الشعوب المستعمرة المؤسسة على هذه المبادئ، وبذلك استدعى الموقف أن تقبل هذه الدول الاستعمارية مبدأ الحكم الذاتى للأقطار المستعمرة، ولم يعد فى وسعها تجاهل المطالبة به بحجة سبقه للأوان.

وبالاضافة إلى مبدأ تقرير المصير وتأثيره، فقد كان هناك تأثير عظيم آخر للثورة الروسية التى نشبت فى أكتوبر ١٩١٧م، والتى أعلنت أن الكفاح ضد السيطرة الاستعمارية إنما هو جزء من الكفاح ضد الرأسمالية. وبذلك أضافت معنى جديدا لكفاح الشعوب مرتبطا كل الارتباط بالأسباب الرئيسية للاستعمار.

وكانت دعوة روسيا إلى المساواة العنصرية، بل وممارستها لها، وإلغاؤها الامتيازات التى كانت القيصرية قد حصلت عليها فى إيران والصين، وتقبلها بالرضا استقلال الأقطار التى كانت تابعة من قبل لروسيا، مما جعل من العسير على الدول الاستعمارية التى طال ادعاؤها مناصرة الحرية والتقدم، أن تنكر على الشعوب المستعمرة مطالبها.

وبالإضافة إلى هذه العوامل، فإن بعض العوامل الاقتصادية التى أنتجتها الحرب قد عملت أيضا على تقويض سيادة

الرأسمالية الغربية، وبالتالى تدهور الاستعمار. فقد استخدمت اليابان ـ كما ذكرنا ـ فرصة السنوات الأربع للحرب لتنفيذ خطتها فى توسيع تجارتها فى الشرق، خاصة بعد أن أزيلت المنافسة الألمانية، وكانت إنجلترا وفرنسا توجهان كل مواردهما نحو إحراز النصر.

كما أن الحرب، بما ترتب عليها من انقطاع المنتجات الأوروبية، قد أفسح السبيل لرأس المال الوطنى داخل المستعمرات للنهوض، كما حدث فى مصر حيث انتعشت بعض الصناعات التى قوضتها البضائع الأجنبية قبل الحرب، مثل صناعات الدباغة والأدوات الجلدية والأثاث، وكثرت معاصر الزيوت ومطاحن الغلال وورش السبك والحدادة والصناعات الدقيقة.

كما حدث أيضا فى الهند، حيث زاد إسهام رأس المال الهندى فى ميادين كانت حتى ذلك الحين حكرا على البريطانين، مثل صناعة الجوت. وقد تبدت فى الهند هذه الآثار الاقتصادية بصفة خاصة، عندما انتهت الحرب، وأخذ رأس المال الأمريكى يتحدى رأس المال البريطانى، حتى اضطر الأخير إلى اتخاذ خطة الدفاع فى الهند.

وثم عامل آخر كان له أثر فى تصدع السيطرة الاستعمارية، وهو نمو حركة الأحزاب اليسارية فى أوروبا الغربية بعد الحرب، وانتهاجها سياسة معتدلة تجاه المطالب الوطنية فى البلاد الخاضعة لسيطرة نفوذ بلادها.

فقد كان حزب العمال البريطانى، فى أثناء فترة نموه، على اتصال وثيق بالحركة القومية فى الهند، بل إن رمزى مكدونالد Ramsay Mac Donald، زعيم الحزب الاشتراكى، كان من نصرائها الأوائل. وكذلك كانت سياسة هذا الحزب بالنسبة للحركة الوطنية فى مصر، حيث كانت له صلات بسعد زغلول.

كذلك عملت القومية فى فيتنام مع أحزاب اليسار فى فرنسا. وعلى الرغم من أن هذه الأحزاب اليسارية لم تذهب بعيدا فى تأييد الحركات الثورية، فإن سياساتها عادت بالتفكك على الروابط القديمة للسيطرة الاستعمارية.

وهكذا يمكن إجمال الأسباب فيما شهدته الفترة بعد الحربين العالميتين من تدهور نظام السيطرة الإمبراطورية وتصدع الاستعمار إلى الآتى:

(أولا) تفسخ النظام الاستعمارى بعد الحرب العظمى.

(ثانياً) ازدياد قوة القوى الوطنية فى ظروف الصراع العالمى الذى دعيت هذه القوى للاشتراك فيه.

(ثالثاً) دخول أمريكا المسرح السياسى بشعارات تقرير المصير.

(رابعاً) ثورة أكتوبر ١٩١٧ فى روسيا.

(خامسا) التناقضات داخل النظام الرأسمالى الاستعمارى نفسه.

وعلى هذا النحو، يمكن اعتبار الحرب العالمية الأولى، بذلك الحجم الواسع الهائل الذى دارت فى إطاره، بمثابة ثورة عالمية عظمى. كما يمكن القول إن هوة سحيقة لا سبيل إلى اجتيازها قد نشأت فى ذلك الحين، وفصلت مابين الأيام السابقة على أغسطس ١٩١٤م والأيام التالية لنوفمبر ١٩١٨م.

(ب) حركة التحرر الوطنى فى الهند :

على كل حال فقد تبدى أثر هذه العوامل جميعها فى قيام حركة التحرر الوطنى فى آسيا والبلاد العربية بعد الحرب.

وفيما يتصل بآسيا، فقد شملت حركة التحرر الوطنى الهند والصين .

أما الهند، فكانت قد نشأت فيها حركة قومية صغيرة فى أيام ١٨٨٦م، تطالب فى مقدمة مطالبها بالحكم الذاتى، ولكن هذه الحركة لم يكن لها أثر يذكر.

وعندما نشبت الحرب فى أغسطس ١٩١٤م، كانت الهند هادئة نسبيا، ولكن عندما تطورت الحرب، وأصبحت آثارها المحتملة أكثر وضوحا للعين، اشتد إلحاح الشعب الهندى فى المطالبة بالحكم الذاتى السريع.

وبلغ الأمر فى ذلك أن أصدرت الحكومة البريطانية فى ١٩١٧م تصريحا أعلنت فيه أسس السياسة المتعلقة بالهند، فوصفتها بأنها «التطور التدريجى لنظام الحكم الذاتى، الذى يرمى إلى إيجاد حكومة مسئولة بالهند تدريجيا، تكون جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية».

ثم قامت الحكومة البريطانية بضم وزيرين هنديين إلى عضوية وزارة الحرب فى لندن، ودعيت الهند لحضور جلسات المؤتمرات الإمبراطورية، التى كانت عضويتها حتى ذلك الحين قاصرة على أعضاء رابطة الدول البريطانية (الكومونولث Commonwealth) ممن يتمتعون بالحكم الذاتى.

وقد بلغ ارتفاع شأن الهند دوليا ما أتاح لها أن تطالب لنفسها بمقعد فى مؤتمر الصلح، وأن تجعل صوتها مسموعا بقدر مافى المسائل المتعلقة بمصالحها المباشرة.

ولكن هذه الاصلاحات لم تُرض الجماهير الهندية. ولما وضعت الحرب أوزارها سرت موجة من الاستياء بين المسلمين، لشروط الصلح التى فرضت على تركيا دولة الخلافة، حتى أعلنت الحكومة فى إقليم البنجاب Punjab الأحكام العرفية، واشتدت إجراءات القمع لإخماد ما اعتبر عصيانا وثورة. ولكن هذه الإجراءات لم تزد الشعب الهندى إلا غضبا، وحولت الهياج إلى حركة قومية عظمى.

وفى تلك الأثناء، وفى الوقت الذى كان الشعب الهندى يحس بالمذلة والغضب للمذابح التى جرت، تولى المهاتما غاندى قيادة الحركة الوطنية ، وبدأ حركة عدم التعاون التى دعا اليها.

وكانت فكرة المهاتما غاندى Gandhi فكرة بسيطة، فقد رأى أنه لما كان سلطان البريطانيين بالهند يقوم على تعاون جميع أهلها بمختلف طبقاتهم، فإن سحب ذلك التعاون لابد أن يفضى بالضرورة إلى انهيار تلك الحكومة.

وقد استغل غاندى الاضطراب الخطير الذى كان يجتاح الرأى العام الإسلامى فى ذلك الحين، لما بدا من جانب الحكومة البريطانية من اتجاه إلى تقسيم الأراضى الأصلية للدولة العثمانية بين الحلفاء الغربيين، والاضطرابات التى حدثت ابتغاء إعادة الخلافة إلى نصابها - فاعتبر هذه الحركة التى تناصرها العناصر المسلمة فى الهند، جزءا من الحركة القومية، وأخذ يعمل على تحقيق اتحاد الأديان والعروق، واتحاد المسلمين والهندوس بغية الوصول إلى وضع سياسى جديد.

ولكن الحركة الوطنية فى الهند لم تحقق نصرها النهائى إلا فى ١٩٤٧م، يوم غادرت بريطانيا الهند، ولكن بعد أن انفصلت عنها المناطق التى تسكنها غالبية إسلامية لتكون دولة الباكستان الجديدة. وقد توقفت سلطات الحكومة البريطانية بالهند يوم ١٥ أغسطس ١٩٤٧م، يوم نزل ملك إنجلترا عن لقب إمبراطور الهند.

(جـ) تخلص الصين من السيطرة الاستعمارية :

أما فى الصين فإن السيطرة الاستعمارية عليها فى ذلك الحين كانت تتمثل فيما عرف باسم «المعاهدات غير المتكافئة»، التى فرضتها عليها الدول الاستعمارية، وبمقتضاها لم يكن يحق للصين أن تفرض رسوما جمركية على البضائع الأوروبية تزيد على ٥٪، كما كان للدول الاستعمارية فى الصين امتيازات Concessions تتمثل فى امتيازات قضائية، ومناطق امتياز يديرها رعايا هذه الدول بأنفسهم، ويقومون بإجراءات الأمن فيها.

وقد رأينا كيف هيأت الحرب العظمى الفرصة للصين للقضاء نهائيا على النفوذ الألمانى فيها، وسحب كل ما منحته للألمان من أرض وامتيازات قضائية، ولكن فى الوقت نفسه كانت اليابان قد تمكنت من النزول على الأرض الصينية لطرد الألمان بمساعدة البريطانيين، واستولت على كياوتشاو الألمانية.

وبعد امتلاك المنطقة الألمانية، وجهت السياسة اليابانية التفاتها نحو الصين نفسها، فطلبت الاحتفاظ بمناطق معينة مثل «شانتونج» و «فوكين» (الواقعة قبالة فورموزا Formosa) كمناطق نفوذ يابانى، ووضع منشوريا ومنغوليا الشرقية الداخلية تحت حماية اليابان.

ولم تملك حكومة الصين، بعد تأييد بريطانيا والولايات المتحدة لهذه المطالب، إلا الموافقة على توقيع معاهدتين وثلاث عشرة مذكرة متبادلة، كان من شأنها أن تنزل بالصين إلى منزلة المحمية اليابانية.

ولكن لما كان الدستور الصينى ينص على ضرورة تصديق البرلمان على المعاهدة، فقد أجمعت الصين بجميع هيئاتها على اعتبار هذه المعاهدة باطلة، وغير ملزمة للحكومة الصينية.

وفى ١٤ أغسطس ١٩١٧م انضمت الصين إلى الحلفاء، فصار لها وضع خاص فى مؤتمر الصلح، حيث طالبت باسترداد استقلالها التام، وإلغاء المعاهدات غير المتكافئة. ولكن مؤتمر الصلح قرر أن ينقل إلى اليابان جميع حقوق ألمانيا بشبه جزيرة شان تونج Shantung، وعندئذ رفض مندوبو الصين توقيع معاهدة فرساى.

ولم تلبث معاهدة فرساى أن أثارت اضطرابا عاما فى الشعب الصينى لم يسبق له مثيل، وبدأت الحركة على يد طلبة بكين، الذين قاموا يوم ٤ مايو ١٩١٩م بمظاهرة عظمى، وحاصروا منزل وزير صينى يميل إلى اليابان، وانقضى أكثر من أسبوع والعاصمة فى حالة من الهياج العنيف، ولقيت الحركة عطفا متزايدا من الشعب الصينى، وتعالت فى البلاد جميعها صيحة تنادى بمقاطعة البضائع اليابانية.

وفى تلك الأثناء عقد مؤتمر واشنطون لتحديد السلاح البحرى بالمحيط الهادى، وأمكن للصين، بمساعدة الولايات المتحدة التى كانت تخشى التوسع اليابانى، عقد تسوية ردت بمقتضاها إلى الصين الأراضى التى كانت ممنوحة لليابان، مقابل تعويض محدد.

وفى ١٧ ديسمبر ١٩٢٢م غادر جنود اليابان «شانتونج»، فكان أول تقهقر أصيب به العدوان اليابانى.

كذلك طالبت الصين فى المؤتمر باعادة سيادة الصين غير منقوصة فيما يختص بسلطتها القضائية، واستقلالها فى تعريفتها الجمركية، وإلغاء كل امتياز تدعيه الدول لنفسها.

وقد أمكن للصين إحداث ثغرة فى جبهة الدول الغربية الاستعمارية حين وقعت مع ألمانيا فى عام ١٩٢١م معاهدة، تخلت بمقتضاها الأخيرة للصين عن معاهداتها الجائرة.

وفى عام ١٩٢٤م تخلت الحكومة الروسية للصين عن مناطق الامتياز، وتنازلت عن الامتيازات الأجنبية القضائية.

وفى عام ١٩٢٥م تجلت قوة الحركة الوطنية فى الصين حين أطلق البوليس فى منطقة الامتياز بشنغهاى Shanghai النار على بعض الطلبة المتظاهرين يوم ٣٠ مايو ١٩٢٥م، وانتقل الاضطراب إلى مدن الموانى الأخرى، وخاصة إلى «كانتون» Canton حيث أطلق الجند البريطانيون النار على المتظاهرين الصينيين، فانتقم الصينيون لأنفسهم بضربهم حصارا على هونج كونج Hong Kong، ومقاطتهم البضائع البريطانية مدة تزيد على سنة كاملة.

وفى ٢٨ ديسمبر ١٩٢٩م أصدرت الحكومة الصينية أمرا يقضى بتطبيق قوانينها على جميع رعايا الأمم الأجنبية المقيمين بأرض الصين، ابتداء من ١٩٣٠م.

وفى أثناء هذه المدة، تمكنت الحكومة الصينية من استرداد مناطق الامتياز للدول الأجنبية، فيما عدا مناطق الامتياز الدولية بشنغهاى وتيان تسن Tientsin، والحكم الخاص المقام فى منطقة السفارات بيكين Peking. فى ١٩٣١م ، فحصلت بذلك على انسحاب السلطات الغربية من أرضها القارية.

ولكن تدخل اليابان فى منشوريا سنة ١٩٣١م، دفع تشيانج كاى شيك Chiang Kai - Shek إلى التماس العون من دول أوروبا، ومن ثم فقد اضطر إلى ابداء سياسة اللين إزاء بقية المسائل الوطنية الأخرى (استخدام السفن الأجنبية للطرق المائية الصينية، بما فى ذلك مرور السفن الحربية بنهر اليانجتسى Yangtze، ومناطق الامتياز الدولية والوطنية، وإلغاء الامتيازات القضائية إلغاء تاما).

(د) ثورة إندونيسيا والهند الصينية :

وفى الوقت الذى كان المد الاستعمارى ينحسر فى الهند والصين، كانت السلطات الاستعمارية الهولندية فى اندونيسيا، والفرنسية فى الهند الصينية، تدرك أن التوسع الامبراطورى فى تراجع ونكوص، وكان تاريخ تلك الفترة، على نحو ما حدث فى الهند والصين، حافلا بالثورات القومية العظيمة المدى، والقمع الوحشى الذى تبديه الحكومات الاستعمارية، والمحاولات غير

المخلصة لايجاد حل وسط بين آمال الوطنيين والمصالح الاستعمارية.

وقد استمر ذلك حتى قيام الحرب العالمية الثانية، وتدخل قوة اليابان العسكرية التى أظهرت مدى ضعف الحكم الاستعمارى، وإفلاس النظم السياسية للمستعمرين. ولم تعمل الحرب الثانية إلا أن وجهت الضربة القاضية إلى نظام كان قد تحطم آنفا، ولم يعد يقوم بعمله بصورة قوية الأثر.

(هـ) ثورة العالم العربى :

أما فى المشرق العربى، حيث تم اقتسام البلدان العربية بين انجلترا وفرنسا، فيما عدا الحجاز، وصدر وعد بلفور بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، فقد انتشرت فيه الحركات الوطنية.

فقامت الثورة فى مصر على الاحتلال البريطانى فى عام ١٩١٩م، واستمرت الاضطرابات فيها حتى عقد معاهدة ١٩٣٦م. كما تتابعت الثورات فى سوريا، فقامت ثورة ابرهيم هنانو التى دامت حتى يولية ١٩٢١م، وثورة الشيخ صالح العلى التى دامت حتى يولية من نفس السنة. والثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥م. كما قامت الثورة فى العراق على الإنجليز فى ربيع عام ١٩٢٠م، واستمرت خمسة أشهر حتى نوفمبر ١٩٢٠م.

وفى فلسطين وقعت الاضطرابات منذ عام ١٩٢٠م، كما قامت فتنة دامية فى يافا فى مارس ١٩٢٤م. وفى أغسطس ١٩٢٩م وقعت اضطرابات حائط المبكى، وفى منتصف أبريل ١٩٣٦م وقعت الثورة الكبرى التى استمرت إلى عام ١٩٣٩م.

أما فى المغرب العربى، فقد قامت الحركة الوطنية فى تونس، كما قامت فى مراكش، واستطاع الأمير عبد الكريم الخطابى هزيمة القوات الاسبانية فيها، وإجلائها عن منطقة الريف، وتنظيم جمهورية رئاسية بلغت ذروة قوتها سنة ١٩٢٥م، حتى لقد طلب إلى بريطانيا وفرنسا واليابان الاعتراف به، واستطاع بكفاءة الصمود فى وجه كل من فرنسا واسبانيا سنة كاملة (مايو ١٩٢٥ إلى مايو ١٩٢٦م) مما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الحروب ضد الاستعمار.

مراجع للاستزادة

(أولا) المراجع العربية والمترجمة

السيد رجب حراز، الدكتور: عصر النهضة (القاهرة١٩٧٤م).

بالمر، روبرت: تاريخ العالم الحديث، جزءان، ترجمة محمود حسن الأمين (الموصل ١٩٦٤م).

بانيكار، ك. م: آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد (دار المعارف ١٩٦٢م).

برنو، ريجـين: البورجوازية فى شتى مراحلها، ترجمة أنعام الجندى (بيروت).

بولز، تشستر : قضية السلام، ترجمة جورج عزيز (دار المعارف ١٩٥٧م).

بونوماريوف : موجز تاريخ الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى (موسكو ١٩٧٠م).

بين، تشستر: الشرق الأقصى، ترجمة حسين الحوت (سلسلة الألف كتاب ٥٩).

جرانت وتمبرلى: أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، جزءان، الأول ترجمة بهاء فهمى، والثانى ترجمة محمد على أبو درة ولويس إسكندر (القاهرة ١٩٦٧م).

جمال حمدان، الدكتور: استراتيجية الاستعمار والتحرير (كتاب الهلال).

جوكوف وآخرون: العالم الثالث (موسكو ١٩٧١م).

رينوفان، بيير: تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ - ١٩١٤م، ترجمة دكتور جلال يحيى (دار المعارف).

زاهر رياض، الدكتور: استعمار القارة الأفريقية واستقلالها (دار المعرفة ١٩٦٦م).

ستيفه، فردريك : حقيقة الحرب العظمى، ترجمة محمود إبراهيم الدسوقى.

صلاح العقاد، الدكتور: الحرب العالمية الثانية (مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣م).

عبدالحميد البطريق، الدكتور: التيارات السياسية المعاصرة ١٨١٥ - ١٩٦٠ (القاهرة ١٩٨٠م).

عبدالكريم أحمد، الدكتور: القومية والمذاهب السياسية (القاهرة).

فرحات زيادة وإبراهيم فريجى: تاريخ الشعب الأمريكى (مطبعة جامعة برنستون ١٩٤٦م).

فيشر، هربرت: أصول التاريخ الأوروبى الحديث، ترجمة: الدكتورة زينت عصمت راشد، والدكتور عبد الرحيم مصطفى (دار المعارف ١٩٦٢م).

فيشر، هربرت : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ترجمة أحمد نجيب هاشم، ووديع الضبع (دار المعارف ١٩٤٦م).

كـــار، أ. هـ. : ثورة البلاشفة، جزءان، ترجمة عبدالكريم أحمد (القاهرة ١٩٧٠م).

كسنجر، هنرى: مفهوم السياسة الخارجية الأمريكية، إعداد د. حسين شريف (القاهرة ١٩٧٤م).

كينان، جورج : روسيا تتخلى عن الحرب، ترجمة عادل شفيق (القاهرة ١٩٦٦م).

كنج، بولتن : الوحدة الإيطالية، ترجمة طه الهاشمى (القاهرة).

كـــول، ج.هـ. : تاريخ الفكر الاشتراكى، الجزء الأول من المجلد الرابع، ترجمة عبدالكريم أحمد (القاهرة).

كـــول، ج. هـ : الاشتراكية والفاشية، ترجمة عبدالحميد الإسلامبولى.

لودفيج، اميل : نابليون، ترجمة محمود إبراهيم الدسوقى (القاهرة ١٩٤٦م).

لودندورف : مذكرات لودندورف (جزءان).

لينين : مذكرات لينين عن الحروب الأوروبية، ماضيها وحاضرها، ترجمة أحمد رفعت.

لينين : موجز حياته (موسكو ١٩٦٩م).

محمد أنيس، الدكتور، والسيد رجب حراز، الدكتور: مدخل تاريخ الأمريكتين (دار النهضة العربية ١٩٦٤م).

محمد فؤاد شكرى، الدكتور : ومحمد أنيس، الدكتور، أوروبا فى العصور الحديثة، الجزء الأول (الأنجلو ١٩٦١م).

محمد فؤاد شكرى، الدكتور: الصراع بين البورجوازية والاقطاع ١٧٨٦ - ١٨٤٨) جزءان (دار الفكر العربى - ١٩٥٨م).

محمد فؤاد شكرى، الدكتور: ألمانيا النازية (دار الفكر العربى ١٩٤٨م).

نور الدين حاطوم، الدكتور: حركة القومية الألمانية (القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٠م).

نيفينز، آلان وكوميجر، هنرى ستيل: تاريخ الولايات المتحدة، ترجمة مصطفى كمال (مكتبة مصر).

هامبسون، نورمان : التاريخ الاجتماعى للثورة الفرنسية، ترجمة فؤاد أندراوس (دار الكاتب العربى).

هاو ، سونيا : فى طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت (القاهرة، سلسلة الألف كتاب).

هربرت، كريستوفر : بنيتو موسولينى، تعريب خيرى حماد (دار المعارف ١٩٦٥م).

هوبسون، ج. أ : الامبريالية، ترجمة عبد الكريم أحمد (القاهرة).

وزارة الحربية المصرية : الحرب الباردة وأصولها ١٩١٧ - ١٩٦٠م (٥ أجزاء) ترجمته شعبة البحوث العسكرية ١٩٦٤ - ١٩٦٨م.

يبيبافانوف، وفيدوسوف: تاريخ الاتحاد السوفيتى - ترجمة خيرى الضامن ونقولا طويل (موسكو).

يونان لبيب، الدكتور، ورءوف عباس، الدكتور، وعبدالعظيم رمضان، الدكتور: أوروبا فى عصر الرأسمالية (دار الثقافة العربية ١٩٩٠م).

يونان لبيب، الدكتور، ورؤف عباس، الدكتور، وعبد العظيم رمضان، الدكتور : أوروبا فى عصر الإمبريالية (دار الثقافة العربية ١٩٨٦م).

مجلة السياسة الدولية (١٩٦٤ - ١٩٨٥م).

Curtin, P.,D., Imperialism., U.S.A. 1971.

Davenport, Marcia, Garibaldi Father of Modern Italy, New York 1957.

Deutscher, Isaac, The Great Contest, Russa and the West, U.S.A. 1961.

Dolbeare, Kenneth and Edelman, Marray, American Palitics, U.S.A. 1974.

Duroselles, J.B., Histoire Diplomatique de 1919 á nos jours, Paris, 1953.

Faulkner, H.U., American Political and Social History; New York 1944.

Fisher, H.A.L., History of Europe, London 1942.

Fulbright, J.W., The Pentagon Propaganda Machine, New York 1970.

Garthoff, Raymond L., Soviet Strategy in the Nuclear Age, New York 1962.

Grant, A. J. and Temperley, Harold, Europe in the Nineteenth and Twentieth Centuries (1789 - 1950), London 1953.

Hopkins, Harry, The White House Papers of Harry Hopkins, London 1949.

Howe, E., Sonia, In Quest of Spices, London 1946.

(ثانيا) المراجع الأجنبية

Adams, Sherman, First Hand Report, the Story of Eisenhower Administration, New York 1961.

Anderson, M.S., Europe in the Eighteenth Century, London 1961.

Andrews, G. M., The Colonial Period of American History, New Haven 1934.

Beloff, M., Europe and the Europeans, London 1957.

Burckhardt, Jacob, The Civilization of the Renaissance in Italy, U.S,A. 1970.

Carr, E. H. International Relations Since the Peace Treaties, 1940.

Carter, Herz and Ranney, Major Foreign Powers, U.S.A. 1957.

Churchill, Winston, The Second World War, (6 vols), U.S.A. 1948 - 1953.

Ciano, Ciano's Diaries, London 1947.

Club, Oliver E., The United States and the Sino - Soviet Bloc in Southeast Asia, Washington 1962.

Coombs, Philip, The Fourth Dimension of Foreign Policy, U.S.A. 1964.

Samsonov, A., a Short History of the USSR, 2 vols. Moscow 1965.

Schmidt, Helmut, Defence or Retaliation, Hamburg 1961.

Shirer, William, The Rise and Fall of the Third Reich, London 1962.

Smirnov S.R., A History of Africa 1918 - 1967, Translated from the Russian by Lempert L.O., Moscow 1968.

Spanier, John W., American Foreign Policy Since World War II, New York 1960. 1962.

Taylor, A.J.P., The Origins of the Second World War.

Taylor, Maxwell, The Uncertain Trumpt, New York 1959.

Tomson, David, World History 1914 - 1968, Oxford 1969.

Truman, Harry, 1945, Years of Decisions, Memoirs by Harry S. Truman, 2 vols., U.S.A. 1965.

Vermeil, Edmond, Germany's Reichs, translated by E.W. Dickes, London 1944.

Wilmot, Chester, The Struggle For Europe, London 1952.

Hughes, E.J., America The Vinciple, Penguin 1959.

Kennan, George F., American Diplomacy, 1900 - 1950, Chicago 1951.

Kennedy, John, To Turn The Tide, U.S.A. 1962.

Kirk, The Middle East in the War, London 1950.

Kissinger, Henry, White House Years, U.S.A. 1979.

Langer, William L., An Encyclopedia of world History, U.S.A. 1948.

Link, Arthur S., American Epoch, New York 1961.

Lippmann, Walter, The Cold War, New York 1947.

Mallin, Jay, Caribbean Crisis. U.S.A. 1965.

Mollenhoff, Clark R., The Pentagon, New York 1972.

Mosely, Philip, The Kremlin and World Politics, New York 1960.

Perkins, Dexter, The American Approach to Foreign Policy, Harvard 1952.

Roberts, P.E., History of British India, Oxford 1952.

Robertson, Charles, International Politics since World War II, U.S.A. 1966.

Rothstein, Andrew, Peaceful Coexistence, Penguin 1955.

الكشافات

أولاً : الأعـــلام .

ثانياً: الأماكن والبلاد .

ثالثاً: الهيئات والمجتمعات .

رابعاً: الأحداث التاريخية .

خامساً: الدوريات.

★ قام بإعداد هذه الكشافات:

د. يواقيم رزق

أولاً: كشاف الأعلام

ثانيا : البلاد والأماكن

ثالثا : الهيئات والتجمعات

— هـ —

رابعا : الأحداث التاريخية

خامسا : الدوريات

من أهم الأعمال العلمية المنشورة للمؤلف

١ – تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩١٨ – ١٩٣٦) (القاهرة: دار الكاتب العربى ١٩٦٨) .

٢ – تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩٣٧ – ١٩٤٨) – مجلدات (بيروت : دار الوطن العربى ١٩٧٣) .

٣ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى مصر من ثورة يوليو إلى أزمة مارس ١٩٥٤ . (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٧٥) .

٤ – عبد الناصر وأزمة مارس . (القاهرة : دار روز اليوسف ١٩٧٦) .

٥ – الجيش المصرى فى السياسة (١٨٨٢ – ١٩٣٦) (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧) .

٦ – صراع الطبقات فى مصر (١٨٣٧ – ١٩٥٢) . (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٨) .

٧ – الصراع بين الوفد والعرش (١٩٣٦ – ١٩٣٩) . (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩) .

٨ – الفكر الثورى فى مصر ، قبل ثورة ٢٣ يوليو . (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٨١) .

٩ – المواجهة المصرية الاسرائيلية فى البحر الأحمر (١٩٤٩ – ١٩٧٩) :

الطبعة الأولى (القاهرة : دار روز اليوسف ١٩٨٢) .

الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦).

١٠ – الاخوان المسلمون والتنظيم السرى . (القاهرة : دار روز اليوسف يناير ١٩٨٣) .

١١ – الصراع بين العرب وأوروبا ، من ظهور الاسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية . (القاهرة : دار المعارف ١٩٨٣) .

١٢ – حرب أكتوبر فى محكمة التاريخ . (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٤).

١٣ – مذكرات السياسيين ، الزعماء فى مصر . (القاهرة : دار الوطن العربى ١٩٨٤) .

١٤ – تحطيم الآلهة ، حرب يونيو ١٩٦٧ . (جزءان) (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٤) .

١٥ – الغزوة الاستعمارية للعالم العربى ؛ وحركات المقاومة . (القاهرة : دار المعارف) .

١٦ – مصر فى عصر السادات (الجزء الأول) (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٦) .

١٧ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الأول (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧) . .

١٨ – مصطفى كامل فى محكمة التاريخ:

الطبعة الأولى (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١ سنة ١٩٨٧) .

الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين سنة ١٩٩٤).

١٩ – أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان :

الطبعة الأولى (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٣ سنة ١٩٨٨) .

الطبعة الثانية (القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٦).

٢٠ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الثانى . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨) .

٢١ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الثالث . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩) .

٢٢ – مصر فى عصر السادات ، الجزء الثانى . (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٩) .

٢٣ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الرابع . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠) .

٢٤ – الاجتياح العراقى للكويت فى الميزان التاريخى (القاهرة: الزهراء – ١٩٩٠) .

٢٥ – حرب الخليج فى محكمة التاريخ . (القاهرة : الزهراء– ١٩٩٠) .

٢٦ – العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ – ١٩٧٩) (القاهرة : سلسلة تاريخ المصريين ٤٩ سنة ١٩٩١) .

٢٧ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الخامس . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢) .

٢٨ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣) .

٢٩ – تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣، سلسلة تاريخ المصريين عدد ٦١).

٣٠ – تاريخ مصر والمزورون . (القاهرة : الزهراء – ١٩٩٣) .

٣١ – أوهام هيكل وحقائق حرب الخليج. (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣).

٣٢ – قصة بناء المواطنة الخليجية. (القاهرة : مركز المنار للنشر والدراسات الاعلامية ١٩٩٣).

٣٣ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الثانى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣).

٣٤ – الإخوان المسلمون والتنظيم السرى، الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣).

٣٥ – مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء السادس (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣).

٣٦ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الثالث (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤)

٣٧ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الرابع، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤).

٣٨ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الخامس، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٣٩ – جماعات التكفير فى مصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٠ – مصر قبل عبدالناصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤١ – أوراق فى تاريخ مصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٢ – هيكل والكهف الناصرى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٣ – مصر فى عصر مبارك «الجزء السادس» (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٤ – مصر فى عصر مبارك «الجزء السابع» (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٥ – رحلات مؤرخ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦).

٤٦ – مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء السابع (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦).

٤٧ – تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة «الجزء الأول» من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الثورة الفرنسية [القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦].

٤٨ – تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة «الجزء الثانى» من تسوية مؤتمر ڤيينا إلى تسوية مؤتمر ڤرساى [القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦].

٤٩ – تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة «الجزء الثالث» من من قيام النازية فى ألمانيا إلى الحرب الباردة [القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦].

مع آخرين :

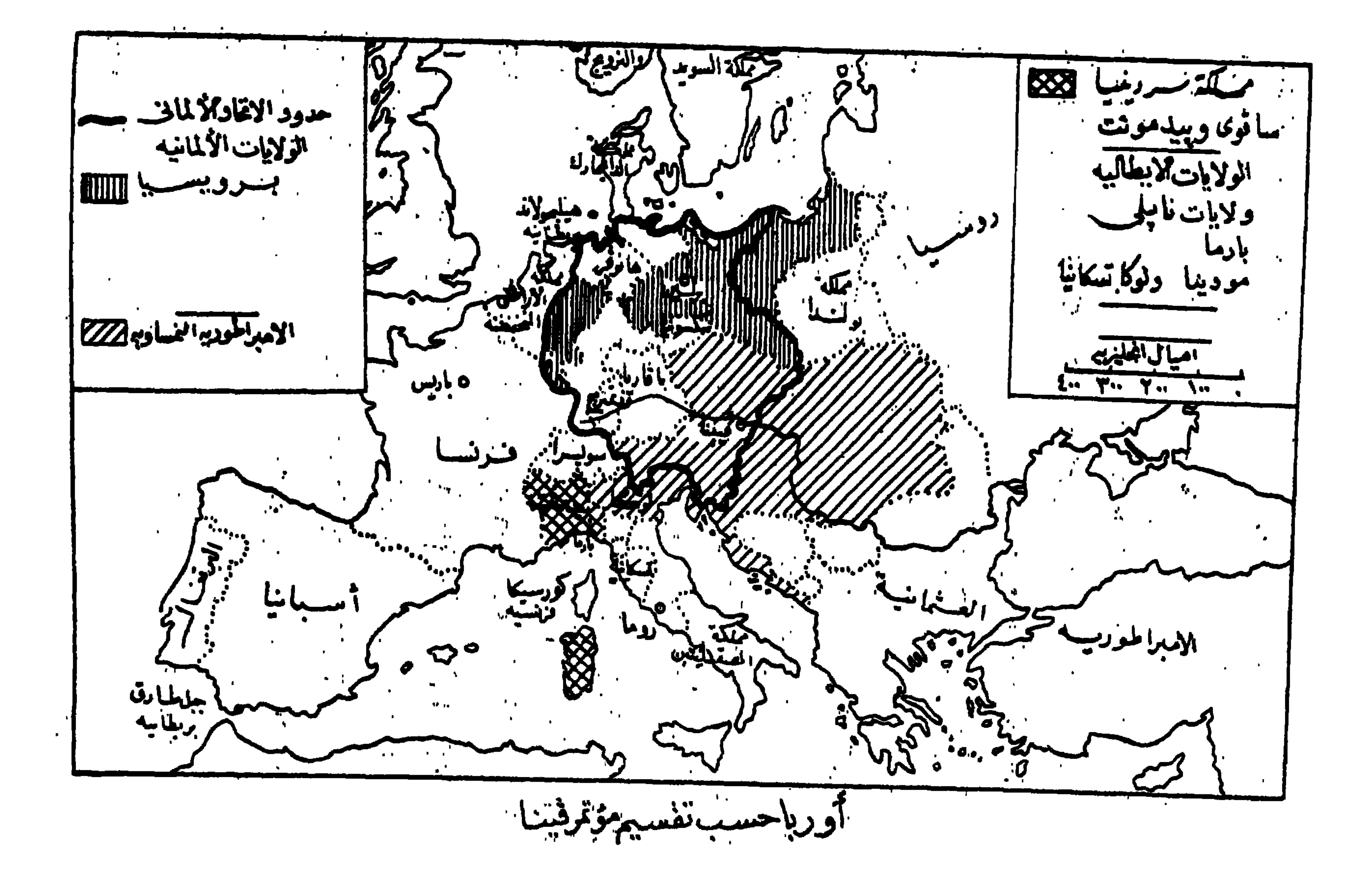
١ - مصر والحرب العالمية الثانية ، مع الدكتور جمال الدين المسدى والدكتور يونان لبيب رزق (القاهرة : مؤسسة الأهرام ١٩٧٨) .

٢ - تاريخ أوروبا فى عصر الرأسمالية ، مع الدكتور يونان لبيب رزق ود . رءوف عباس . (القاهرة : دار الثقافة العربية ١٩٨٢) .

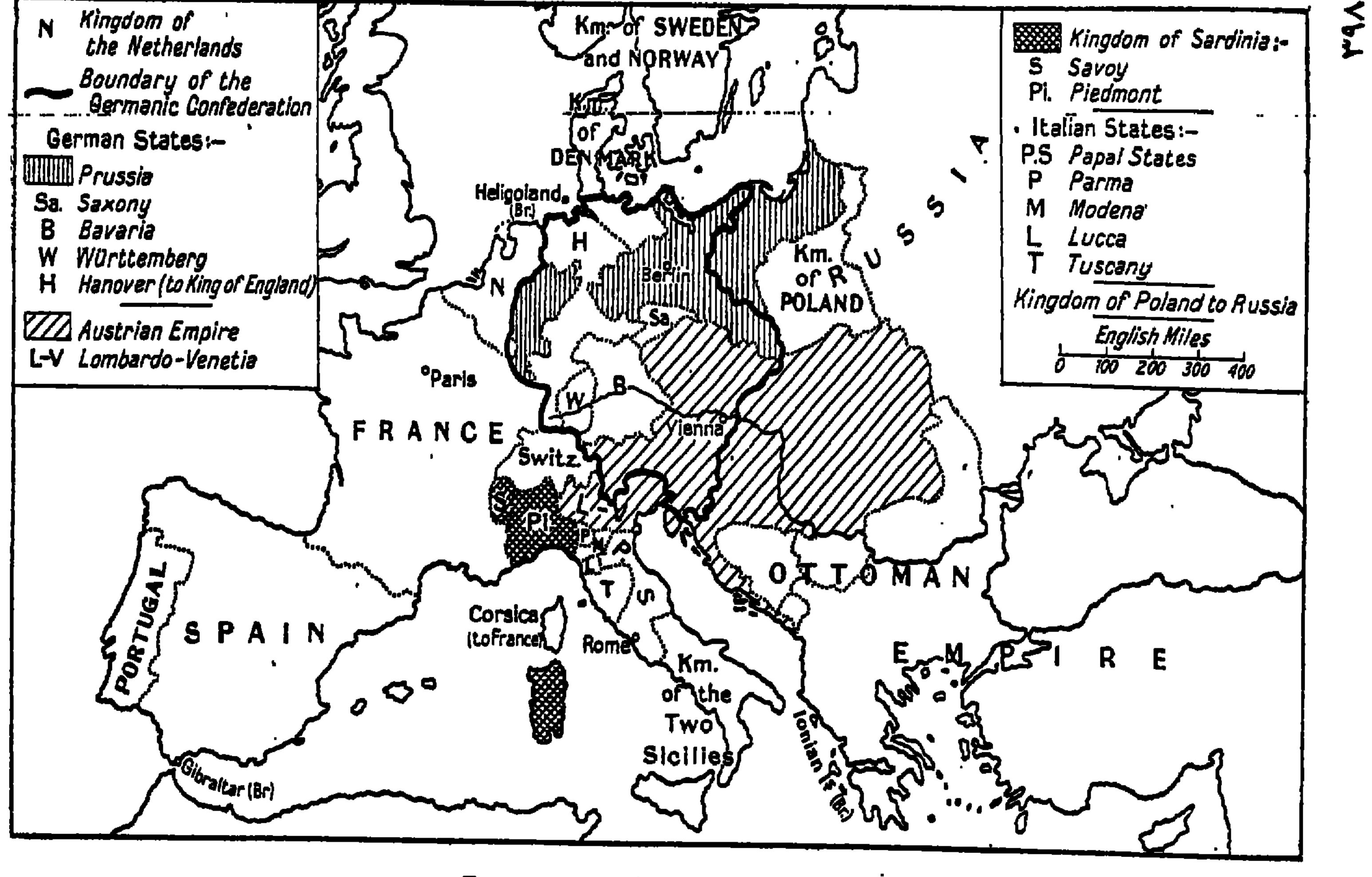
٣ - تاريخ أوروبا في عصر الامبريالية ، مع الدكتور يونان لبيب رزق ود.رءوف عباس . (القاهرة : دار الثقافة العربية ١٩٨٢).

كتب مترجمة :

١ - تاريخ النهب الاستعمارى لمصر ، (١٧٩٨ - ١٨٨٢) تأليف جون مارلو . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦)



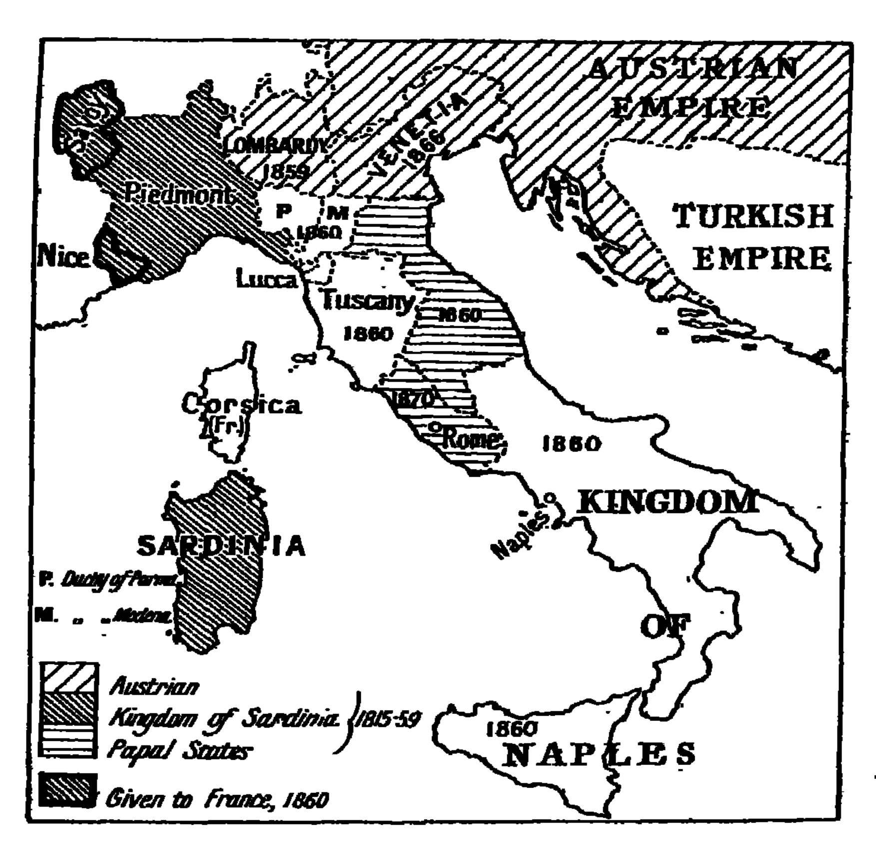
أوربا حسب تقسيم مؤتمر فينا



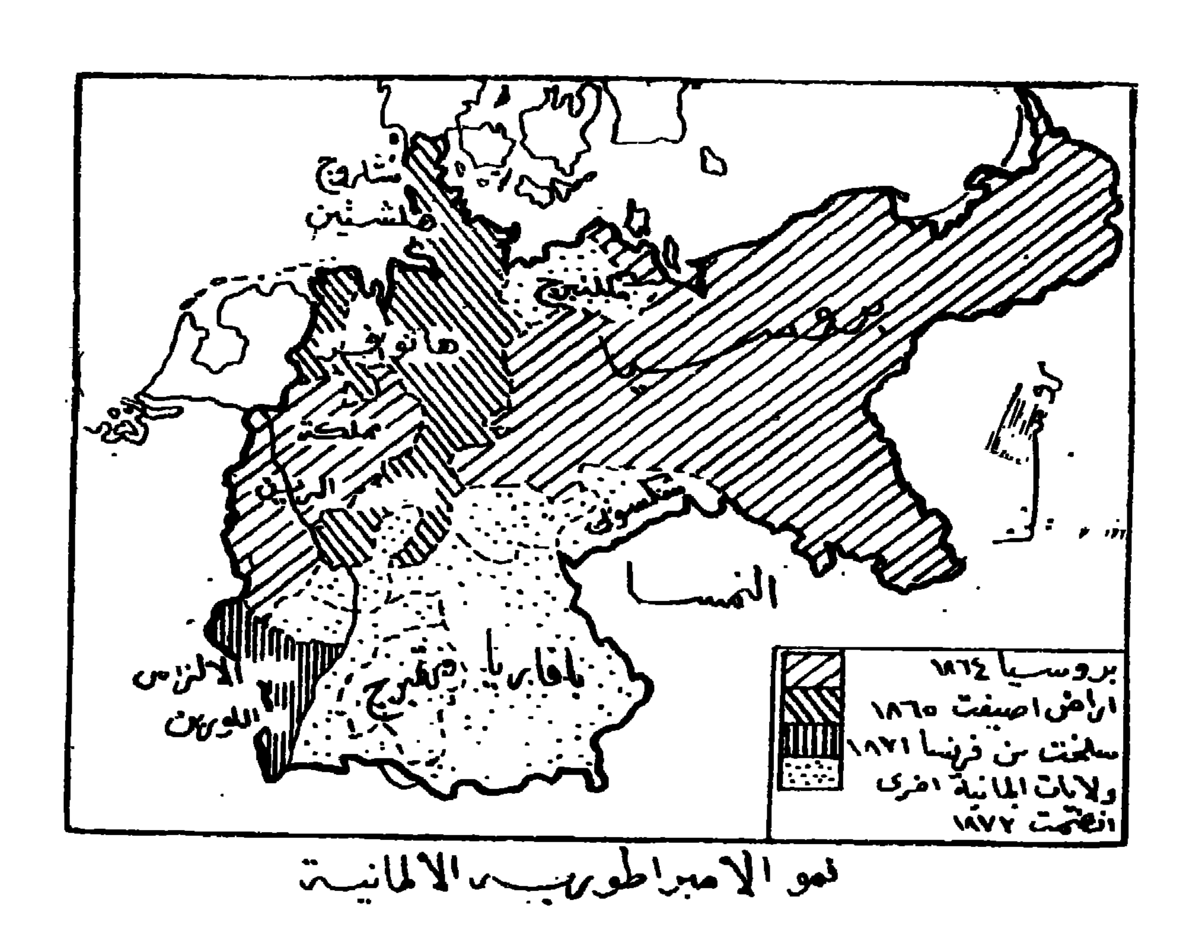
Europe at the Congress of Vienna, 1815.


الامبراطورية النمساوية
الامبراطورية التركية
بيدمونت
نيس
تسكانيا
١٨٦٠
روما
كورسيكا
سردينيا
اراض نمساوية
مملكة سردينيا ١٨١٥-٥٩
الولايات البابوية
اراض اخذتها فرنسا ١٨٦٠

نمو ايطاليا



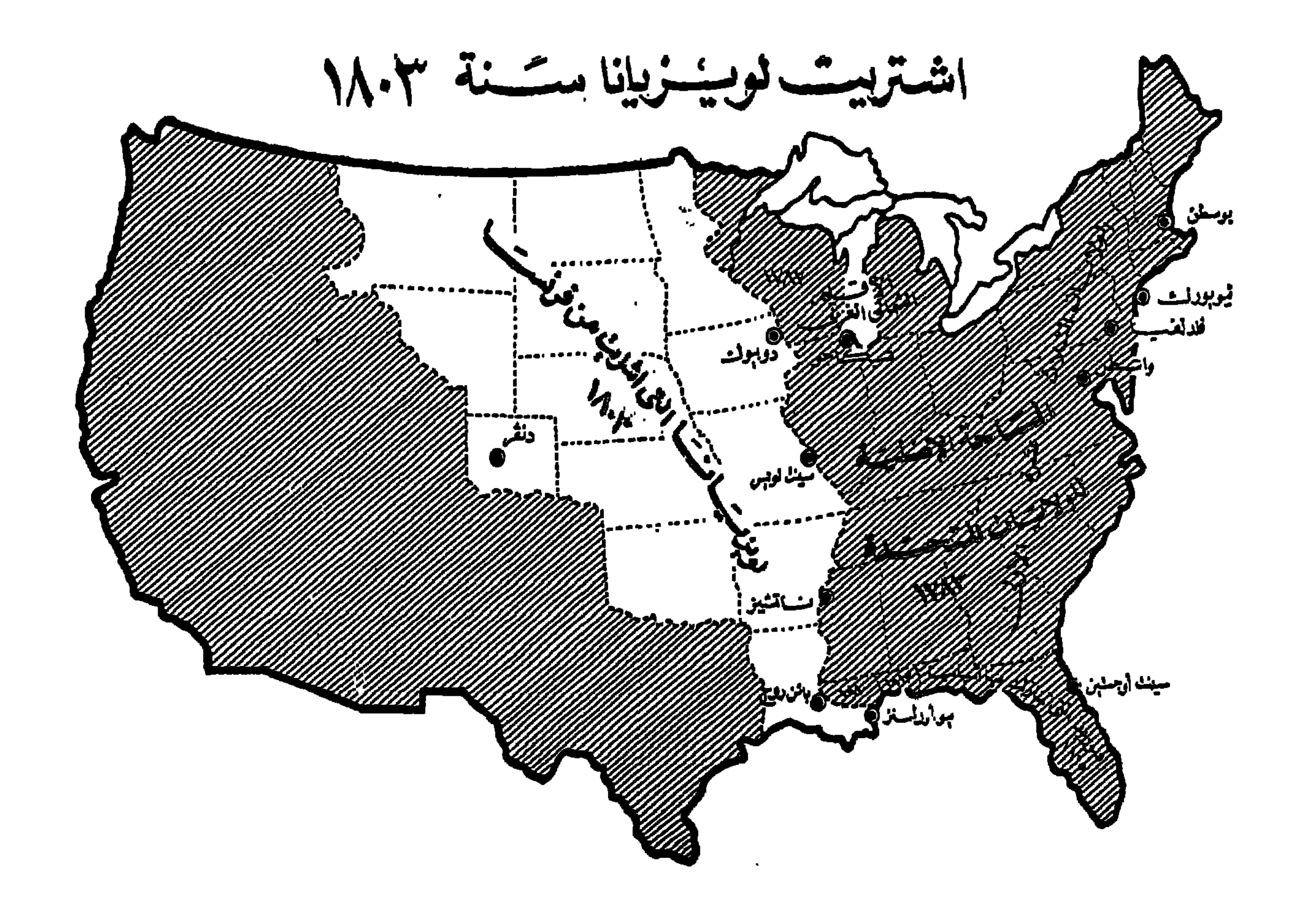
THE GROWTH OF ITALY.



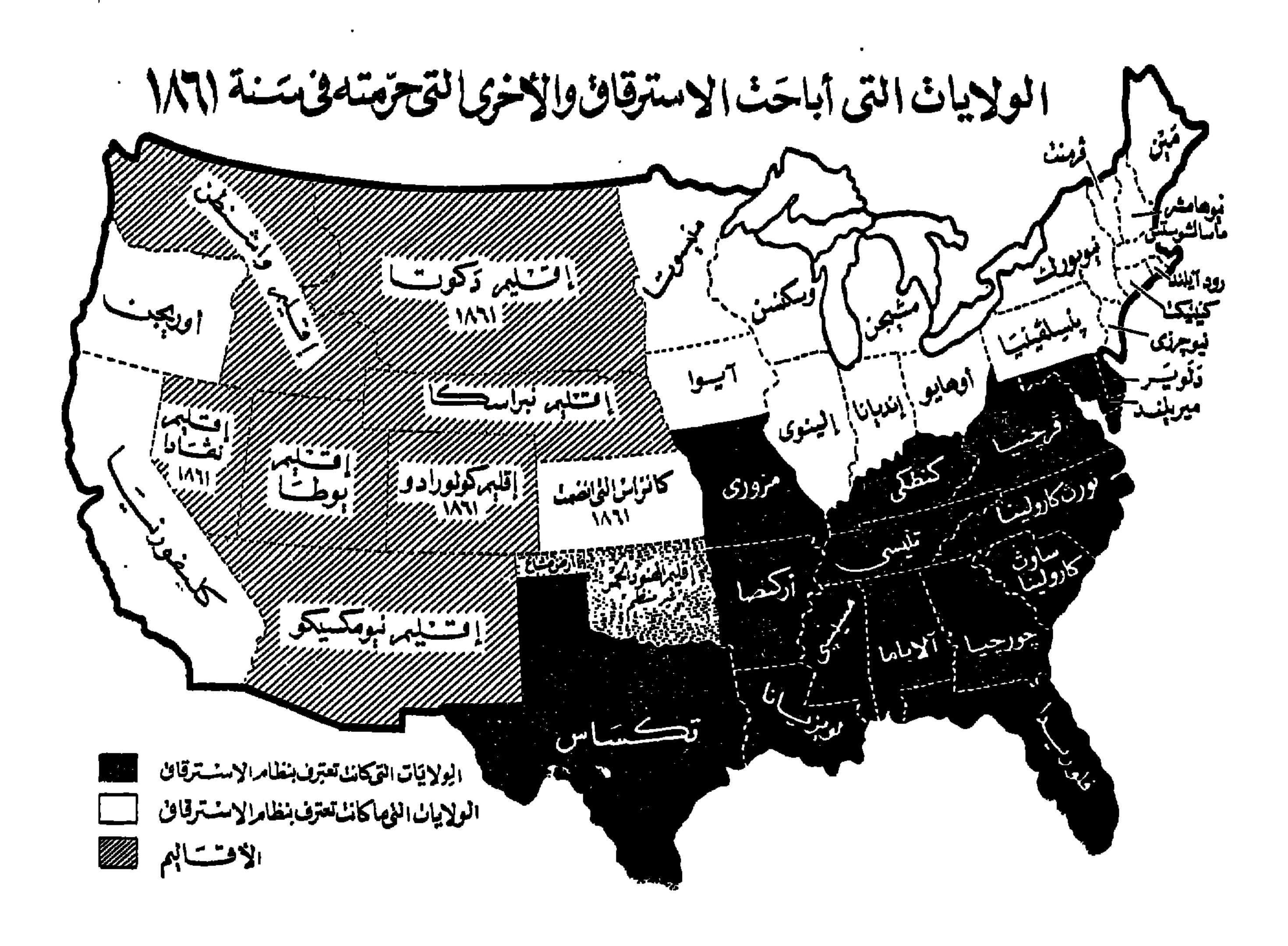
نمو الامبراطورية الالمانية

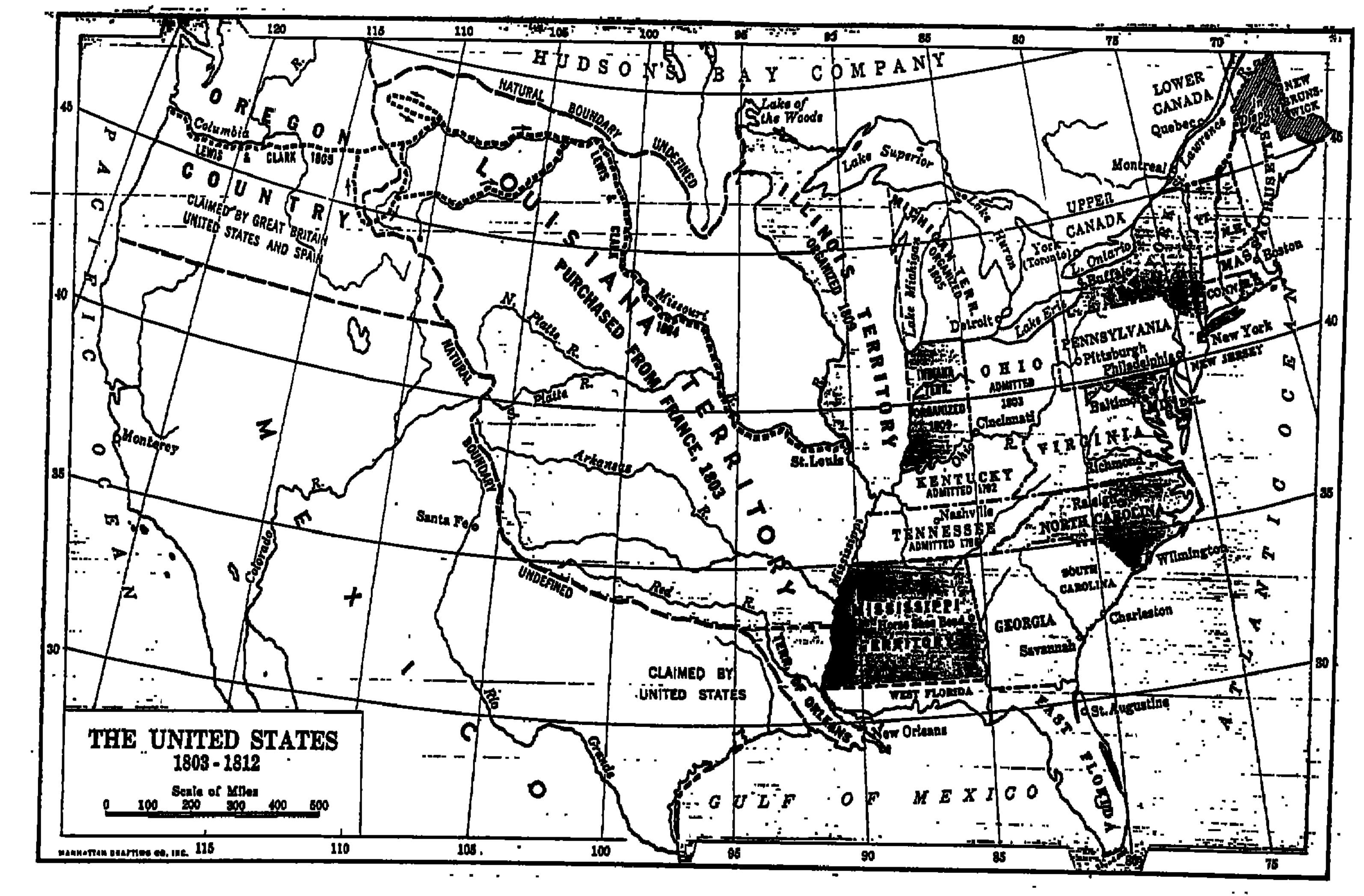

المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية
التى حاربت إنجلترا سنة ١٧٧٦
ماساتشوستس
نيوهامشير
ماساتشوستس
رود آيلند
كنيتيكت
نيويورك
بنسلفانيا
نيوجرزى
دلاوير
ميريلند
فرجينيا
نورث كارولينا
ساوث كارولينا
جورجيا

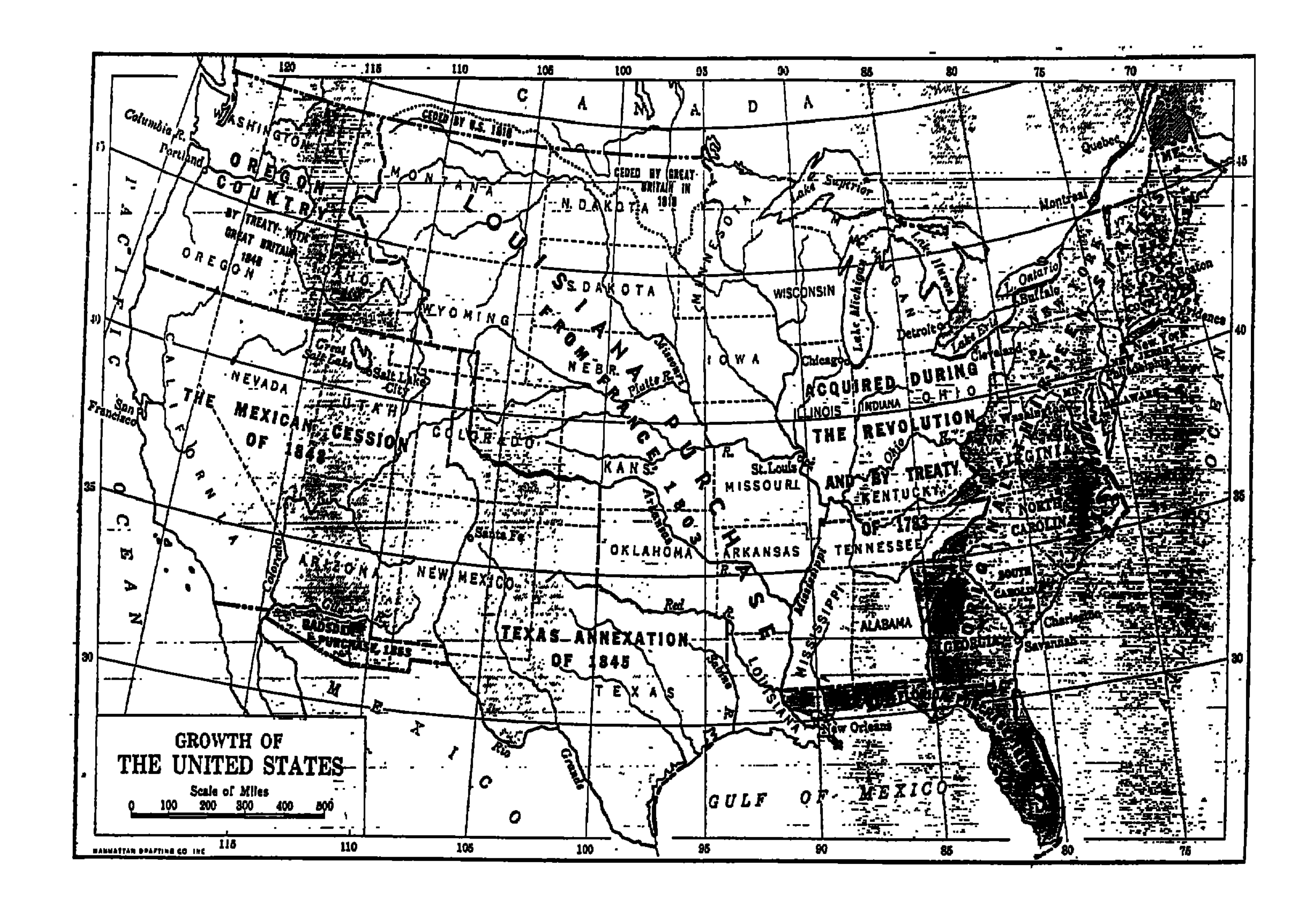
اشتريت لويزيانا سنة ١٨٠٣

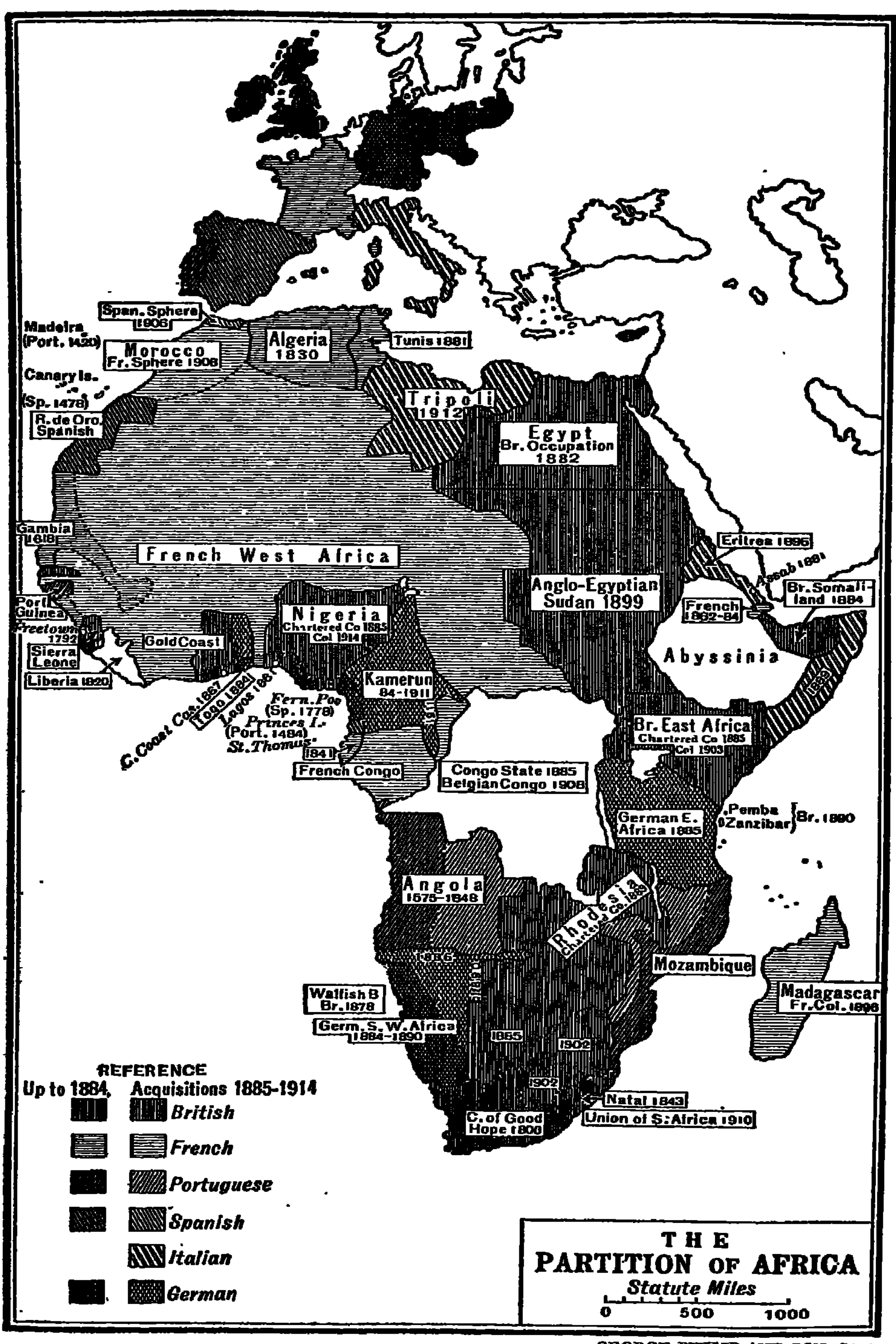


الولايات التى أباحت الاسترقاق والأخرى التى حرمته فى سنة ١٨٦١

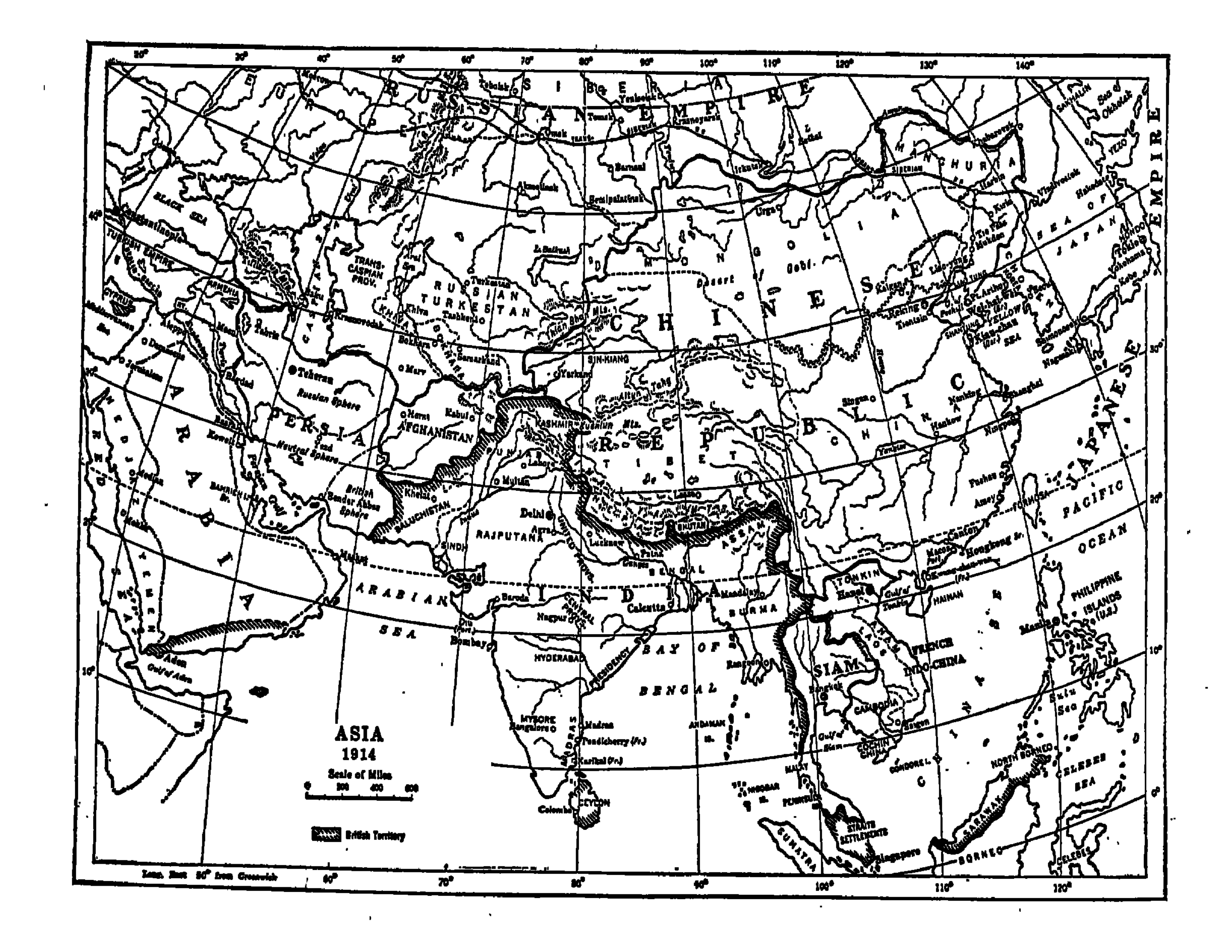


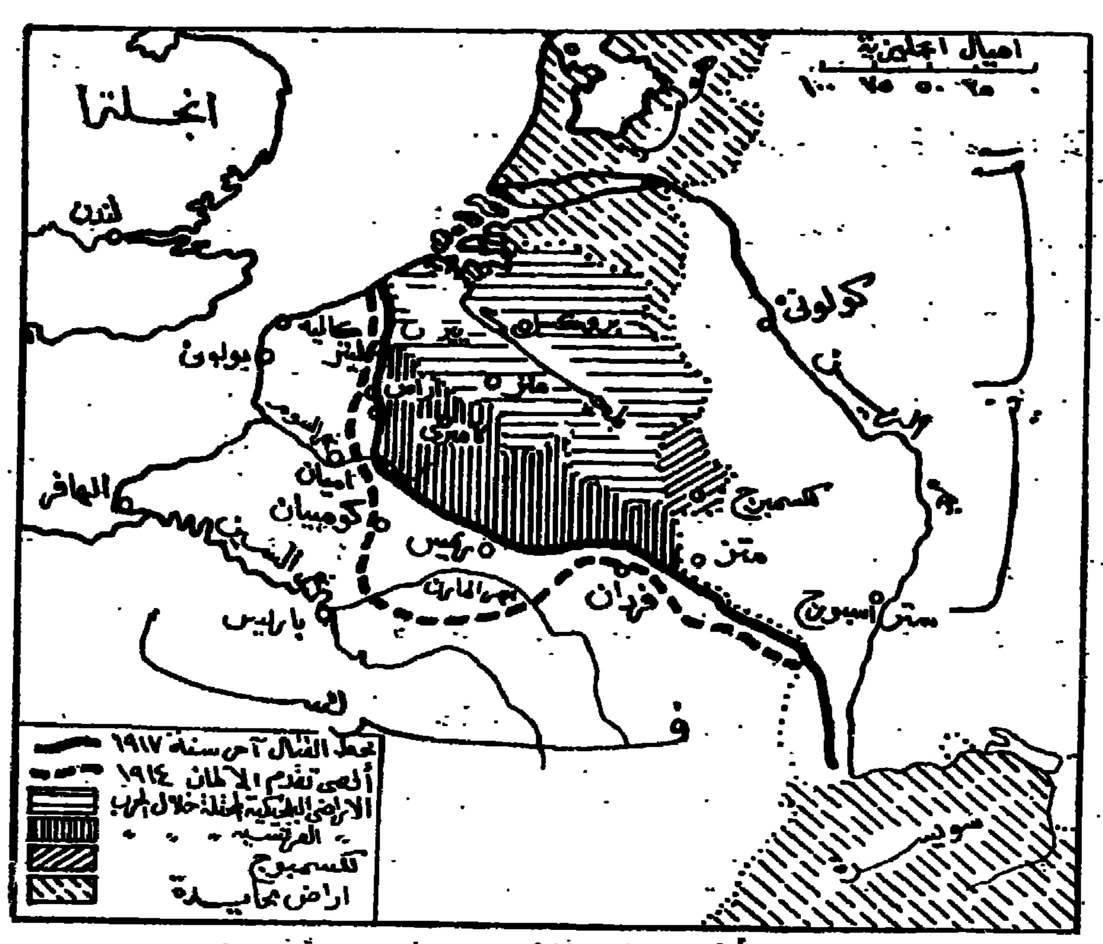

THE UNITED STATES
1803 - 1812
Scale of Miles
0 100 200 300 400 500
MANHATTAN DRAFTING CO. INC.
HUDSON'S BAY COMPANY
OREGON COUNTRY
CLAIMED BY GREAT BRITAIN
UNITED STATES AND SPAIN
Columbia
LEWIS & CLARK 1805
LOUISIANA TERRITORY
PURCHASED FROM FRANCE, 1803
NATURAL BOUNDARY
UNDEFINED
Missouri
N. Platte R.
Platte R.
Arkansas
Red R.
Santa Fe
Rio Grande
Colorado
Monterey
PACIFIC OCEAN
MEXICO
CLAIMED BY UNITED STATES
TERR. OF ORLEANS
New Orleans
GULF OF MEXICO
WEST FLORIDA
EAST FLORIDA
St. Augustine
ATLANTIC OCEAN
Lake of the Woods
Lake Superior
Lake Michigan
Lake Huron
Lake Erie
L. Ontario
ILLINOIS TERRITORY
ORGANIZED 1809
MICHIGAN TERR.
ORGANIZED 1805
INDIANA TERR.
ORGANIZED 1800
Detroit
St. Louis
Mississippi
Ohio
OHIO
ADMITTED 1803
Cincinnati
KENTUCKY
ADMITTED 1792
Nashville
TENNESSEE
ADMITTED 1796
MISSISSIPPI TERRITORY
Horse Shoe Bend
GEORGIA
Savannah
SOUTH CAROLINA
Charleston
NORTH CAROLINA
Wilmington
Raleigh
VIRGINIA
Richmond
Baltimore
PENNSYLVANIA
Pittsburgh
Philadelphia
NEW JERSEY
New York
CONN.
MASS.
Boston
Buffalo
York (Toronto)
UPPER CANADA
LOWER CANADA
Quebec
Montreal
Lawrence
NEW BRUNSWICK
MASSACHUSETTS


GROWTH OF
THE UNITED STATES
Scale of Miles
0 100 200 300 400 500
CANADA
PACIFIC OCEAN
GULF OF MEXICO
MEXICO
OREGON COUNTRY
BY TREATY WITH GREAT BRITAIN 1846
CEDED BY U.S. 1818
CEDED BY GREAT BRITAIN IN 1818
LOUISIANA PURCHASE FROM FRANCE 1803
THE MEXICAN CESSION OF 1848
TEXAS ANNEXATION OF 1845
GADSDEN PURCHASE 1853
ACQUIRED DURING THE REVOLUTION AND BY TREATY OF 1783
WASHINGTON
OREGON
IDAHO
MONTANA
WYOMING
N. DAKOTA
S. DAKOTA
NEBR.
KANS.
OKLAHOMA
TEXAS
NEVADA
UTAH
COLORADO
CALIFORNIA
ARIZONA
NEW MEXICO
MINNESOTA
IOWA
MISSOURI
ARKANSAS
LOUISIANA
WISCONSIN
ILLINOIS
INDIANA
OHIO
MICHIGAN
KENTUCKY
TENNESSEE
MISSISSIPPI
ALABAMA
GEORGIA
FLORIDA
SOUTH CAROLINA
NORTH CAROLINA
VIRGINIA
PA.
NEW YORK
ME.
Columbia R.
Portland
San Francisco
Great Salt Lake
Salt Lake City
Colorado
Santa Fe
Missouri
Platte R.
Arkansas
Red
Rio Grande
Sabine R.
Mississippi
Ohio
St. Louis
Chicago
Detroit
Cleveland
Buffalo
Lake Superior
Lake Michigan
Lake Huron
Lake Erie
L. Ontario
Montreal
Quebec
Boston
Providence
New York
Philadelphia
Washington
Charleston
Savannah
New Orleans
Manhattan Drafting Co. Inc.

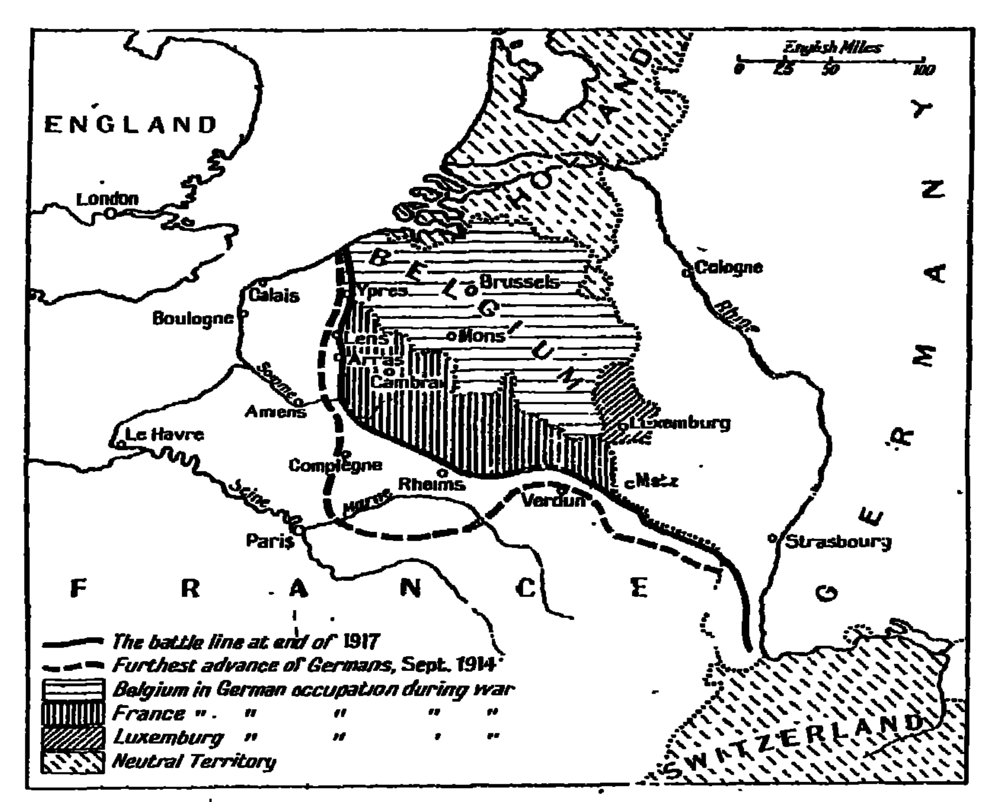


GEORGE PHILIP AND SON, LTD.

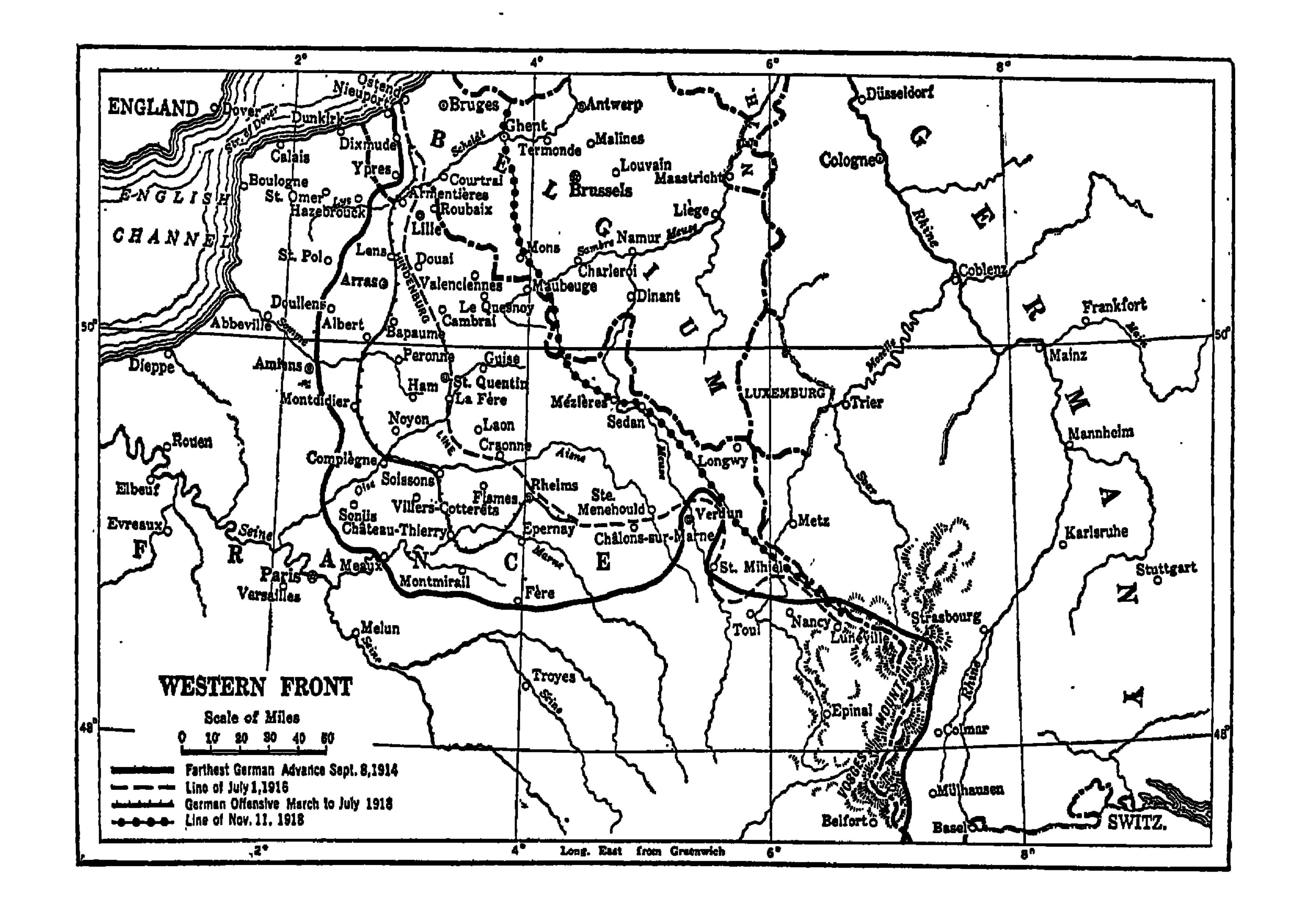

ASIA
1914
Scale of Miles
0 200 400 600
British Territory
Long. East 50° from Greenwich
RUSSIAN EMPIRE
SIBERIA
CHINESE REPUBLIC
MONGOLIA
MANCHURIA
TIBET
CHINA
JAPANESE EMPIRE
SEA OF JAPAN
YELLOW SEA
PACIFIC OCEAN
PHILIPPINE ISLANDS (U.S.)
FRENCH INDO-CHINA
SIAM
BURMA
INDIA
BAY OF BENGAL
ARABIAN SEA
ARABIA
PERSIA
AFGHANISTAN
BALUCHISTAN
RUSSIAN TURKESTAN
TRANS-CASPIAN PROV.
TURKISH EMPIRE
BLACK SEA
CYPRUS
Russian Sphere
Neutral Sphere
British Bandar Abbas Sphere
RAJPUTANA
KASHMIR
HYDERABAD
MYSORE
MADRAS
CEYLON
ASSAM
BENGAL
STRAITS SETTLEMENTS
SUMATRA
BORNEO
SARAWAK
NORTH BORNEO
CELEBES SEA
CELEBES
Sulu Sea
HAINAN
TONKIN
CAMBODIA
FORMOSA
SAKHALIN
Sea of Okhotsk
YEZO
Teheran
Delhi
Bombay
Calcutta
Colombo
Madras
Aden
Gulf of Aden
Singapore
Bangkok
Hongkong
Manila
Nagpur
Lahore
Multan
Kabul
Herat
Merv
Bokhara
Samarkand
Khiva
Tashkent
Krasnovodsk
Omsk
Tomsk
Tobolsk
Barnaul
Irkutsk
Urga
Harbin
Vladivostok
Mukden
Port Arthur
Peking
Tientsin
Shanghai
Nanking
Hankow
Canton
Amoy
Nagasaki
Tokio
Yokohama
Kobe
Hakodate
Constantinople
Aleppo
Bagdad
Basra
Mecca
Medina
Jerusalem
Damascus
Tabriz
Muscat
Yarkand
Kashgar
Rangoon
Mandalay
Saigon
Hanoi
Lhasa
Pondicherry (Fr.)
Karikal (Fr.)
Diu (Port.)
Goa (Port.)
Baroda
Bangalore
Lucknow
Patna
Agra
Kelat
SINDH
Sindh
Altyn Tagh
Kuenlun Mts.
Tian Shan Mts.
L. Balkash
Aral Sea
Desert of Gobi
SIN-KIANG
Gulf of Siam
Gulf of Tonkin
ANDAMAN IS.
NICOBAR IS.
MALAY PENINSULA
COCHIN CHINA
LAOS
ANNAM
BHUTAN
NEPAL
EUROPE
Mediterranean Sea
Persian Gulf
Red Sea
YEMEN
HEJAZ
ARMENIA
Kurdistan
Koweit
Shantung
Korea
Formosa
Kiaochau (Ger.)

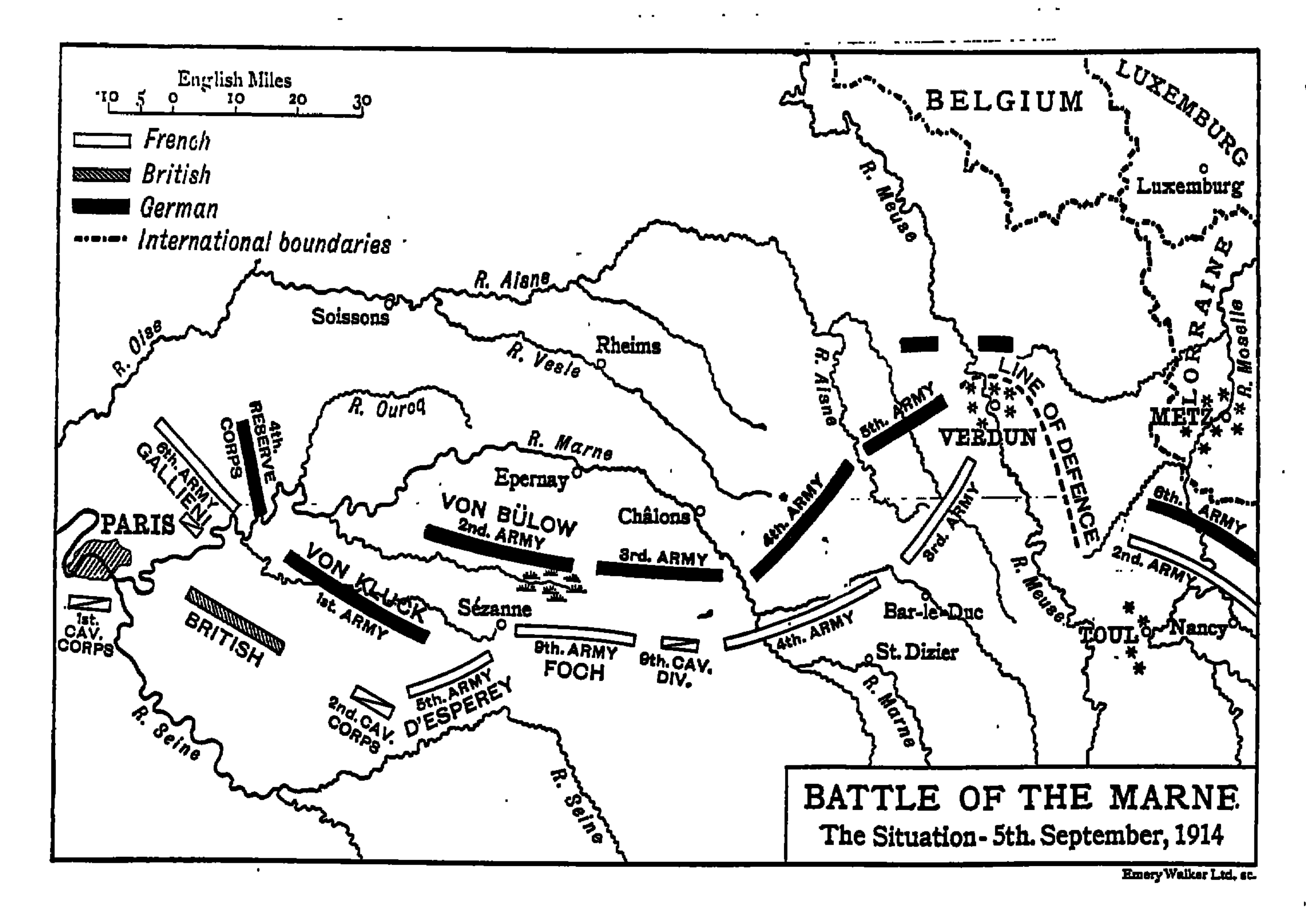


خريطة الميدان الغربي ١٩١٤ - ١١٩٨



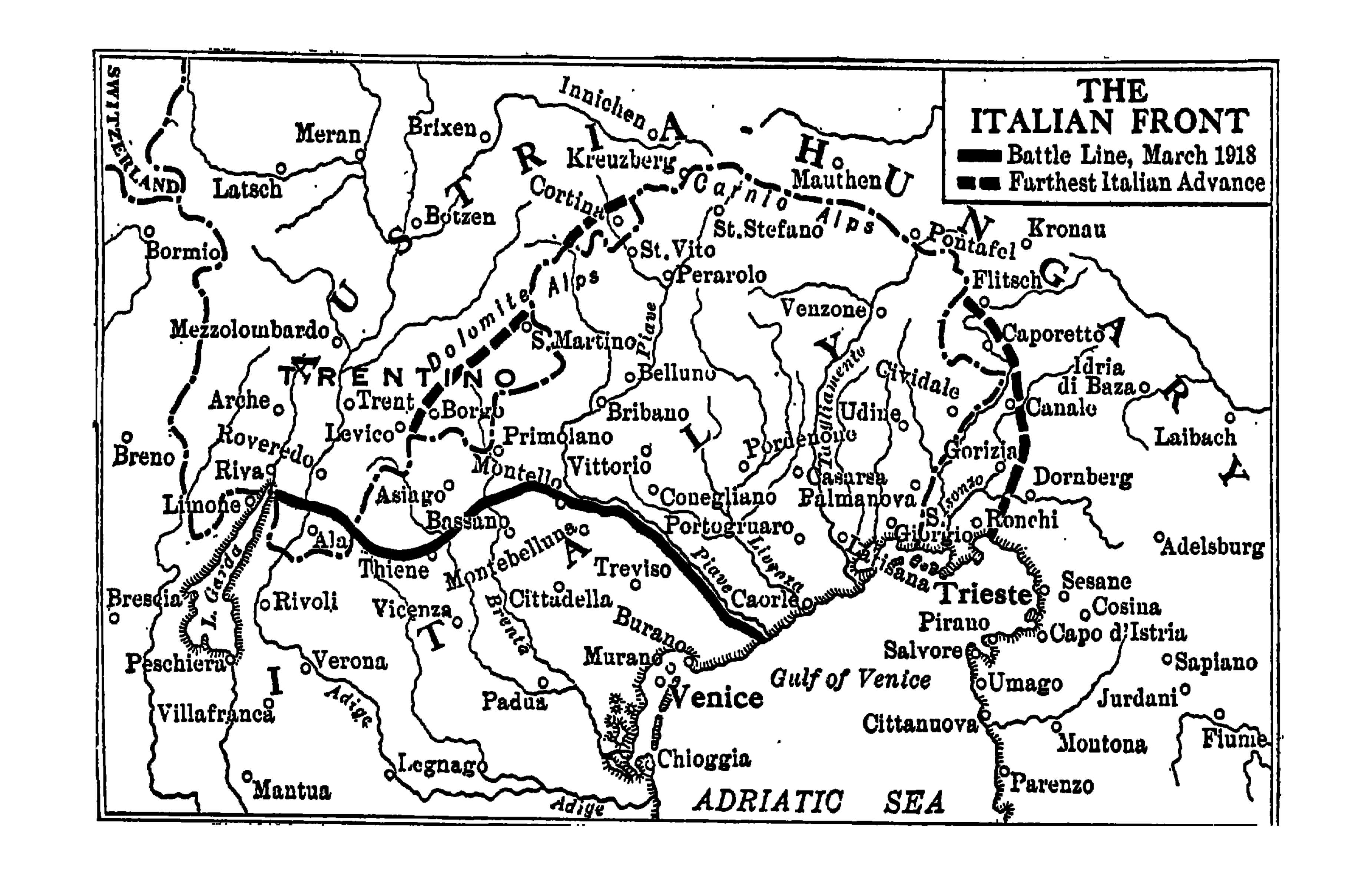
THE WESTERN FRONT, 1914-18.

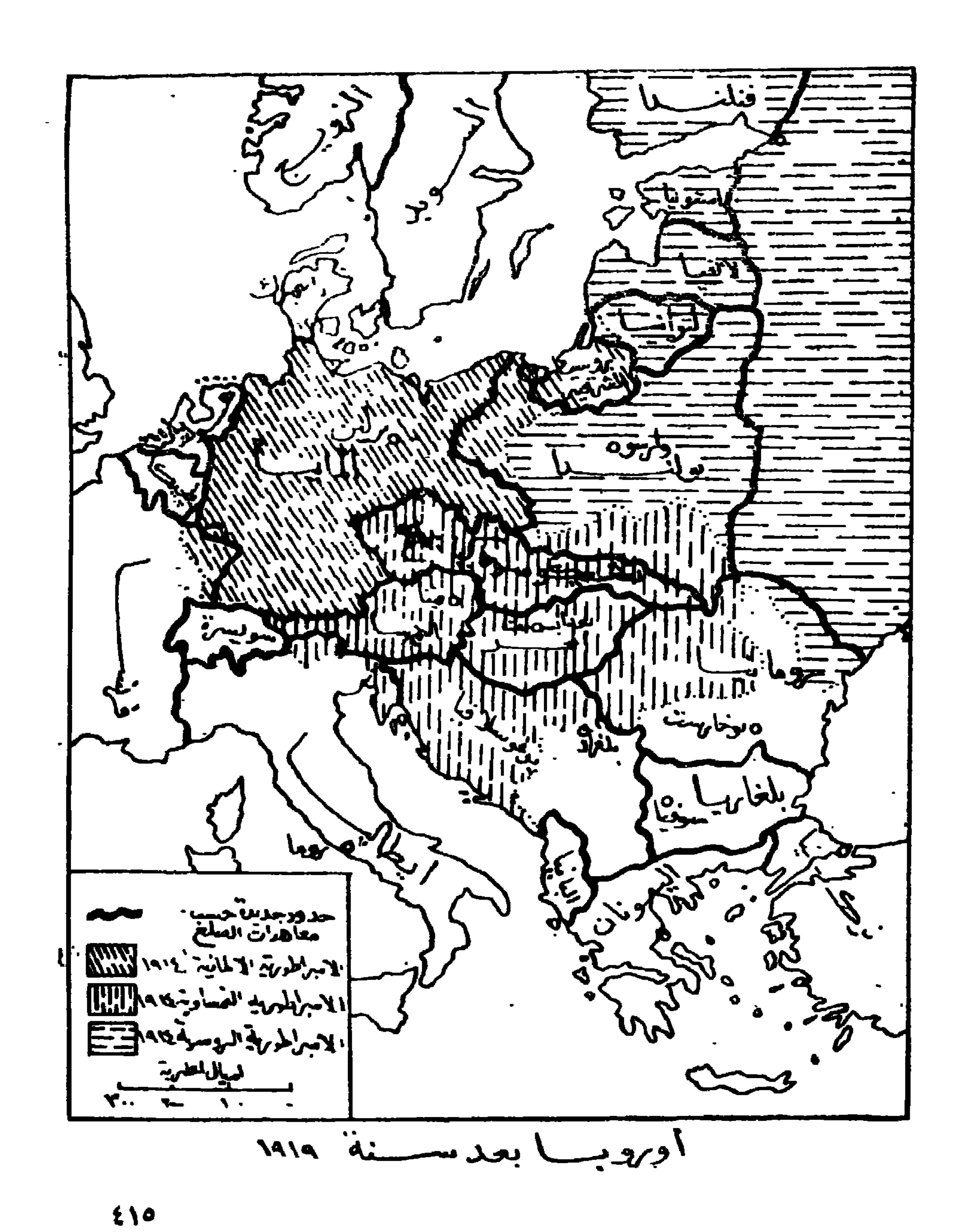

WESTERN FRONT
Scale of Miles
0 10 20 30 40 50
Farthest German Advance Sept. 8,1914
Line of July 1,1916
German Offensive March to July 1918
Line of Nov. 11, 1918
Long. East from Greenwich
ENGLAND
ENGLISH CHANNEL
FRANCE
BELGIUM
GERMANY
LUXEMBURG
SWITZ.
VOSGES MOUNTAINS
HINDENBURG LINE
Dover
Calais
Dunkirk
Ostend
Nieuport
Dixmude
Ypres
Boulogne
St. Omer
Hazebrouck
Armentières
Courtrai
Roubaix
Lille
Bruges
Ghent
Termonde
Antwerp
Malines
Louvain
Brussels
Maastricht
Liège
Namur
Charleroi
Mons
Maubeuge
Dinant
Valenciennes
Le Quesnoy
Cambrai
Douai
Lens
Arras
St. Pol
Doullens
Albert
Bapaume
Abbeville
Amiens
Dieppe
Peronne
Guise
Ham
St. Quentin
La Fère
Montdidier
Noyon
Laon
Craonne
Mézières
Sedan
Rouen
Elbeuf
Evreaux
Compiègne
Soissons
Senlis
Villers-Cotterets
Fismes
Rheims
Ste. Menehould
Château-Thierry
Epernay
Châlons-sur-Marne
Verdun
Longwy
Paris
Versailles
Meaux
Montmirail
Fère
St. Mihiel
Metz
Toul
Nancy
Lunéville
Strasbourg
Melun
Troyes
Epinal
Colmar
Mülhausen
Belfort
Basel
Düsseldorf
Cologne
Coblenz
Trier
Frankfort
Mainz
Mannheim
Karlsruhe
Stuttgart
Seine
Somme
Oise
Aisne
Marne
Meuse
Sambre
Scheldt
Lys
Moselle
Saar
Rhine
Main
2°
4°
6°
8°
48°
50°



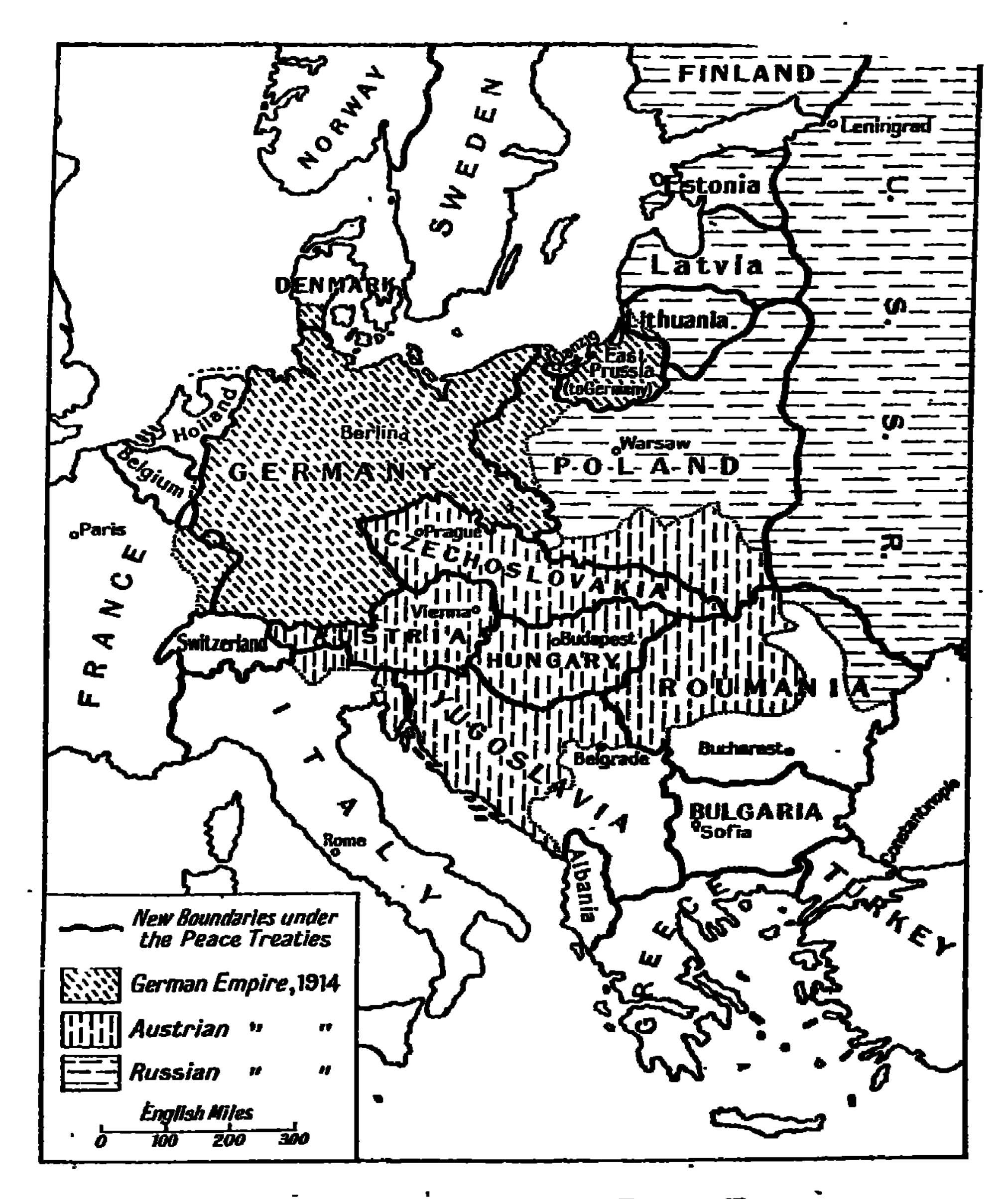
BATTLE OF THE MARNE.
The Situation - 5th. September, 1914


THE
BALKAN FRONT
Battlefronts at the end of 1916
Scale of Miles
0
100
200
300
Vienna
Budapest
AUSTRIA - HUNGARY
TRANSYLVANIA
Hermannstadt
Vulcan Pass
Cronstadt
Focşani
Jassy
MOLDAVIA
BESSARABIA
CROATIA
Drave R.
BOSNIA
Danube
Belgrade
RUMANIA
Bucharest
Craiova
WALLACHIA
DOBRUJA
Constanza
BLACK SEA
SERBIA
Nish
Sofia
BULGARIA
HERZE-GOVINA
MONTE-NEGRO
Scutari
Skoplje
ALBANIA
Rupel
Doiran
Kavalla
Monastir
MACEDONIA
Salonika
Valona
Constantinople
GALLIPOLI
TURKEY
ADRIATIC SEA
ITALY
CORFU
GREECE
Aegean Sea
Athens

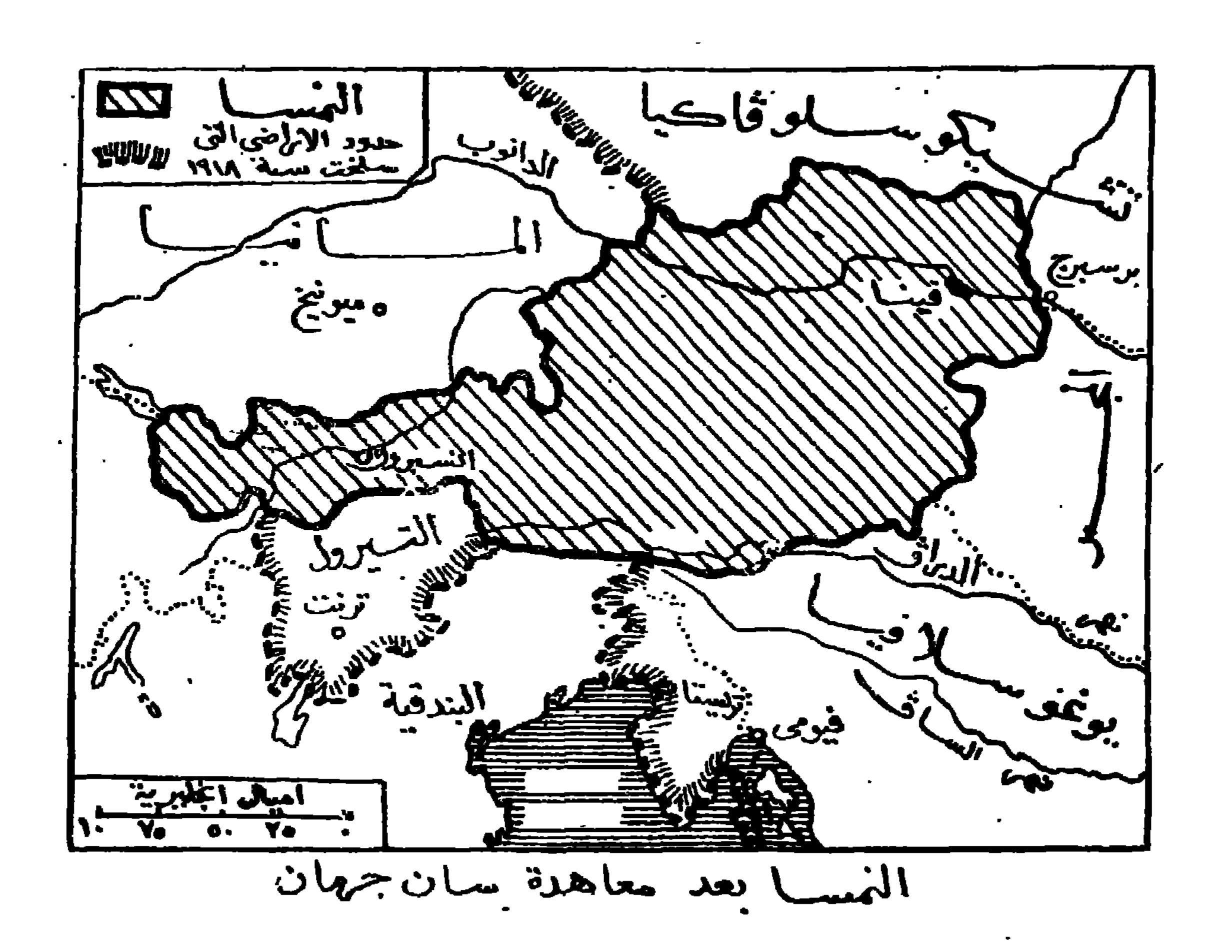

THE
ITALIAN FRONT
Battle Line, March 1918
Furthest Italian Advance
SWITZERLAND
AUSTRIA-HUNGARY
TRENTINO
ITALY
Meran
Brixen
Innichen
Latsch
Botzen
Kreuzberg
Cortina
Carnic Alps
Mauthen
St. Stefano
Pontafel
Kronau
Bormio
St. Vito
Perarolo
Flitsch
Dolomite Alps
Mezzolombardo
S. Martino
Venzone
Caporetto
Piave
Belluno
Idria
di Baza
Arche
Trent
Borgo
Bribano
Cividale
Udine
Canale
Laibach
Breno
Levico
Primolano
Tagliamento
Pordenone
Roveredo
Vittorio
Gorizia
Riva
Asiago
Montello
Casarsa
Dornberg
Limone
Conegliano
Palmanova
Isonzo
Bassano
Portogruaro
S. Giorgio
Ronchi
Ala
Livenza
Adelsburg
Thiene
Montebelluna
Treviso
Latisana
Trieste
Sesane
Brescia
L. Garda
Rivoli
Vicenza
Cittadella
Caorle
Cosina
Brenta
Burano
Pirano
Capo d'Istria
Peschiera
Verona
Murano
Salvore
Sapiano
Gulf of Venice
Umago
Villafranca
Adige
Padua
Venice
Jurdani
Cittanuova
Montona
Fiume
Legnago
Chioggia
Mantua
Parenzo
ADRIATIC SEA



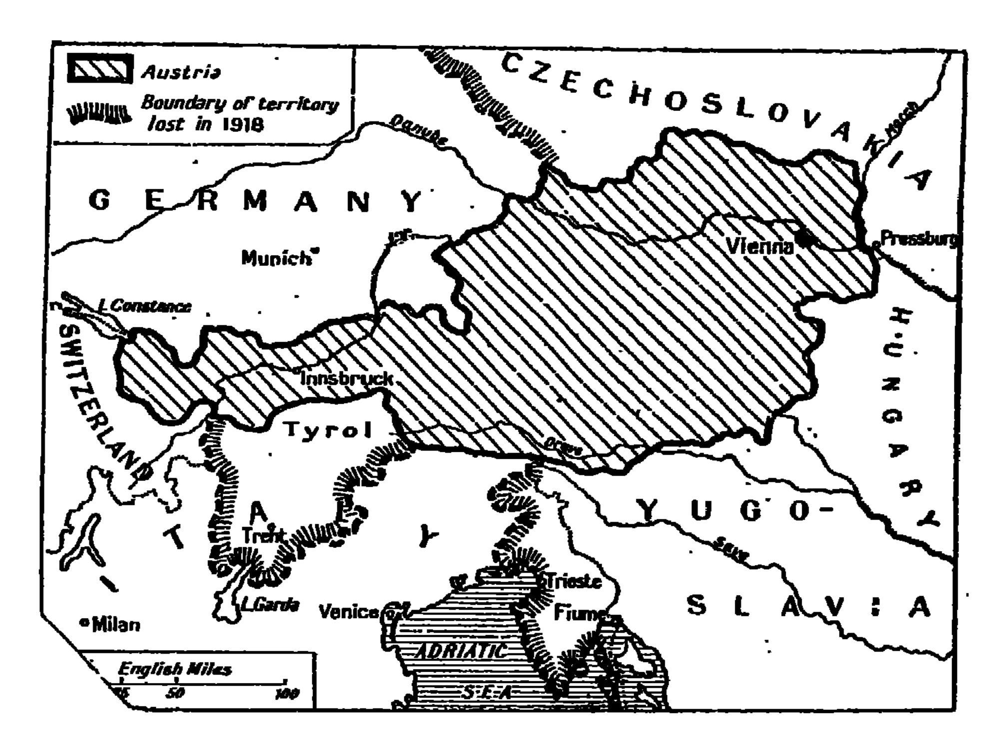
أوروبا بعد سنة ١٩١٩



EUROPE REMODELLED BY THE PEACE TREATIES.



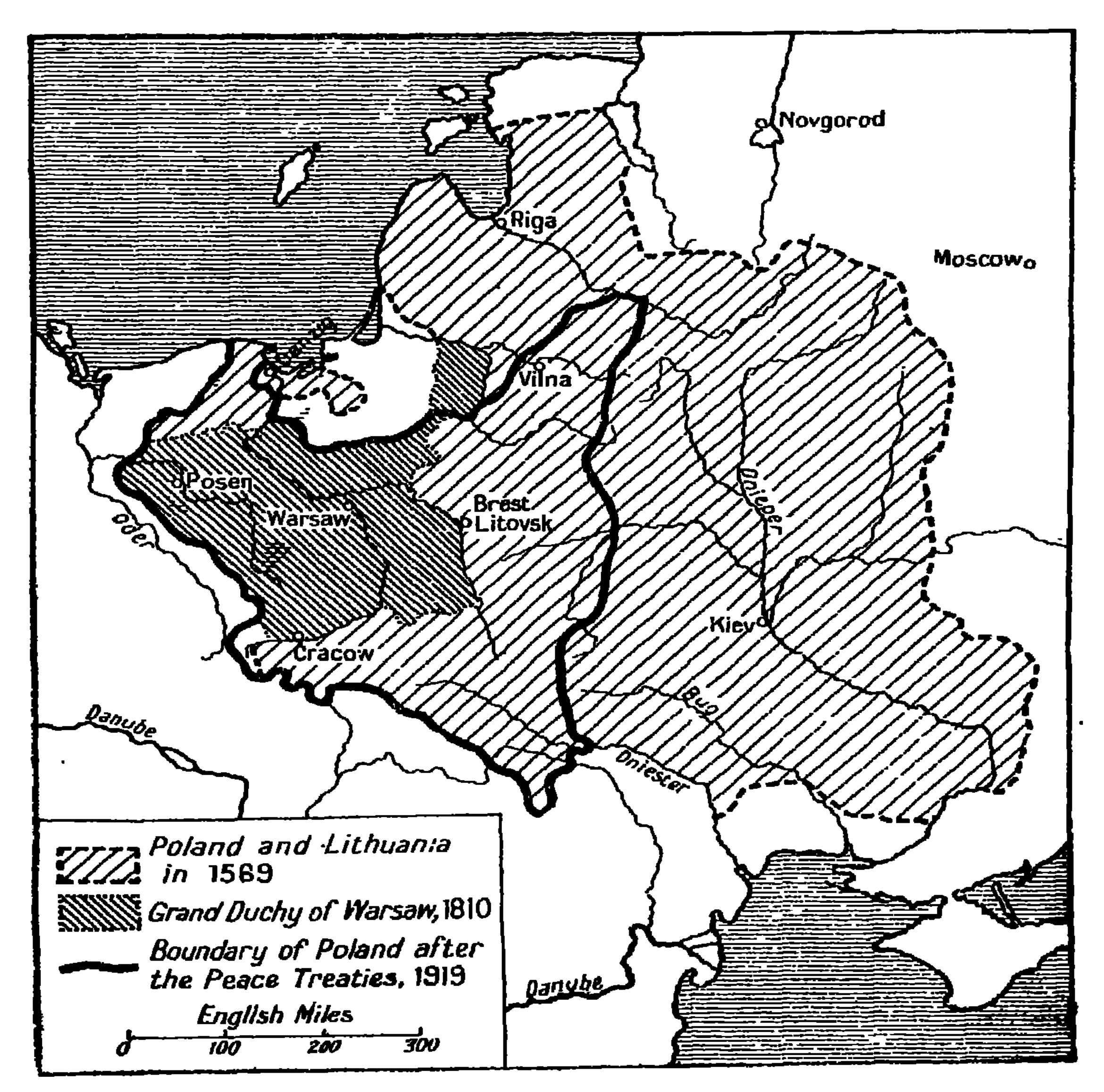
النمسا بعد معاهدة سان جرمان



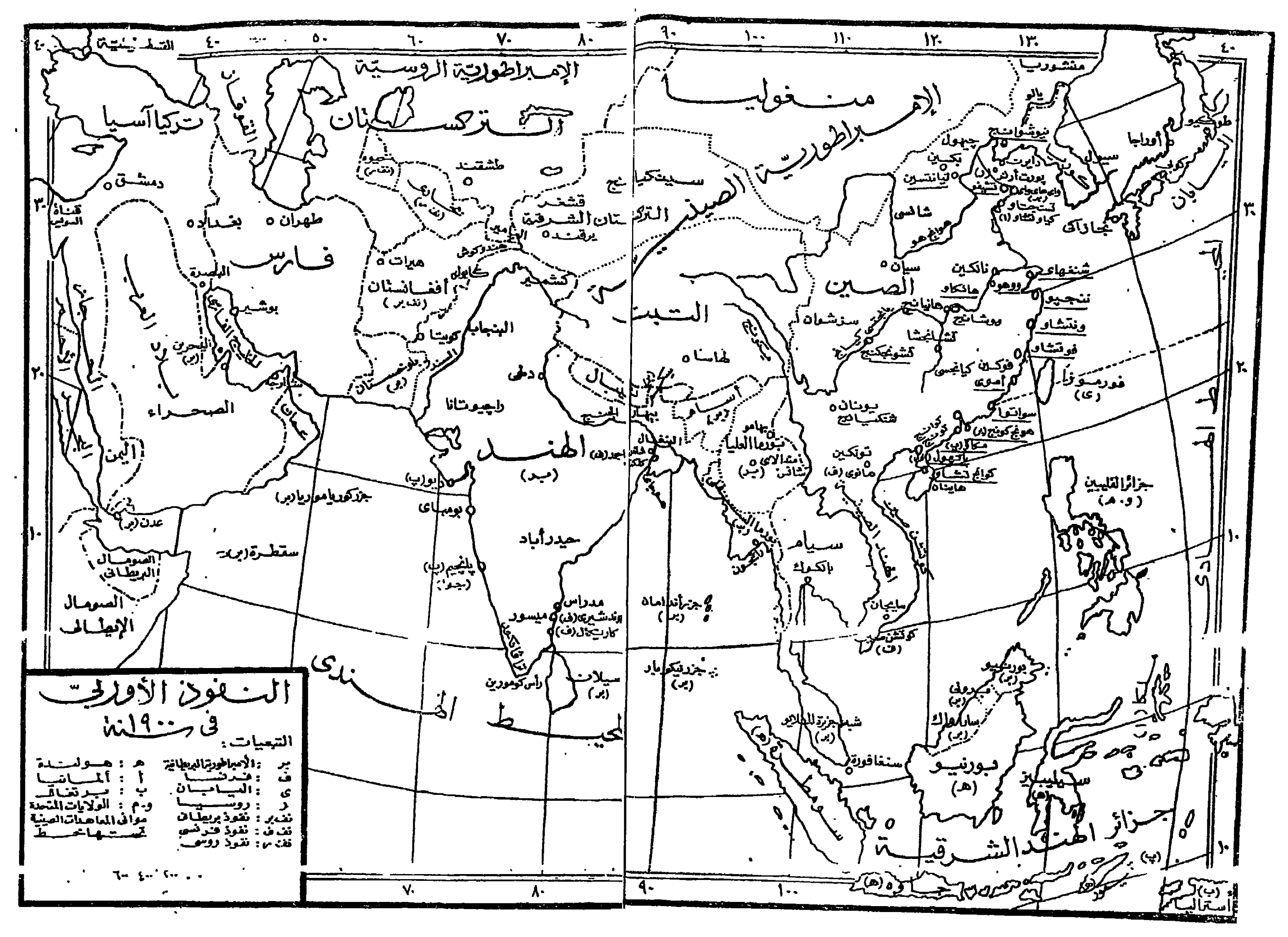
Austria, after the Peace Treaties.



خريطة بولنـــدا


Novgorod
Riga
Moscow
Vilna
Posen
Warsaw
Brest Litovsk
Oder
Dnieper
Kiev
Cracow
Bug
Danube
Dniester
Danube
Poland and Lithuania in 1569
Grand Duchy of Warsaw, 1810
Boundary of Poland after the Peace Treaties, 1919
English Miles
0
100
200
300

POLAND.

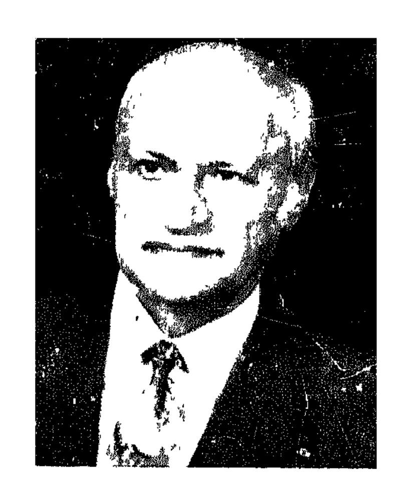

النفوذ الأوربي
في سنة ١٩٠٠
التبعيات :
بر : الامبراطورية البريطانية
ف : فرنسا
ى : اليابان
ر : روسيا
نف بر : نفوذ بريطاني
نف ف : نفوذ فرنسي
نف ر : نفوذ روسي
هـ : هولندة
أ : ألمانيا
ب : برتغال
و.م : الولايات المتحدة
موانى المعاهدات الصينية تحتها خط
الإمبراطورية الروسية
تركستان
تركيا آسيا
دمشق
قناة السويس
بغداد
طهران
فارس
البصرة
بوشير
الصحراء
اليمن
عدن (بر)
سقطرة (بر)
الصومال البريطاني
الصومال الإيطالي
طشقند
خيوة
هيرات
أفغانستان
كابول
كشمير
البنجاب
دلهي
الهند
بومباي
حيدرأباد
مدراس
ميسور
سيلان (بر)
رأس كومورين
المحيط الهندى
التبت
لهاسا
بورما العليا
سيام
بانكوك
سنغافورة
سومطرة
بورنيو (هـ)
جزائر الهند الشرقية
جزائر الفليبين (و.م)
فورموزا (ى)
الصين
نانكين
شنغهاي
هانكاو
سوانتاو
هونج كونج (بر)
ماكاو (ب)
الإمبراطورية الصينية
منغوليا
منشوريا
بكين
سيول
اليابان
ناجازاكي
طوكيو
أوزاكا
التركستان الشرقية
قشغر
يرقند
جزر أندامان (بر)
جزر نيكوبار (بر)
سراواك (بر)
جاوه (هـ)
استراليا
١٠
٢٠
٣٠
٤٠
٥٠
٦٠
٧٠
٨٠
٩٠
١٠٠
١١٠
١٢٠
١٣٠

فهرس تفصيلى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٧/٢٥٨٤

I.S.B.N- 977 - 01 - 5098 - 3



يختلف هذا الكتاب عن كتب المدرسة التقليدية التى تنظر إلى التاريخ من منظور سياسى فتقلبه على قدميه وتقدم فيه النتائج على المقدمات. فهو يبدأ بظهور الطبقة البورجوازية التى غيرت وجه الحياة فى أوروبا والعالم، ويتتبع نتائج ظهور هذه الطبقة. كما تمثلت فى النهضة الأوروبية، وحركة الإصلاح الدينى، وظهور الدول القومية على أنقاض الاقطاع. ويتناول تطلع هذه الدول القومية إلى التوسع داخل أوروبا وخارجها مما يؤدى إلى نشوب الحروب الإيطالية من جهة، وإلى الكشوف الجغرافية والحركات الاستعمارية من جهة أخرى.

ويتعرض الكتاب للتطورات التى أحدثتها هذه الطبقة البورجوازية فى النظام السياسى فى أوروبا، وانتقالها به من نظام الملكية المطلقة إلى نظام الملكية المستبدة الدستورية فيما عدا فرنسا، الأمر الذى يؤدى إلى نشوب الثورة الفرنسية للقضاء على بقايا الاقطاع وإسقاط الحق الإلهى للملوك فى الحكم؛ فتهب الأسر الحاكمة فى أوروبا للقضاء على الثورة الفرنسية، وتنشب حروب الثورة ونابوليون التى تنتهى بهزيمة نابوليون، وإعادة الدول المنتصرة تقسيم العالم فى مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥م، فيبدأ عصر الثورات القومية والدستورية الذى ينتهى بتوحيد إيطاليا على يد كافور وألمانيا على يد بسمارك، ويشتعل التنافس الاستعمارى بين الاستعمار الجديد والاستعمار القديم على نحو يؤدى إلى نشوب الحرب العالمية الأولى التى تسقط فيها أربع امبراطوريات.

وتقوم ألمانيا النازية بعد الحرب على أنقاض القيصرية، فتشعل نيران الحرب العالمية الثانية التى تنتهى بهزيمة الفاشية والنازية، وانقسام العالم إلى معسكرين رأسمالى واشتراكى، وتنشب بين المعسكرين حرب من نوع جديد هى الحرب الباردة فى ظل التوازن الذرى، ويظهر العالم الثالث ودول عدم الانحياز، ويتغير العالم القديم.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب